روايات تاريخ الإسلام

شارل وعبد الرحمن

تتضمّن فتوح العرب في بلاد فرنسا إلى ضفاف نهر (لوار) بجوار (تورس)، وما كان من تحالف الإفرنج هناك وتصدّيهم بقيادة (شارل مارتل) لصدّ الفاتحين العرب

تأليف
جرجي زيدان

الدار النموذجية

obeikandl.com

شركة أبناء شريف الأنصاري
للطباعة والنشر والتوزيع
صيدا - بيروت - لبنان

• المكتبة العصرية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• الدار النموذجية
الخندق الغميق - ص.ب: ١١/٨٣٥٥
تلفاكس: ٦٥٥٠١٥ - ٦٣٢٦٧٣ - ٦٥٩٨٧٥ ١ ٠٠٩٦١
بيروت - لبنان

• المطبعة العصرية
بوليفار نزيه البزري - ص.ب: ٢٢١
تلفاكس: ٧٢٠٦٢٤ - ٧٢٩٢٥٩ - ٧٢٩٣٦١ ٧ ٠٠٩٦١
صيدا - لبنان

٢٠٠٧م - ١٤٢٨هـ

Copyright© all rights reserved
جميع الحقوق محفوظة للناشر
لا يجوز نسخ أو تسجيل أو إستعمال أي جزء من هذا الكتاب سواء كانت تصويرية أم الكترونية أم تسجيلية دون إذن خطي من الناشر.

E. Mail
alassrya@terra.net.lb
alassrya@cyberia.net.lb

موقعنا على الإنترنت
www.almaktaba-alassrya.com

obeikandl.com

أبطال الرواية

* **عبد الرحمن الغافقي** : أمير العرب باسبانيا.
* **شارل مارتل** : قائد الافرنج.
* **هانئ** : رئيس الفرسان العرب.
* **الدوق أودو** : أمير اكيتانيا.
* **بسطام** : رئيس قبيلة من البربر.
* **مريم** : بنت عبد العزيز بن موسى.
* **سالمة** : (أجيلا) أم مريم من السبايا وكانت زوجة رودريك ملك الإسبان.
* **ميمونة** : لمباجة بنت الدوق أودو من السبايا، وجارية عبد الرحمن الغافقي.
* **حسان** : خادم مريم.

obeikandl.com

مراجع رواية شارل وعبد الرحمن

هذه هي المراجع التي اعتمد عليها المؤلف في تأليف الرواية ووقائعها التاريخية :

* تاريخ المقري .
* تاريخ ابن الأثير .
* تاريخ أبي الفداء .
* مؤلفات : رومي ، ورينو ، وانيردر ، والباجي ، وايزيدور .
* تاريخ التمدن الإسلامي للمؤلف .
* كتاب تبرئة الإسلام .
* نهاية الإرب في قبائل العرب .
* مختصر الدول .
* نفح الطيب .

obeikandi.com

— ١ —
فذلكة تاريخية

فتح المسلمون إسبانيا سنة ٩٢ هـ(٧١١م) بقيادة طارق بن زياد البربري أحد أتباع موسى بن نصير عامل بني أمية على إفريقية. وكان موسى يومئذ قد ناهز الثمانين. فلما فُتحت الأندلس أصبحت من أعمال ولايته هذه أي من فروعها. وكان عامل افريقية يقيم بالقيروان، وهو الذي يولي عمال الأندلس، إلى أن استقلت في عهد الدولة الأموية الأندلسية بعد ظهور العباسيين في المشرق.

ولما تهيأت أسباب الفتح لموسى وهو في إفريقية، استشار الخليفة في ذلك فوافقه وحذره، فلم يشأ موسى أن يفرط في جند العرب، وهم يومئذ قليلون بالقياس إلى أهل البلاد التي فتحوها، فأنفذ في تلك المهمة حملة أكثرها من البربر ـ سكان إفريقيا الأصليين ـ وجعل قيادتهم لمولاه طارق. فلما التحم جيشا طارق ورودريك في «فحص شريش» وقُتل رودريك سنة ٩٢ هـ. أصبح فتح الأندلس أمراً مقضياً، ولم تمض سنة حتى فُتحت قرطبة ومالقة وطليطلة وغيرها من مدن الأندلس العظمى، وتوطدت أقدام المسلمين هناك.

وكان خبر ذلك النصر السريع قد بلغ موسى فتمنى أن تكون له يد فيه، ولذا كتب إلى طارق أن يتوقف ريثما يلحق به، وجنّد جنداً آخر من العرب والبربر، وقدم إلى إسبانيا من جهة أخرى ففتح مريدة وسرقوسة وغيرهما، ولما رأى سهولة الفتح عليه أوغل في إسبانيا حتى جاوز جبال البيرينة إلى فرنسا، ووصل إلى نربونة معتزماً مواصلة غزو أوربا حتى يعود إلى الشام من طريق القسطنطينية، فيتم له فتح العالم المعمور يومئذ، وكانت أوربا منقسمة على نفسها مضعضعة.

وفي أثناء تلك الفتوحات شَجَرَ بين موسى وطارق خلاف ما

لبث أن استفحل حتى اضطر الخليفة في دمشق ـ الوليد بن عبد الملك ـ إلى استقدامهما إليه للنظر في أمرهما، فشخصا إلى الشام سنة ٩٤ هـ، وحمل موسى معه من الغنائم والسبايا ما لا يحصى، بعد أن ولى على إسبانيا ابنه عبد العزيز، فجعل هذا قصبته إشبيلية.

على أن الخليفة توفي خلال المحاكمة فخلفه أخوه سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦، وكان بينه وبين موسى ضغائن فشدد النكير عليه وسجنه، وأوعز إلى بعض الأمراء في الأندلس أن يقتلوا ابنه عبد العزيز فقتلوه، وحملوا رأسه محنطاً إلى دمشق، فاستقدم سليمان موسى من سجنه وأراه رأس ابنه فأثر ذلك فيه فمات بعد قليل.

أما طارق فلا ندري ما انتهى إليه أمره، ومهما يكن الأمر فإن العرب بعد أن ذهب موسى وطارق، لم يذهب من فكرهم فتح أوربا، فراحوا يتحينون الفرص لمواصلته، ثم يحول دون ذلك ما كان ينشب بين قبائلهم من الخصام. فلما كانت سنة ٩٨ هـ عادوا إلى تنفيذ مشروع موسى من طريق آخر، فأنفذ الخليفة سليمان لذلك حملة كبيرة بقيادة أخيه مسلمة، فحاصرت القسطنطينية، وبقيت كذلك حتى توفي سليمان وتولى الخلافة عمر بن عبد العزيز سنة ٩٩ هـ، فاسترجع الجند بعد أن امتنع عليهم الفتح من ذلك الطريق، وبدأ فيه من طريق الأندلس.

وتوالى على الأندلس بعد ذلك أمراء عديدون فتحوا مدناً كثيرة من جنوبي فرنسا، ولكنهم لم يثبتوا أقدامهم إلا في قليل منها. ثم آلت الإمارة إلى عبد الرحمن الغافقي سنة ١١٢ (٧٣٠م). وكان رجلاً حازماً تقياً محترماً، غيوراً على الإسلام والمسلمين، فأخذ على عاتقه استئناف العمل لفتح أوربا عن طريق غاليا(فرنسا) فألمانيا فالمملكة الرومانية إلى الشام، وكانت قصبة الأندلس يومئذ قد انتقلت إلى

قرطبة، فأخذ عبد الرحمن في إعداد الجند لغزو بلاد الافرنج ـ وكانوا يسمونها يومئذ الأرض الكبرى ـ ولكنه كان أشد حذراً ممن سبقوه فراح يتقصى أسباب فشلهم ويعمل على تلافيها، فطاف إسبانيا بنفسه حيث تفقد حكامها، وعزل الضعفاء وأهل المطامع منهم، وولى بدلاً منهم رجالاً ذوي دراية وحلم، ليحسنوا سياسة أهلها، ورد إلى هؤلاء ما كان أسلافه قد اغتصبوه من كنائسهم وأملاكهم، وأعاد إليهم ما كان لهم من الحقوق في زمن موسى بن نصير، وكان خلال طوافه يخطب المسلمين في المساجد ويحرضهم على الجهاد في سبيل الله لفتح غاليا وما وراءها حتى يعم الإسلام العالم كله، فكان لكلامه تأثير عظيم في المسلمين العرب وغيرهم، فتقاطروا من إفريقية ومصر والشام والحجاز واليمن، وفيهم العرب والبربر والمولدون من المصريين والسوريين على اختلاف القبائل والشعوب، وتكاتفوا وقاموا للجهاد في سبيل الدين إجابة لدعوة عبد الرحمن، وقد وثقوا به لما اشتهر به من الحزم وكرم الأخلاق والعدالة وصدق الإسلام، وتألفوا حوله فرقاً بحسب قبائلهم وأجناسهم، متسابقين إلى طاعته بوصفه أميرهم الأكبر.

ـ ٢ ـ

فتح بوردو

كانت فرنسا في ذلك الحين تسمى بلاد الغال أو «غاليا». وكان ظل الدولة الرومانية قد تقلص عنها، وتولت حكمها أسرة من قبائل الجرمان يسميها المؤرخون «ميروفنجيان» أول ملوكها «كلوفس» الذي بدأ حكمه سنة ٤٨١ م. ثم تتابع الحكام من أولاده إلى أوائل القرن الثامن فضعف أمرهم، وانقسمت مملكتهم، وأفضى النفوذ إلى رجال دولتهم شأن الدول في أدوار انحطاطها.

وكان وزير الملك في ذلك الحين رجلاً اسمه "شارل" من قبيلة الافرنج وكانت غاليا مقسمة إلى مقاطعات يسمون الجنوبية منها "سبتمانيا" وقصبتها نربونة، وكانت قد دخلت في حوزة المسلمين. ويليها من الشمال "اكيتانيا" وقصبتها طولوز، وهي مقاطعة كبيرة حاكمها أمير إفرنجي اسمه "أودو" يحدها من الشمال نهر اللوار ومن الشرق نهر الرون ومن الجنوب جبال البيرينه، ومن الغرب الاوقيانوس. ويلي "أكيتانيا" من الشمال مقاطعة "نوستريا" ثم "أوستراليا" وحاكمها شارل المذكور فضلاً عن أقسام أخرى.

وكان كل «دوق» أو حاكم يسعى للاستئثار بالسلطة. وهذا ما دعا عبد الرحمن إلى اعتزام فتح بلادهم، منتهزاً فرصة اختلال أمورهم بسبب تنازعهم، فجمع رجاله وأمرهم بالمسير للجهاد وفتح بقية البلاد.

وفيما هو في الطريق علم أن أحد قواد المسلمين على الحدود الشرقية في جبال البيرينه ليس على رأيه. وكان هذا القائد من البربر واسمه «المنيذر» وقد اشتهر بشجاعته غير أنه قليل الاتحاد بالعرب يحسد امراءهم كأكثر قواد البربر، وكان قد أبرم عهداً مع «أودو» حاكم «اكيتانيا» فزوجه هذا من ابنة له جميلة اسمها «لباجة». فلما علم عبد الرحمن بتلك المعاهدة أوجس خيفة من المنيذر فبدأ بالسير إليه في إمارته فقتله واستولى على أمواله ونسائه وأمر بإرسال «لباجة» إلى الخليفة في الشام.

وعلى أثر ذلك حمل عبد الرحمن على بلاد الافرنج فاخترقها شمالاً وأخذ جنده يفتحون البلاد ويحرزون الغنائم، واستولى الرعب على الافرنج فعجزوا عن الدفاع حتى بلغ العرب مدينة بوردو الشهيرة اليوم بخمورها ففتحوها بالسيف وقبضوا على حاكمها وهم يحسبونه

«أودو» وقطعوا رأسه ليرسلوه إلى الخليفة في الشام على ما جرت به العادة في ذلك العهد.

وكانت بوردو تُعرف يومئذ باسم «بورديغاليا»، وكانت من المدن الحصينة يحيط بها سور مرتفع عليه الأبراج العالية؛ وكان الرومانيون يعدونها من أكثر مدن غاليا علماً وأدباً وفيها مسرح روماني عظيم كانوا يسمونه «امفتياتر غاليوس» وكنيسة كبرى اسمها كنيسة الصليب لا تزال آثارهما باقية إلى اليوم، فلما جاءها المسلمون خيموا في ظاهرها، ثم فتحوها عنوة وأمعنوا فيها نهباً وسلباً، حتى إذا ما فرغوا من القتال عادوا بالغنائم والأسرى والسبايا إلى ساحة كبيرة أمام المعسكر، فاختار عبد الرحمن لقسمتها أميراً من أمرائه اسمه هانىء، كان قائداً لفرقة الفرسان وهي أهم فرق الجند يومئذ عندهم، لأن مهارة العرب في الفروسية كانت مما أعانهم على الفتح ولا سيما في بلاد الافرنج.

وكان هانىء شاباً في نحو الخامسة والعشرين من عمره، اشتهر في معسكر عبد الرحمن بالبسالة والبراعة في فنون القتال والفروسية، فأحبه عبد الرحمن حباً جماً وقدمه على سائر القواد رغم صغر سنه، ورغم ما كان بين قبيلتيهما من تنافر، لأن عبد الرحمن من قبيلة بني «غافق» وهي من القبائل اليمنية، أما هانىء فكان من «قيس» إحدى قبائل الحجاز، والتنافر يومئذ بين اليمنية والقيسية على أشده، وبادله هانىء هذا الحب والإجلال.

وكانا قد تعاهدا على الاتحاد المتين في تلك الحرب حتى لا يصيبهما ما أصاب مَن حاولوا فتح أوربا قبلهما من الفشل بسبب التنافر والانقسام.

وهكذا حرص عبد الرحمن على أن يعهد إلى هانىء بعد فتح

«بوردو» قسمة الغنائم وتدبير أمر الأسرى، كدأبه معه في كل أمر يحتاج إلى الثقة والاطمئنان.

وكانوا يومئذ في أوائل خريف سنة ١١٤ هـ (٧٣٣م)، وضواحي بوردو مكسوة بالكروم وقد نضجت أعنابها، وكان هانىء قد أبلى في ذلك الفتح بلاء حسناً بهر الناس، ولم ينزل عن جواده طول ذلك اليوم وهو يطوف برجاله ويحثهم على الثبات والصبر، ولم يكن فيهم مَن لا يحبه ويُعجب ببسالته وإقدامه، وإن كان تقريب عبد الرحمن له وإيثاره إياه مع صغر سنه بعظائم الأمور مما جعل بعضهم يحسدونه.

كان هانىء طويل القامة، عريض الصدر، إذا مشى عرفه الناس لطوله وعرض كتفيه، وإذا أقبل بدت مناقبه مصورة في محياه، فقد كان على غضاضة شبابه واضح الملامح، بارز الحاجبين والوجنتين، حاد العينين، صغير الأنف والفم، بارز الذقن، خفيف العارضين، أسود الشعر، لا ينفك وجهه باسماً مع وقار، وكان يركب في ذلك اليوم جواداً أدهم لا يؤثر عليه سواه لخفة حركته، وجمال مشيته، وصبره في ساحة الوغى، ولأنه لم يركبه في قتال إلا عاد منصوراً، ولم يكن في معسكر عبد الرحمن مَن لا يعرف تعلق هانىء بأدهمه، حتى لقد اعتقد أكثرهم أنه شغل به عن ملاذ الدنيا، وذلك لانصرافه إلى العناية بأمره، وإتقان عدته وقد ألبسه لجاماً مذهّباً، وسلسلة وركابين من فضة، وعلق على جبهته لؤلؤة كبيرة عثر عليها في بعض غزواته في غاليا بعد أن صاغها على هيئة نجمة، وكان جواده هذا شديد التعلق به، فإذا سمعه يناديه، أو يستحثه في ساحة الوغى سارع إلى تلبية ندائه، أو انطلق في الميدان حتى لكأنه طائر يطير بجناحين، فإذا استوقفه وقف في الحال!

أقبل هانىء في أصيل ذلك اليوم على أدهمه كأنه جبل يسعى، وقد تعمم بعمامة حمراء، وتزمل بعباءة حمراء كذلك، وتقلد حسامه وقد نقش اسمه على نصاله، ورصع قبضته بالحجارة الكريمة، فأمر بعض رجاله أن يفرزوا الغنائم كل صنف منها على حدة، فجعلوا الأسرى في جانب، والسبايا من النساء والأطفال في جانب، والغنائم من الأسلحة والآنية والأموال والمجوهرات في جانب. ثم دعا أمراء الجند وهم جماعة كبيرة وفيهم كثير من أهل إفريقية، لأن العرب كانوا يعتمدون عليهم في حروبهم بالأندلس وفرنسا إذ كانوا أهل بطش وشدة، ولكنهم لم يكونوا مخلصين في نصرة الإسلام لما كان من امتهان العرب يومئذ لغيرهم ولو كانوا مسلمين، فكان البربر يصحبونهم في حروبهم رغبة في الغنيمة أكثر من رغبتهم في نصرة الإسلام، كما أن بعض قبائلهم كانوا يرافقون العرب في الجهاد متظاهرين بالإسلام وهم يهود أو وثنيون. وكذلك كان حال سائر فرق الجند من غير العرب إذ كان بين رجال هذه الحملة بعض الأسرى والعبيد الذين اشتراهم العرب وربوهم في حجر الإسلام، وهم في الأصل من الصقالبة (السلاف) أو من الافرنج أو الروم أو غيرهم.

فلما اجتمع القواد بين يدي هانىء أمر بالغنائم من الآنية والأموال فجيء بها، ثم أمر بالخمس - وهو حق بيت المال - ففرز جانباً، ووزع ما بقي على الأمراء على أساس تعداد رجالهم. وكان إذا رأى اختلافاً بينهم في شأن قسمة صنف ما، بذل من سهمه وأسهم رجاله في سبيل التوفيق بين المختلفين.

لما فرغوا من قسمة الغنائم تحولوا إلى الأسرى وكانوا عديدين، وقد شد بعضهم إلى بعض بالحبال أو السلاسل، وجيء بهم حتى

أوقفوا بين يدي هانىء، فالتفت إلى القواد وقال لهم: «إن هؤلاء الأسرى من جملة الغنائم ولكن اقتسامهم متعذر فاعرضوهم للبيع، أين التجار؟» ولم يتم كلامه حتى جاء جماعة من يهود القيروان وقرطبة وغيرهما من مدن الإسلام ـ وكانوا قد صحبوا الحملة للتكسب من أمثال هذه التجارة ـ فلما حضروا تقدم واحد منهم على رأسه عمامة سوداء واسعة، ولحيته مسترسلة على صدره، وأنفه أعقف كبير، وعليه قباء واسع، ووراءه أحمال من الدراهم والدنانير، فقال له هانىء: «بكَم تشتري هؤلاء الأسرى يا هارون؟».

قال: «بما يأمر به مولاي».

فقال: «لولا عزمنا على مواصلة القتال لما بعناهم بل كنا نستخدمهم أو نأخذ الفداء من أهلهم، إذ ربما كان بينهم من أولاد الأغنياء مَن يفتديه أهله بالأموال الطائلة، ولكننا على أهبة المسير للحرب ولا وقت لدينا، فاشتر». وكان هانىء يتكلم ببساطة وأنفة، أما هارون فأصر على الاحتيال للحصول على الصفقة بأبخس ثمن، فقال: «صدق مولاي ولكن ابتياع مثل هذا العدد الكبير يكلفنا مشاق كثيرة في سبيل نقلهم إلى إسبانيا أو إفريقية أو الشام حيث يباعون، وهذا عدا ما يحتاج إليه حفظهم ونقلهم من النفقات».

فملّ هانىء من المساومة وهو يود الفراغ من هذه الصفقة لأمر يهمه في الصفقة التالية صفقة السبايا، فقال: «اشتر الأسير بدينار، على أن تبقي لنا أسلابهم عدا ما يكسو عوراتهم».

فضحك هارون وأخذ يمشط لحيته ثم يقبضها ويرسلها على صدره، ويتظاهر بأنه استكثر الثمن وقال: "ألا يكفي أن أدفع ثمن هؤلاء وهم مئات فتطالبني بأسلابهم وما عليهم منها إلا الثياب؟».

فقال هانىء: «قد بعناك فادفع المال إلى هذا الكاتب وهو يحصي

العدد ويقبض الثمن». قال ذلك وأشار إلى كاتبه ثم ساق جواده إلى جانب آخر من الساحة حيث كانت السبايا وفيهم النساء والأطفال، فتبعه هارون وهو يقول: «لا تبع السبايا لسواي». فاعترضه تاجر آخر شهد صفقة الأسرى وصاح فيه قائلاً: «قد اشتريت الأسرى وحدك فدع السبايا لنا». فأجابه هارون جواباً جافياً، وانتصر له بعض زملائه، كما انتصر آخرون لمنافسه، وعلت الضوضاء فصاح فيهم هانىء قائلاً: «لا تغضبوا.. إننا نقسم الصفقة بينكم على السواء».

فلما وصلوا إلى موقف السبايا ساق هانىء جواده إلى آخر موقفهم، وكانوا قد صفوهم صفوفاً نساء وأطفالاً، فمر بهم الهوينا وهو يتفرس في الوجوه، والنساء يتضرعن إليه بالإيماء والبكاء لأنهن لا يعرفن العربية وهو لا يلتفت إلى أحد، حتى وصل إلى آخر الصف حيث عثر على ضالته وهي فتاة لم يرَ الراءون أجمل منها وبجانبها أمها في نحو الأربعين من عمرها، تبدو عليهما الهيبة والجلال، لأنهما برغم عويل سائر النساء والأطفال كانتا هادئتين لا تبديان حراكاً، وليس في ملامحهما ما يدل على الخوف أو الاضطراب. وكانت المرأة بيضاء اللون، شقراء الشعر، زرقاء العينين، وقد جمعت شعرها وضمته إلى أعلى رأسها تحت خمار أسود، واكتست رداء أسود يجللها كلها حتى ليحسبها الناظر إليها من سكان الأديار. وكانت جالسة على حجر وقد أطرقت كأنها تفكر في أمر ذي بال، وفي يدها حافظة من جلد تحرص عليها حرصاً شديداً.

أما الفتاة فكانت طويلة القامة في رشاقة واعتدال، وقد وقفت بجانبها وعليها لباس أسود مثل لباسها وأسندت يدها إلى كتف المرأة وهي مكشوفة الذراعين حتى المرفقين، فبدا جمال تكوينها، كما بدت الغضاضة في محياها، وأن الناظر إليها يحسبها في الخامسة والعشرين،

مع أنها دون العشرين، سمراء اللون، سوداء العينين، كحلاء الجفون حادة البصر مع وداعة ورقّة، تدل وقفتها على الصحة والقوة معاً، يزين ذلك كله لطف نسائي يسحر الألباب. وكان ثوبها الأسود بسيطاً وقد انحسر من أعلى الصدر عن عنق ممتلىء مستدير، وقد ضفرت شعرها الكستنائي الجميل ضفيرتين مستطيلتين، أرسلتهما على صدرها من جانبي العنق فبلغتا إلى ما تحت الخصر فوق منطقة من الجلد، وغطت رأسها بنقاب أسود يكسو شعرها ويسترسل على كتفيها وظهرها.

أقبل هانىء إليهما والفتاة تنظر إلى أمها وتكلمها همساً. فلما وصل إليها رفعت نظرها إليه وتفرست في وجهه، وتفرس هو فيها هنيهة. ثم أمر بعض غلمانه أن ينقلهما إلى مكان منفرد ريثما يفرغ من مهمته، فلم يستغرب أحد ذلك إذ اعتاد الفاتحون أن يختاروا لأنفسهم من غنائمهم ما يشاءون.

ثم عاد هانىء إلى أواسط الصف ونادى التجار وقال: «كيف تقتسمون هذه السبايا؟».

فتقدم هارون وقال: «إن ثمن الفتاة أو المرأة يختلف باختلاف درجة جمالها وعقلها وصحتها، وما تستطيعه من الصنائع كالغناء أو الرقص أو الخياطة أو الطباخة، وغير ذلك. فإذا شاء مولاي فليأمر بأن ينتقي كل منا مَن شاء من هؤلاء على شرط أن من يختار أولاً يدفع ثمناً أغلى، ثم يقل الثمن في الاختيار الثاني، فالثالث».

فاستحسن هانىء هذه الطريقة فقال: «إن الذي يتقدم أولاً للاختيار تحسب عليه المرأة بخمسة دنانير، والغلام بدينار، والذي يتقدم ثانية يدفع نصف هذه القيمة». قال ذلك والتفت إلى الكاتب وأمره أن يتم البيع ويستولي على الثمن ويقسمه بين الجند بنسبة العدد،

ثم ساق جواده إلى السبيتين.

وكانت الشمس قد آذنت بالمغيب، فرجع المسلمون إلى مضاربهم تاركين قسمة الغنائم لأمرائهم الذين كانوا في انتظار الفراغ من بيع الأسرى والسبايا ليقتسموا ما يجتمع من أثمانها، فجلسوا في خيمة بجانب فسطاط الأمير عبد الرحمن وبينهم أمير من البرابرة يقال له بسطام لم يدخل هو وقبيلته في الإسلام إلا طمعاً في الكسب والنهب من الغنائم ونحوها، وكان قوي البدن فظ الخلق يكاد الناظر إليه يرتعد من منظره لضخامة هامته وسعة وجهه، مع عظم أنفه وانتفاخ منخريه. وكان في عينيه احمرار وحدّة خارقة حتى لتكاد نظراته تخترق ما تقع عليه من المرئيات.

وقد زاد في فظاعة منظره كثافة حاجبيه وبروزهما بروز الطنف، واقترانهما كأنهما خط واحد غليظ، فضلاً عن لونه الزيتوني وعما يتجلى في هيئته من القسوة والخشونة، وما يدل عليه غلظ شفتيه من الميل الشديد إلى الملذات الشهوانية، وكان رئيس قبيلة كبيرة من قبائل البربر فلما سمع بحملة عبد الرحمن إلى بلاد الافرنج تظاهر بالإسلام وادعى أنه يريد الجهاد في سبيل الدين. وهو لا يريد إلا الغنائم، وما كان أمره وأمر أمثاله ليخفى على عبد الرحمن، ولكنه كثيراً ما كان يغضي عنهم رغبة في اكتساب عونهم، ولا سيما أن هؤلاء البرابرة أبلوا في تلك الحروب بلاء حسناً، وكان بسطام هذا يهاجم الأسوار ويتلقى السهام ويستقبل الفرسان بقلب لا يعرف الخوف، فإذا انتهت المعركة وحان اقتسام غنائمها اختار لنفسه ما طاب له من السبايا فيتساهل عبد الرحمن في معاملته حذراً من غضبه لئلا تسوقه الحدة والخشونة إلى الانقلاب على المسلمين فتنقلب معه قبيلته، وقد يقتدي بها غيرها من قبائل البربر أو غيرهم من (الموالي) ممن انتظموا في تلك

الحملة وفي نفوسهم حسد لما يميز به العرب أنفسهم من سائر المسلمين، كالاستئثار بالسلطة وإحراز الأموال، فضلاً عن أن التحاسد سائد أيضاً بين العرب أنفسهم: اليمنية في جانب، والحجازية في جانب آخر. ناهيك بما كان بين الأمويين والهاشميين من التنازع على الخلافة. على أن المسلمين غير العرب كثيراً ما كانوا يغضون عن التحاسد وبخاصة في أثناء الجهاد إذا كانوا حسني الإسلام، أما الذين كانوا يظهرون الإسلام رغبة في الغنائم فسرعان ما يقلبون ظهر المجن إذا ما فاتهم المقصود من انضمامهم إلى صفوف المسلمين.

واتفق في وقعة بوردو أن بسطاماً جاهد جهاد الأبطال وكان هو الذي هجم بنفسه على المنزل الذي كانت فيه هاتان المرأتان وقبض عليهما وأرسلهما مع بعض رجاله إلى المعسكر في جملة الغنائم، على أمل أن يطلب الفتاة لنفسه إذا ما عرضت السبايا للبيع، وهو لا يتوقع أن يكون له مزاحم أو معارض!

وكان بسطام قد أوصى أحد رجاله أن يراقب تلك الفتاة لئلا تخرج من يده. فلما رأى الرجل هانئاً قد أفردها مع رفيقتها لم يجرؤ على منعه أو معارضته، ولكنه أسرع إلى بسطام فأخبره، فغضب وصاح فيه قائلاً: «اذهب وقل لذلك القيسي أن الفتاة للأمير بسطام، فهي سبيتي وقد نلتها بحد سيفي!».

فظل الرسول واقفاً ولم يبد جواباً، فأدرك بسطام أنه لا يجسر على مخاطبة هانىء بمثل ذلك فقال له: «ما بالك لا تمشي؟».

فتحول الرسول عن الخيمة ومشى الهوينا وهو يغرس أنامله في شعر رأسه المتلبد المتكاثف كالعمامة السوداء ويحكه، وقد تأبط جراباً من جلد حرص عليه كل الحرص لما حواه من الأشياء الثمينة التي

نهبها في أثناء الوقعة، أو التقطها وهم يجمعون الغنائم، ولم يجد سبيلاً لحفظها إلا أن يحملها معه رغم ثقلها كما كان يفعل أكثر الساعين في الجهاد رغبة في الغنائم. مشى ذلك البربري وهو يتباطأ في مشيته ويهم بأن يلتفت إلى الوراء كأنه يتوقع مَن يسترجعه، وبسطام ينظر إليه ويراقب مشيته بعينيه الحمراوين وقد حمي غضبه لما في ذلك التردد من الاستخفاف به، فصاح فيه فوقف وتراجع فقال له:

«يظهر أنك خائف منه.. لا تكلمه، بل اذهب أنت ومَن شئت من رجالي وأتوني بالفتاة».

فمشى الرجل مثل مشيته الأولى فازداد غضب بسطام ووثب وفي يده خنجر روماني كان قد قتل صاحبه طمعاً فيه لإتقان صنعه، وطعن به ظهر الرسول طعنة أردته قتيلاً! وكان بالقرب من الخيمة جماعة من رجال قبيلته فصاح بسطام فيهم: «هلموا إلى غنيمة هذا الجبان فهي وكل ما في خيمته ملك حلال لكم!». فأسرعوا إلى جثته وهموا باقتسام ما في جرابه حتى كادوا يختصمون ويتضاربون بينما رد بسطام الخنجر إلى مكانه ووثب إلى جواده فركبه وسار نحو الساحة، وكان قد علم بمكان الفتاة ورفيقتها فسار تواً إليه، دون أن يمر بهانىء أو يخاطبه في هذا الشأن.

وكان هانىء حتى تلك الساعة مشغولاً ببيع السبايا، فلما فرغ من مساومة اليهود همز جواده نحو الفتاة، وهي على مسافة ميل وبعض الميل منه، والشمس قد توارت وراء أبنية بوردو واختلطت بأطلال تلك القصور حتى صارت ظلاماً خيّم على الغالب والمغلوب، والقاتل والمقتول! خيم على المسلمين وقد اشتدت عزائمهم بما أوتوه من النصر فاشتغلوا باقتسام غنائمهم، وعلى المغلوبين من أهل بوردو وقد غلبوا على أمرهم فقتل رجالهم وسبيت نساؤهم، ونهبت بيوتهم

ومعابدهم. ولولا اشتغال هانىء بما جاش في فؤاده من عوامل الغرام، والهيام، وما غشي بصيرته من عواطف الشبيبة لاعتبر بما كسا أفق بوردو من الشفق وقد اشتد احمراره حتى ليحسبه الناظر إليه رمزاً للدماء التي سفكت في ذلك اليوم هناك. ولكنه كان مشغول الخاطر بشيء لا يعرفه غير الذي يعانيه، وهو الحب.. الحب الذي يقع على الناس وقوع السبات من حيث لا يعلمون، وربما كان الباعث على وقوعه نظرة واحدة فلا تكاد العيون تلتقي حتى تجيش العواطف وتتجاذب القلوب تجاذباً لا سبيل إلى دفعه، على أن هذا لا يحدث لكل إنسان، إنما هو تأثير بعض العيون في بعض القلوب، فإذا تفاهمت العينان، استيقظ القلبان، وتجاذبا كأنهما كانا على موعد وقد تاها وكل منهما يبحث عن رفيقه ثم التقيا بغتة وتعارفا عن طريق النظرات، كما حدث لهانىء ذلك اليوم، فإنه لم يكن يعرف الفتاة من قبل، وإنما وقع نظره عليها للمرة الأولى وهو واقف بباب المدينة يراقب إخراج الغنائم والسبايا ويحصيها، وكانت هي في جملة الخارجين وقد ساقها بعض البرابرة من رجال بسطام بإشارة منه، فرآها تمشي بثوبها ونقابها الأسودين وقد أطرقت لا تلتفت يميناً ولا شمالاً ورفيقتها بجانبها، فلما بلغت عتبة الباب سمعته ينادي كاتبه ويسأله عن عدد الذين خرجوا حتى ذلك الحين ثم يقول له: «لا تحصي هذه معهم». فوقع صوته في أذنها وقوع السهم في قلبها. فلم تتمالك أن رفعت بصرها إليه فقرأ في تلك النظرة ما يعجز الخطيب عن أدائه في خطاب ولا يستطيع الكاتب التعبير عنه في كتاب!.. قرأ فيها الاستعطاف والاستنصار، والحب، والاستسلام مع الأنفة وعزة النفس، فأجابها بنظرة قرأت فيها جواباً صريحاً اطمأن به قلبها. وحدث ذلك كله في لحظة، والناس حولهما في غفلة، بين باكٍ ونادب، وراج وخائف، أما هانىء فحالما وقع نظره عليها صمم أن

يستأثر بها لنفسه، ثم أكبر أن يتخذها سبية لما آنس من هيبتها وجمالها فعزم على أن يقترن بها، ولم يكن قد تزوج بعد ولا حدثته نفسه بالزواج حتى ذلك الحين لاشتغاله بالجهاد في بلاد الافرنج منذ نعومة أظفاره التماساً لفتح أوربا، ولذلك لبى سريعاً دعوة عبد الرحمن إلى القتال، فلما تحرك قلبه لم يتمالك عن التفكير في الزواج. والغالب في طالبي الزواج أن يلتمسوه على هذه الصورة، فربما قضى أحدهم الأعوام الطوال يفكر فيه ولا يسعى إليه فإذا تحرك قلبه بنظرة أو كلمة بذل جهده في سبيله.

فلما فرغ هانىء من أمر البيع، سار بنفسه لتسلم الفتاة، ولم يعهد في ذلك إلى أحد من رجاله مبالغة في الحرص عليها. فلما ثنى عنان جواده قاصداً إليها رأى بالقرب منها فارساً عرف على ضوء الشفق، ومن هيئة فرسه وعدته أنه بربري، فاستحث جواده مطمئن البال على حبيبته لعلمه أنه ليس في جند المسلمين مَن يجرؤ على مخاطبتها بعد أن أمر هو بإفرادها. ولكن الغيرة من أقوى ظواهر الحب ومن أكبر الأدلة عليه، وهي عمياء صماء لا تذعن للعقل ولا تصغي لنصحه. ولذا ركض هانىء فرسه وقلبه يخفق عندما رأى الفارس واقفاً بجانب الفتاة وسمعه يهدد ويتوعد، ثم ما لبث أن عرفه، فناداه: «بسطام!». فالتفت بسطام وعيناه تقدحان شرراً وهو يقول: «ماذا تريد أيها الأمير؟».

قال: «تنح عن هاتين فقد اخترتهما لنفسي!».

قال: «وكيف تفعل ذلك وهما غنيمتي؟!».

وكان هانىء يعتزم أن يقنع بسطام بترك الفتاة بالتي هي أحسن، وأن يعوضه عنها بما يشاء من المال والغنائم، فابتسم وقال: «هب أنهما غنيمتك وقد رأيتني أفردتهما لنفسي أفلا تتجاوز عنهما

لي، ولك ما تطلبه من سهمي في الغنائم؟». قال ذلك وهو يتشاغل بتسوية عرف أدهمه، إظهاراً للاستخفاف بالمسألة، وإخفاء لما ثار في قلبه من عوامل الغيرة. فأجابه بسطام وهو لا يقوى على كظم ما في نفسه: «هذا لا يكون، وإذا أردت مقاسمتي هذه الغنيمة فخذ هذه - وأشار إلى الكبيرة - وأنا آخذ هذه!».

فأجابه هانيء بصوت هادىء ولكن ملؤه التهديد، وقال: «لست أحب القسمة، وهذه الفتاة لي فارجع إلى معسكرك وخذ سهمك مما بعناه من الغنائم والأسرى والسبايا».

فازداد بسطام هياجاً ووقف في ركابه بغتة وصاحَ قائلاً: «لا يقدر أحد أن يأخذ غنيمتي مني، ولو كان الأمير عبد الرحمن نفسه.. أما كفاكم معاشر العرب ما تسومونا من الخسف فتستأثرون بكل شيء دوننا، كأننا لسنا مسلمين؟ وأنتم تعلمون أني قادر على أن أعرقل مسعاكم وأرجعكم على أعقابكم، فلا تفتحون بلداً».

فكبر على هانيء هذا التهديد، ولكنه تصور ما يترتب على إغضاب بسطام من الضرر، ولا سيما أن هذا لا يهمه الإسلام ولا المسلمون، وفي غضبه وغضب قبيلته تضعضع لا يرضاه عبد الرحمن ولا يرضاه هو، على أن حدة الشباب غلبت عليه وهو بين يدي حبيبته، فلم يتمالك أن هَمّ بسيفه فاستله وهجم على بسطام لا يبالي أي عضو يصيب منه، فإذا بالمرأة قد تقدمت وأمسكت بعنان فرسه وخاطبته بالعربية قائلة: «لا تقتتلا فما نحن غنيمة أحد وكفى خصاماً». قالت ذلك بلسان أهل اليمن مع شيء من العجمة، فبغت الأميران وتعجبا لما سمعاها تتكلم العربية!

وبقي بسطام مع ذلك مصرّاً على طلبه، ولا سيما بعد أن سمع تهديد هانيء له بين يديهما وهما تفهمان العربية فقال لكبراهما: «بل

أنتما غنيمتي. وإذا شئت الانحياز إلى هذا الأمير فلا بأس، وأما هذه فإنها لي».

قال ذلك وانحنى عن سرجه، وتطاول ومدّ يده إلى الفتاة وهَمّ بأن يمسكها فتباعدت عنه وهي تنظر إليه شزراً دون أن تضطرب، فتبعها بفرسه، فلما رأى هانىء تلك الجرأة منه لم يعد يملك نفسه، وقد سره نفور الفتاة من بسطام، ورأى أن تعقله وكظمه لا يجديان مع هذا البربري شيئاً، فهمز جواده والسيف لا يزال مسلولاً في يده، فوثب الجواد وصهل كأنه يشارك فارسه بعواطفه، وتباعدت المرأة وقلبها يختلج، وما كادت تفعل حتى سمعوا وقع حوافر جواد يعدو نحوهم من جهة المعسكر وصوتاً ينادي: «هانىء، هانىء، إغمد سيفك!». فالتفتوا فإذا بالفارس قد أقبل حتى دنا منهم، وقبل أن يروا وجهه عرفوا من فرسه ولباسه أنه الأمير عبد الرحمن».

— ٣ —

مريم وهانىء

كان عبد الرحمن ربع القامة، جليل الطلعة، صبوح الوجه، عريض اللحية والجبهة، قد خالط شعره بياض. وكان كبير العينين بغير جحوظ، أقنى الأنف، مع حدة وذكاء، قد تزمل بعباءة سوداء وعلى رأسه عمامة بيضاء كبيرة. فلما وصل خيّم السكون على الجميع، فالتفت إلى هانىء وقال: «أراكم تختصمون وتفترقون، وكنت قد توقعت ذلك منذ سمعت بسطاماً يخاطب رسوله في خيمتي، فخفت النزاع بين أمراء الجند ونحن في أشد الحاجة إلى اجتماع الكلمة، فانتظرت رجوع بسطام فلما أبطأ أسرعت إليكم، فأحمد الله على أن وصلت في الوقت المناسب». فأعجب الجميع لسهر هذا الأمير على جنده، وسعيه في جمع كلمته، وأحسّ هانىء بتوبيخ

ضميره لأنه عاهد عبد الرحمن على الاتحاد فقال: «لم أكن لأخاصم مسلماً على شيء وإن عز، ولكن بسطاماً ينازعني سبية اخترتها من بين مئات بعناهن الآن بيع السلع، فلو أننا بعناها لبعض تجار اليهود فما الذي كان يفعله؟».

فاعترضه بسطام قائلاً: «كنت افتديها من شاريها بالذي يرضيه».

فتقدمت المرأة نحو عبد الرحمن بقدم ثابتة وجأش رابط وقالت: «أظنني بين يدي عبد الرحمن الغافقي أمير هذا الجند».

فاستغرب عبد الرحمن عربيتها وقال: «نعم أنا هو، وكيف عرفت ذلك؟».

قالت: «عرفتك من سهرك على جندك وقد كنت أسمع ذلك عنك، إن أميرين يختصمان علينا وما نحن لهذا ولا لذاك، فإن لنا لأمراً آخر سنعرضه على الأمير».

وكانت تخاطبه بجرأة لا تكون في الأسرى أو السبايا فهابها، وزاده تهيباً ما آنسه من رزانتها وبساطة لباسها وسواده، ووقعت عينه في أثناء ذلك على الفتاة فأعجبه جمالها، ومالَ إلى استطلاع حقيقة أمرها فقال للمرأة: «قولي ما بدا لك».

قالت: «لا أقول شيئاً الآن، وإنما أقصّ حديثي على الأمير في خلوة».

وكان في ركاب عبد الرحمن رجلان من خاصته، فأمرهما أن يأتيا بفرسين تحملان المرأة ورفيقتها إلى فسطاطه. على أنه سأل المرأة عن رفيقتها مَن تكون فقالت: «هي ابنتي».

كان هانىء واقفاً صامتاً، وقد وقع في حيرة من أمر الفتاة

وأمها وخاف أن يكون في حديث الوالدة ما يحول بينه وبين ابنتها التي ازداد تعلقه بها بعد ما رأى من ميلها إليه وأحس أنها تحبه، فاغتنم فرصة اشتغال الأمير بالكلام مع أمها ودنا من الفتاة فقال وصوته يدل على هيامه: «ما اسمك يا فتية؟».

فأجابته بلسان عربي فصيح: «إسمي مريم». فأعجبته غنه صوتها، وزاد افتتانه بها للثغة في لسانها تنطق بها الراء غينا فكأنه سمعها تقول: «اسمي مغيم». فقال: «وأنا إسمي هانىء هل حفظته كما حفظت اسمك؟».

فأدركت مغزى سؤاله وقالت: «لقد حفظته قبل أن أعرفه، فكيف بعد أن عرفته ورأيت من صاحبه ما رأيت؟». فسرّ لذكائها وسرعة خاطرها، واطمأن إليها فأجابها وهو يقلد لثغتها تحبباً: «أرجو أن تكون معرفة مباركة!».

فابتسمت مريم ابتسامة أخذت بمجامع قلبه، وتوردت وجنتاها خجلاً وأطرقت إطراق الحياء. أما بسطام فكان يراهما يتكلمان والحنق يكاد يخنقه لأنه لا يجرؤ على الكلام في حضرة الأمير، فأضمر الشر. وبعد هنيهة جاء الجوادان فركبت مريم وأمها وساقوا الخيول إلى المعسكر، وكان هانىء لا يرفع نظره عن مريم فرآها قد امتطت الفرس بأسرع من لمح البصر كأنها وُلدت على ظهور الخيل، فازداد هياماً بها ولكنه ما زال موجساً خوفاً من تلك الخلوة، حتى إذا اقتربوا من فسطاط عبد الرحمن وهو أكبر الخيام وعلى بابه الاعلام، التفت عبد الرحمن إلى هانىء وقال: «عد إلى تدبير أمر الجند، وكن كعهدي بك فإننا في بلاد العدو». والتفت إلى بسطام وقال: «وأنت يا بسطام أمير ذو بطش، فامض في شأنك وانس ما دار بينك وبين هانىء. إننا مقبلون على فتوحات كثيرة، وستصيب من

الغنائم والسبايا ما يعوّض عليك أضعاف هذه الخسارة».

فسار الأميران، وتحول عبد الرحمن ودعا مريم وأمها إلى الدخول فدخلتا في أثره، وفي يد الوالدة تلك المحفظة وقد شدتها إلى زندها ، وقبضت عليها بكفها كأنها تخاف أن يختطفها أحد من يدها، ثم أشار عبد الرحمن إلى من كان في الخيمة من الأمراء والحاشية فخرجوا جميعاً، وبقي هو والمرأة وابنتها، وقد تشوّق لاستماع ذلك الحديث فجلس في صدر الخيمة على بساط ثمين كانوا قد خصوه به من غنائم ذلك اليوم وأجلسهما بين يديه، فالتفت كلّ منهما بردائها الأسود والنقاب الأسود على رأسيهما. ونظر عبد الرحمن إلى وجه المرأة على نور المصباح فرأى الجمال لا يزال بادياً في وجهها مع تجاوزها سن الشباب. ونظر إلى مريم فلفته ما في عينيها الجذابتين من السِحر، وما امتازت به من المهابة فسبَّح الخالق على ذلك الصنع العجيب. ثم غلب شوقه إلى استماع قصتهما فحوَّل نظره إلى المرأة وقال لها: «ممن أنت يا أخية؟ وما خبرك؟».

قالت: «أما خبري فسأطلعك عليه في فرصة أخرى، وأما غرضي فهو نصرة هذا الجند حتى تتحقق أمانيه».

فاستغرب عبد الرحمن كلامها، ولاحظ فيه وإن كان عربياً، شيئاً من العجمة، فأراد أن يستطلع حقيقة أمرها وسألها: «ما الذي حملك على هذا وكلامك يدل على أنك غير عربية. كما إن قيافتك ولباسك يدلان على أنك غير مسلمة، فلا يعقل أن يكون هذا هو غرضك فأصدقيني الخبر».

فنظرت إليه في دهشة وقالت: «لم أمثل بين يدي الأمير عبد الرحمن الغافقي لألفق له حديثاً مكذوباً، ولا أرى فراسته فيَّ صحيحة. لأني وإن كنت غير عربية ولا مسلمة فليس ثمة ما يمنع

غيرتي على نصرة العرب أو المسلمين، وفي هذه المدينة وغيرها من مدن النصارى والافرنج مَن يؤثر انتصار المسلمين العرب على الافرنج لأسباب لم أكن أظنها تخفى على مولاي الأمير».

فأطرق عبد الرحمن وقد تضاعفت دهشته، ولكنه صبر إلى النهاية لعله يستنشق شيئاً في عرض الحديث يكشف له الحقيقة فقال: «لم أفهم مرادك. هل يتمنى أهل هذه البلاد انتصار المسلمين على ملوكهم؟».

قالت: «كانوا يتمنون ذلك عندما سمعوا بحال الاسبانيين بعد دخولهم في حوزة العرب، لأنهم رأوهم انتقلوا تحت ظل الإسلام من الرق إلى الحرية، ومن الظلم إلى العدالة».

قال: «وهل عدلوا اليوم عن ذلك الرأي؟».

قالت: «نعم!».

قال: «ولماذا؟.. أرجو الإفصاح».

قالت: «لا يُخفى على مولاي أن المسلمين لما فتحوا إسبانيا منذ اثنين وعشرين عاماً عاملوا أهلها بالرفق والعدل، فلم ينهبوا بعد ولا سفكوا دماً بريئاً، ومَن اختار البقاء على دينه حافظوا على عهده، ومَن اعتنق الإسلام وكان عبداً صار حراً، له ما للمسلمين وعليه ما عليهم. وكان حكام القوط يعدون رعاياهم ملكاً لهم، يستخدمونهم في منازلهم وحقولهم استخدام الأرقاء، فلما جاء المسلمون وفتحوا بلادهم خيروهم بين الإسلام والجزية، وأفهموهم أن مَن كان عبد وأسلم صار حراً، فتهافت جانب عظيم من أولئك الأرقاء على الإسلام طلباً للحرية لأنها كانت عزيزة عندهم لا ينالها إلا الأقلون مكافأة على شجاعة عظيمة أو خدمة ذات بال، بل إن المعتقين في أيام القوط والرومان لم يكونوا يتمتعون بكل حقوق الأحرار، وإنما كانوا

وسطاً بين هؤلاء وبين الأرقاء. أما المسلمون فمن أسلم من رعاياهم عاملوه معاملة الأحرار تماماً ومَن ظل على النصرانية تركوا له الحرية في ممارسة طقوس دينه وعاداته وآدابه وسائر معاملاته، حتى الحكومة والقضاء. فأحس الاسبانيون أنهم انتقلوا بالفتح الاسلامي من الضيق إلى الفرج، ومن الرق إلى الحرية، وشاع ذلك في سائر أنحاء هذه البلاد، فرأى موسى بن نصير سهولة الفتح عليه لهذا السبب، فعزم على إتمامه حتى يعود إلى دمشق من طريق القسطنطينية بعد أن يفتح كل أوربا. ولكن المسلمين فتكوا به، كما قتلوا ابنه عبد العزيز من بعده. ولولا ذلك لتم الفتح للمسلمين من ذلك الحين، ولكانت هذه البلاد التي جئتم لفتحها الآن ملكاً لكم منذ نيف وعشرين سنة، فإن الذين خلفوهم على إمارة الأندلس كان أكثرهم من أهل المطامع، فأساءوا إلى النصارى وإلى المسلمين من غير العرب، ففسدت النيات وشاع خبر ذلك في هذه البلاد فأصبح فتحها صعباً، لأن أهلها لا يرون خيراً في الانتقال إلى دولة غير دولتهم، دينها غير دينهم».

وأمسكت المرأة عن الحديث متشاغلة بمسح فمها، وعبد الرحمن ينظر إليها مستغرباً حديثها لما فيه من الحكمة وسعة الاطلاع، وجعل يتأمل ملامحها ويفكر فيمن عسى أن تكون، وصبر لعل في خاتمة حديثها ما يكشف له القناع عن حقيقتها، ولكنه أراد أن يستدرجها فاغتنم سكوتها وقال لها: «يلوح لي أنك أكثر اطلاعاً على حقيقة الأحوال من أكثر رجالنا، وأشد منهم غيرة على مصلحة المسلمين!». ثم تنهد وقال: «إن الأمر الذي ذكرته يا أخية هو الواقع بعينه، وأظنك سمعت أني استدركته قبل إقدامي على هذه الحرب، فلم أخرج إليها إلا بعد أن طفت مدن الأندلس وغيرها مما فتحه

المسلمون من بلاد الافرنج وتفقدت حكامها، فعزلت الضعفاء وأهل المطامع من أمرائها واستبدلت بهم رجالاً من أهل الدراية والحكمة يحسنون سياسة الناس على اختلاف نحلهم، ورددت على النصارى ما كان بعض الأمراء المسلمين قد اغتصبوه من كنائسهم، وأعدت ما كان لهم من العهود في زمن موسى بن نصير وابنه عبد العزيز، وإنما بذلت الجهد في هذا السبيل لعلمي أن الإسلام يأمرنا بذلك، وإن الصحابة الأولين لم يستطيعوا ما استطاعوه من الفتح إلا بما كانوا يتوخونه من الرفق ومعاملة أهل الذمة بالحسنى والعدالة».

فقالت وهي تصلح نقابها ودلائل التفكير ظاهرة في عينيها: «قد علمت بكل ما فعلته وما تفعله، وكل ما نويته وما تنويه، ولذلك كنت أتوقع ذلك الظفر، ولكني رأيت خلاف ما سمعته فصرت أخشى العاقبة».

فقال وهو يستغرب جرأتها وتعقلها: «وكيف ذلك؟».

قالت: «أظنك تعلم ما أعلمه من هذا القبيل ويكفي ما شاهدته الآن بنفسك بين هانىء وبسطام. ألم يكد يسفك الدم بينهما من أجل هذه الفتاة؟». وأشارت إلى مريم وكانت جالسة بجانبها تسمع حديثها باهتمام وشوق، كأنها لم تكن تعرف منه شيئاً.

فلما سمع عبد الرحمن كلام المرأة تشاغل بإصلاح شاربيه، وحك عثنونه بين سبابته وإبهامه، وظهر الاهتمام في عينيه، والتفت إلى المرأة وقال: «إن ما رأيته إنما هو من قبيل المنافسة بين أميرين على سبية جميلة، وما ذلك بالأمر الغريب».

فضحكت ضحكة مفتعلة وقالت: «الأمير عبد الرحمن الغافقي لا يجهل أن سبب هذه المنافسة إنما هو فساد نيات الأمراء، لاختلاف أغراضهم في هذه الحملة، فإن أكثرهم جاءوا للنهب والسلب،

خصوصاً البرابرة ومن على شاكلتهم، وهؤلاء لا يفهمون معنى الجهاد أو الفتح، ولا يعرفون ما هو الإسلام، لأنهم إنما انتموا إليه رغبة في الغنائم، ومَن كان هذا غرضه لا يهمه رَضِيَ أهل البلاد أم غضبوا! يدلك على ذلك ما رأيته بنفسي في أثناء القتال اليوم، فإن بعض رجالكم لم يميزوا بين المنازل والكنائس ولا بين الرهبان والعامة. فقد نهبوا كنيسة بوردو وهي من أعظم كنائس الغاليين، فأصبح هؤلاء فضلاً عن نفورهم من المسلمين يعتقدون أن صاحب هذه الكنيسة سينتقم لهم منكم..!».

فقطع حديثها وقال: «كيف نهبوا الكنائس؟ لقد أوصيتهم بالمحافظة عليها، وبإكرام القسس والرهبان؟». ثم صفق وصاح: «يا غلام!». فدخل رجل من غلمانه الذين يقفون ببابه خفيف اللباس خفيف العضل، فقال له: «ادع الأمير هانئاً الآن».

فأشار الغلام إشارة الطاعة وهَمّ بالخروج، فعجلت المرأة بالكلام قبل خروجه وقالت للأمير: «فاتني أن أطلب إليك الافراج عن خادمي فإنه أخذ في جملة الأسرى رغم شيخوخته، ورغم كونه عربياً!».

فاستوقف عبد الرحمن الغلام وقاله: «قل للأمير هانىء أن في الأسرى شيخاً». ثم التفت إلى المرأة وقال: «ما اسمه؟». قالت: «اسمه حسان» فقال: «قل للأمير إن في الأسرى شيخاً عربياً اسمه حسان، فليأت به معه».

ولا تسل عن مريم عندما سمعت اسم هانىء فإنها أحست بنبضات قلبها تسرع، وكانت جالسة مطرقة فاعتدلت في مجلسها، وتوردت وجنتاها، ونَمّ بريق عينيها عما يختلج في صدرها! ولبث الثلاثة صامتين في انتظار هانىء، وقد أطرق عبد الرحمن وجعل

يلاعب لحيته ببطء كأنه يخاف أن تشوش العجلة أفكاره فتقطعها أو تعترضها. كما سكتت المرأة تهيباً لمنظره، وبعد قليل سمعوا وقع حوافر جواد ثم سمعوا صهيله، فعرف عبد الرحمن أنه صهيل الأدهم وأن هانئاً قادم. ولم تمض هنيهة حتى دخل الرسول وقال: «إن الأمير هانئاً بالباب».

قال عبد الرحمن: «فليدخل».

وقبل أن يرجع الرسول بالإذن، أقبل هانىء كأنه داخل بيته لما كان له على الأمير من دالة، وكان لا يزال بثوبه الأحمر وسيفه المرصع وبقية سلاحه. فلما رآه عبد الرحمن داخلاً بشّ له ورحب به ودعاه إلى الجلوس بجانبه، فجلس وبصره على مريم وأمها، ولكنه تشاغل بالالتفاف بعباءته وهو يصلح مجلسه. أما مريم فإنها أطرقت حياء وعيناها تسترقان النظر إلى هانىء وتراقب كل حركة من حركاته. ودخل في أثر هانىء شيخ طاعن في السن عليه لباس أهل غاليا وعلى رأسه عمامة صغيرة، وقد شابَ شعره مع كثاثة، واسترسلت لحيته كثيفة، وخفّ عضله وتغضنت جبهته، وتجعد خداه ورقبته حتى يتوهم الناظر إليه أنه في التسعين مع أنه كان إذا تكلم أو مشى أوهم ناظره لخفة حركته وشد عارضته أنه دون الستين، فدخل الخيمة وعليه قباء إلى الركبة بعضه مبطن بالجلد، وأما ساقاه فكانتا عاريتين وقد غشاهما شعر كثيف لا يظهر الجلد من تحته، وقد شدّ بقدميه نعلين من صنع بوردو. فلما رآه عبد الرحمن بباب الفسطاط أشار إليه أن يجلس فجلس متأدباً، ثم قال عبد الرحمن لهانىء: «أظنك قد تعبت اليوم؟».

فقال هانىء: «ما في الحرب تعب إذا كان خاتمتها النصر، كما كانت خاتمتها في هذه المدينة بعون الله وسيف الأمير عبد الرحمن».

قال: «لم يكن لعبد الرحمن يد في هذا النصر، وإنما تم بك وبرجالك وسائر المسلمين، على أني لم أدعك للبحث في ذلك وإنما دعوتك لأمر ذي بال فأعرني سمعك».

فأصاخ هانىء بسمعه وتطاول بعنقه وقال: «إني مصغ لما يقول الأمير».

قال: «أتعلم السبب الذي ساعد المسلمين على فتح الدنيا من أيام الصحابة إلى اليوم؟».

قال: «اعلم أن الله نصرهم بالاتحاد واجتماع الكلمة، وهذا هو ما نتوخاه في كل حركة من حركاتنا».

قال: «أنا أعلم ذلك وأعتقد أنك أكبر مساعد لي في جمع كلمة الجند الكبير المختلف المشارب والأغراض، ولو احتملت بعض المضض في هذا السبيل. ولكن هناك سبباً آخر ساعد السلف الصالحين على الفتح وأيد دولتهم. أتعلم ما هو؟».

فأطرق هانىء وأعمل فكرته، وعبد الرحمن يتفرس فيه كأنه يستعجل جوابه فقال هانىء: «الذي أعلمه أن دولة الإسلام تأيدت بالعدل والرفق».

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال: «ذلك ما عنيته. لأن العدل أساس الملك، والرفق بالرعية يدعوهم إلى الطاعة والمحبة، لا سيما أهل الذمة من النصارى واليهود، وعلى الأخص الرهبان والقسس أصحاب البيع والكنائس فقد ورد النهي عن أذاهم في كتاب الله وفي حديث رسول الله. ولذلك كان الخلفاء الراشدون إذا أنفذوا جنداً إلى حرب أوصوهم بأهل الذمة خيراً ومنعوهم من أذيتهم، وأمروهم بالكف عن الكنائس وأصحابها، ألا تعلم ذلك؟».

قال: «نعم أعلمه جيداً، ولقد طالما تحدثنا فيما فرط من بعض الخلفاء وأمراء الأندلس من هذا القبيل وتواثقنا على منعه».

قال: «فما معنى هجومكم على كنيسة بوردو اليوم ونهب آنيتها وأذية رهبانها؟».

فظهر الغضب في وجه هانىء مع الاستغراب، وأطرق لحظة ثم هزّ رأسه وهو يقول: «قبّح الله بسطاماً ما أشد طمعه وما أقل طاعته! لقد نهيته بنفسي عن هذا الأمر ونحن في أثناء المعركة بعد أن رأيت منه ومن رجاله ميلاً إلى النهب. وقد علمت بما في كنيسة بوردو من آنية الفضة والذهب، فخفت أن تسوقه المطامع أو تسوق أحداً من قبيلته إلى نهبها، فاستوقفته في وسط المعركة وقلت له: «احذر أن يتجرأ أحد من رجالك على الكنائس أو المعابد أو القسس». فأجابني بالسكوت، وقد توقعت منذ تلك الساعة أنه لا ينوي خيراً لما ركب في طبيعته من الطمع والقسوة و..».

فابتدره عبد الرحمن قائلاً: «أتظن أن تلك فعلة بسطام؟».

قال: «لا أظن أحداً سواه يجرؤ على ذلك بعد ما كان من تشديدنا في منعه. وقد رأيت مع بعض رجاله في أثناء قسمة الغنائم صلباناً من ذهب ومباخر من فضة مما لا يكون في غير الكنائس».

فصفق عبد الرحمن ونادى غلامه فدخل فقال له: «ادع الأمير بسطاماً».

وبعد خروج الغلام التفت عبد الرحمن إلى هانىء وقال: «سأخاطبه باللين لما أعلمه من فظاظته وغلظته وإلا أفسدنا الجند علينا».

فقالت المرأة: «ما كان أغناكم عن مثل هذا النصير الخطر وعن

قبيلته».

فتنهد عبد الرحمن وقال: «لو شئنا أن نطهر جندنا من أمثال هؤلاء الغلاظ لاقتضى ذلك أن نجرده من أشد رجاله وأكثرهم عدداً، لأن في جملة رايات هذا الجند قبائل من البربر وجماعات من الصقالبة والجرامقة والجراجمة والأقباط والأنباط وغيرهم، وفيهم مَن لا يزالون على اليهودية أو النصرانية أو الوثنية أو المجوسية وإنما يتظاهرون بالإسلام. والبربر من أشجع الأمم لا يهابون الموت ولا يخافون العدو، والحق يُقال أنهم هم الذين فتحوا لنا إسبانيا وسلموها إلينا، ولو أردنا الاستغناء عنهم لامتنع علينا هذا الفتح، لأن العرب لا يزالون إلى اليوم قليلي العدد بالنظر إلى مثل هذا المشروع العظيم، فاستخدام البربر في هذه الحروب يفيدنا كثيراً وإنما يطلب منا أن نحسن السياسة في معاملتهم لئلا نغضبهم، وهم إنما يرضيهم الكسب من الغنائم ونحوها، وهذا أمر ميسور لهم لأننا كثيراً ما نتنازل لهم عن الغنيمة لنطمعهم في الجهاد لمصلحة المسلمين».

فأعجبت أم مريم بدهاء عبد الرحمن وسعة صدره وقالت له: «أخلق بجند أنت قائده أن يعود ظافراً منصوراً».

فلما سمع إطنابها مال على هانىء وألقى يده على كتفه وقال: «هذا هو يدنا اليمنى لأنه قائد فرساننا». فخجل هانىء لهذا الإطراء وهَمّ بالكلام وإذا بالرسول قد دخل وهو يقول: «الأمير بسطام بالباب».

فقال عبد الرحمن: «ليدخل».

فدخل بسطام وعباءته مطلقة من الأمام وهو يجر سيفه وراءه، وعمامته مع صغرها منحرفة من جانب من رأسه إلى الأذن، وفي يده بقية عنقود من العنب كان يأكله في أثناء الطريق، فلما رأى نفسه في

حضرة الأمير تراجع ورمى تلك البقية، وعاد وفي مشيته ومجمل منظره تيه وإعجاب، ولكنه كان شديد الاحترام لعبد الرحمن، ولا سيما أن هذا لم يكن يسمعه إلا كل ما يطيب خاطره ويدعوه إلى محبته، وذلك لحسن سياسته، وعلمه بأن الرياسة إنما تتأيد بالعطف واللين، لا بالغلظة والكبرياء وشدة الوطأة، فلما دخل بسطام حيّا فبشّ له عبد الرحمن ودعاه إلى الجلوس فجلس وهو يجيل نظره في أطراف الخيمة، فلما رأى مريم وهانئاً توهم لأول وهلة أنه دُعي لأمر يتعلق بهما، ثم سمع عبد الرحمن يخاطبه قائلاً: «دعوناك يا أمير لنسألك عن أمر يهمك كما يهمنا، لأن المصلحة واحدة وهي رفع منار الإسلام».

فانشرح قلب بسطام لهذا الإطناب، لأن العرب كانوا يعاملون البربر معاملة الموالي كما تقدم، فأجاب قائلاً: «يأمر الأمير بما يشاء وله مني ما يرضيه، فإني أطوع له من بنانه».

قال: «بورك فيكَ ونفع الله المسلمين بسيفك. أما الأمر الذي استقدمناك لأجله فهو أن بعض نصارى هذه المدينة يشكون مما أصاب بيعتهم من النهب، وهم كما لا يُخفى عليك أهل كتاب قد أوصانا الله برعايتهم وبحرمة كنائسهم وبيعهم، ولا سيما أننا في حال تقضي علينا بمحاسنة أهل هذه البلاد حتى يسهل علينا الفتح ونحن سائرون إلى بلاد أمنع ورجال أشد من أهل هذا البلد، فإذا اعتقدوا فينا الرفق والعدل ساعدونا.. ولذلك كنت كثيراً ما أوصيكم على لسان أخينا هانىء باحترام أماكن العبادة، فإن كنت على بيّنة من أمر تلك البيعة ونهبها فأرجو أن تسعى في رد ما نهب من آنيتها وأدواتها».

فقال بسطام: «لا أنكر على الأمير سداد رأيه في هذا الشأن، وقد كنا إلى اليوم نراعي هذه القاعدة ونحترم الكنائس حتى رأيت في

هذا الصباح أمراً اقشعر له بدني ولم أتمالك عن الانتقام بنهب تلك الكنيسة، فقد رأيت في بعض منازل هذه المدينة رجالاً من المسلمين وغلماناً ونساء يستخدمهم أهلها استخدام العبيد الأرقاء.. ! نعم، لا أنكر حقهم في ذلك لأننا نفعل بأسراهم مثل هذا الفعل، ولكني رأيت بعض الأسرى المسلمين مقيدين بالأغلال الحديدية في أرجلهم، والأحمال الثقيلة على ظهورهم، وقد ساقوهم إلى العمل في الكروم كالدواب، فلم أتمالك عند مشاهدتي هذه القسوة من الانتقام بنهب كل ما تقع يديّ عليه ولم استثن كنيسة ولا ديراً!».

فلما بلغ بسطام إلى هذا الحديث التفت عبد الرحمن إلى المرأة كأنه يستفتيها في ذلك فقالت: «لا أنكر على مولاي أن معاملة الافرنج لأسراهم من العرب أكثر شدة من معاملة المسلمين لأسراهم من الافرنج، وإن تساوى الفريقان في اعتبار الأسرى ملكاً للغالبين يبيعونهم بيع السلع، ومتى دخل الأسير في حوزة مالكه استعمله فيما يشاء من فلاحة أو زراعة أو خدمة، ويظل هؤلاء الأسرى عبيداً هم وأولادهم إلى سلالات عديدة حتى يفتديهم أهلهم أو أصدقاؤهم بالمال أو غيره. أما المسلمون فإن رجوع الأسرى إلى الحرية أسهل مما عند الافرنج. وأما تقييدهم بالسلاسل فالغرض منه على ما أظن منعهم من الفرار، وربما حاولوه مرة ففشلوا فأثقلوهم بالأغلال ليمنعوهم من الفرار».

فقطع عبد الرحمن كلامها ووجه خطابه إلى بسطام قائلاً: «هب أنهم فعلوا ما تقول فالعبرة بالنتيجة. وإذا كنا نأتي مثل ما أتاه هؤلاء فأي فضل لنا عليهم، وبماذا نتوقع النصر في الدنيا والنعيم في الآخرة! فالذي يهمنا أن نعمل بمقتضى الكتاب والسنّة ونقتدي بالسلف الصالح. وزد على ذلك إن طمعنا في القليل من الغنائم

يؤدي إلى فشلنا ويقف في سبيل الفتح فنخسر أضعاف تلك الغنائم، فضلاً عما يلحقنا من العار!». ثم وجه خطابه إلى هانيء وقد بدا الاهتمام بين حاجبيه وقال: «لا يُخفى عليكم أننا شارعون في عمل أثمن من الذهب والفضة والآنية، وأعظم من أن يُقاس بها؟ فنحن شارعون في فتح هذا (العالم الكبير). فإذا وفّقنا في فتحه كسبنا الأموال والأرباح، ونشرنا الإسلام في قبائل من النصرانية والوثنية لا يحصيها إلا الله، فنملك المدن والرقاب، وتخفق رايتنا على رومية والقسطنطينية وغيرهما من عواصم النصرانية، ويصير صعلوكنا أميراً وفقيرنا غنياً، فتحرز يا هانيء ما شئت من الذهب والفضة والجواهر، وتملك ما تريده من الجواري والغلمان، وإذا كنت مخطئاً في قولي فنبهوني».

فأدرك هانيء أن عبد الرحمن إنما ينتظر الجواب من بسطام احتيالاً عليه في إجابة الطلب، فقال بسطام وقد سحره عبد الرحمن بتلطفه: «إنك مصيب كل الإصابة، والحق يُقال أن البربر وغيرهم من الموالي لم يجدوا من إنصاف العرب لهم مثل ما وجدوه في أيامك. لقد كان أسلافك - ولا يزال كثيرون من أمراء العرب إلى اليوم - يعدون المسلمين من غير العرب عبيداً، فإذا حاربوا معهم في وقعة لا يقاسمونهم الغنائم. فلا تظننا غافلين عن هذا الفضل!».

فقطع عبد الرحمن حديثه قائلاً: «لم أعامل غير العرب إلا بالعدل لأن المسلمين أخوة، والآن أسرع ومعك الأمير هانيء، لحمل آنية الكنيسة إلينا قبل اقتسامها، لكي نردها إلى أصحابها».

خرج بسطام وهو منتفخ الأوداج بما آنسه من الرعاية والإطراء. ونسي ما كان في نفسه على هانيء لأجل مريم - وأهل الفظاظة والخشونة من أقرب الناس إلى المصافاة لخلو قلوبهم من نتائج

الكظم، فإذا ساءهم أحد بعمل جاهروا بما في نفوسهم نحوه فهم لا يضمرون حقداً، ولا سيما مَن كان في مثل حال بسطام بالنظر إلى مريم، فإنه كان قد استلطفها ووعد نفسه بها، ولكنه لم يعلق بحبها كما فعل هانىء. أما هذا فإنه خرج في أثر بسطام وظل قلبه في الفسطاط، أو لعله استعاض منه بقلب مريم، لأنها أحست عند خروجه كأن قلبها اقتلع من صدرها، وخافت ظهور أثر ذلك في وجهها فتشاغلت بإصلاح خمارها. فلما خرج الأميران التفتت المرأة إلى عبد الرحمن وقالت: «يأذن مولاي الأمير في إرسال ابنتي مع هذا الشيخ إلى مقر تقيم فيه في حمايتك، ريثما أتم حديثي معك ونرى ما يكون».

فصفق عبد الرحمن وصاح: «يا غلام!». فدخل أحد الغلمان فقال له: «شيع هذا الشيخ وهذه الفتاة إلى خباء نسائي، وأوص قيّمة الخباء بإكرامها، وأن تعدها ضيفة علينا رعايتها».

فاستحسنت المرأة ذلك والتفتت إلى حسان وقالت: «سر يا عماه مع مريم في رعاية مولانا الأمير وابق معها حتى آتيك».

فخرج يتوكأ على عكازه، وخرجت مريم في أثره والغلام أمامهما.

حسب عبد الرحمن أن المرأة أرادت أن تخلو إليه لتطلعه على سرها، فلما خلوا بادرها قائلاً: «اطلعيني يا أخية على اسمك قبل كل شيء لأناديك به على الأقل».

فقالت: «إذا كان هذا هو المراد من معرفة اسمي فنادني باسم سالمة».

قال: «لقد أدهشني يا سالمة ما رأيته من غريب شأنك، وأراني كلما سمعت حديثك ازددت رغبة في استطلاع حقيقة أمرك، وكأني

بك قد التمست الخلوة رغبة في مكاشفتي بسرك».

فأصلحت سالمة من شأنها والتفت بثوبها، وأخفت يديها والمحفظة في كمها، ونظرت إلى عبد الرحمن والاهتمام بادٍ في عينيها وقالت: «إنك أيها الأمير تخاطب امرأة غير عربية، وغير مسلمة، ولكنها من أشد الناس غَيرة على العرب وعلى المسلمين. وأستأذن مولاي الأمير في الاقتصار على ما عرفه من أمري لأسباب ستبدو له قريباً إن شاء الله، وأما الآن فإني أهب نفسي لخدمة المشروع الذي جئتم لأجله فأبذل ما في وسعي في سبيل تحقيقه».

فاستغرب عبد الرحمن تسترها وخاف أن يكون من ورائه خديعة أو دسيسة فقال لها: «ومَن يضمن لنا أنك تقولين الصدق».

قالت: «لقد أعجبني سوء ظنك بي، ولو لم يبد ذلك منك لاستضعفتك، لأن من كان قائداً لمثل هذا الجند الكبير لا ينجو من أهل الخداع والدسائس، فإن لم يسىء الظن بكل أحد بات في خطر من دسائسهم، أما أنا فلو أني صرحت لك بأمري لهانَ عليك تصديقي، وأما الآن فيكفي دليلاً على صدق ما أقول أن أجعل ابنتي ووحيدتي رهناً بين يديك، فإن بدرت مني بادرة تدل على الخيانة أو الغدر فافعل بها ما شئت».

وكأن كلام سالمة قد نبهه إلى ما يحدق به من أسباب الخداع والمكر، فبالغ في إساءة الظن بها وقال لها: «ومَن يؤكد لنا أنها ابنتك؟ فإن الشبه بعيد بينكما، ويظهر أنها عربية وما أنت كذلك!».

فأطرقت سالمة هنيهة ثم قالت: «أما هذا فلا سبيل إلى إثباته بغير الاستفهام من الفتاة نفسها والخادم الشيخ فإنه عربي مسلم، وهو وحده المطلع على سري ولكنه لا يبوح به إلا في حينه فاسألوه». قالت ذلك ودلائل الإخلاص وصدق اللهجة يتجليان في عينيها

وفيما بدا في وجهها من أمارات الحياء والاهتمام، فتحقق عبد الرحمن بفراسته أنها تقول الصدق فاكتفى بذلك وقال: «لقد صدقتك يا سالمة، فأخبريني متى ننفذ على سرك؟».

قالت: «إن كشف هذا السر غير مقيّد بزمان، وإنما هو مرهون بحادث لا يجوز كشفه إلا بعد حدوثه!».

قال: «وما هو ذلك الحادث؟».

قالت: «لن أحدثك الآن، وإنما يقربنا منه صدق النيّة في فتح هذه البلاد وسرعة إتمامه، وهذا هو الأمر الذي وهبت نفسي له، فإذا أذن مولاي في أن أساعده فيه فعلت».

فلبث عبد الرحمن ساكتاً، وأطرق مفكراً فيما سمعه كأنه يحلله في ذهنه، فرأى مفتاح السر كله في معرفة والد الفتاة مريم. فرفع بصره إلى سالمة وقال وهو يلاعب أطراف حمائل السيف بين أنامله: «لا بأس من تأجيل خبرك، وإنما ألتمس منك أمراً فهل تصدقينني فيه؟!».

قالت: «إذا استطعت ذلك فعلته».

قال: «أريد منك أن تخبريني من هو أبو هذه الفتاة، وأين هو؟».

فلما سمعت سؤاله بغتت، وتصاعد الدم إلى وجهها، وتغيّرت سحنتها، وبدت الكآبة في جبينها وحول فمها، وأطرقت مدة لا تتكلم! ثم رفعت بصرها إليه وقد أبرقت عيناها بما غشاهما من الدمع وقالت: «تسألني عن مكان أبيها وأنت تراني في هذا الثوب الأسود؟». قالت ذلك وأمسكت طرف الخمار بين الإبهام والسبابة وقد غصت بريقها، فندم عبد الرحمن على سؤاله عن المكان وقال: «لم

يكن مرادي تذكيرك بوفاة زوجك وإنما أردت معرفة اسمه، ولا أرى مانعاً من اطلاعي عليه الآن وليس معنا ثالث، وأعاهدك على كتمان ذلك عن كل إنسان، إنني لا أطلب منك اطلاعي على سرك وإنما أريد معرفة زوجك».

قال ذلك وهو يتوقع إجابتها عن سؤاله، أما هي فلما رأت إلحاحه في معرفة اسم زوجها بدا الغضب في وجهها وقالت: «يظهر أني أخطأت في عرض نفسي لخدمتكم، وإلا فما معنى هذا الإلحاح والضغط؟ لو أن التصريح باسم ذلك المسكين كان ممكناً، لصرحت به دون أن أكلفك عناء السؤال. ثم إني لا أرى فائدة من ذكره الآن، وسيأتي وقت تعرف فيه كل شيء».

فاستغرب عبد الرحمن تكتمها وازداد رغبة في معرفة سرها، ولكنه لم يرَ إلزامها ذلك قهراً مراعاة لشعورها وطمعاً في الانتفاع بخدمتها، فجاءها من جهة أخرى فقال: «حسناً، بقي سؤال واحد أرجو ألا يكون حظي في الإجابة عنه مثل حظي في سواه؟».

قالت: «قل ما بدا لك».

قال: «أرى ابنتك من الجمال فيما ليس بعده غاية، وهي في سن الزواج، وأنتِ وحيدة. فلماذا لم تزوجيها بشاب تعيشين في حمايته؟ ولا ريب عندي في أنك تجدين من الطلاب من تقر به عينك لما هي عليه من الجمال والهيبة».

فالتفتت سالمة وقد انقشعت علامات الكآبة عن محياها، وتحول انقباضها إلى الانبساط وقالت: «أما هذا السؤال فلا بأس من الإجابة عنه».

فاستبشر عبد الرحمن وقال: «وما الجواب؟».

قالت: «إن الفتاة مخطوبة منذ طفولتها!».

قال: «لمن؟».

قالت: «لرجل مسلم، يغار على الإسلام والمسلمين، ويكره الظلم والظالمين، باسل، شجاع، واسع الصدر، كريم النفس!».

قال: «وما اسمه؟».

قالت: «لست على يقين من معرفة اسمه الآن».

قال: «وهل تعرفه ابنتك؟».

قالت: «لا أعرفه أنا ولا تعرفه هي ولا يعرفه أحد سوانا».

فدُهش عبد الرحمن لتلك المعميات وقال: «كيف يكون ذلك يا سالمة؟ أتمزحين؟ أم ماذا؟».

قالت: أقسم بالرب المعبود أنني أقول الصدق!».

فقال: «وكيف تكون ابنتك مخطوبة لرجل لا تعرفون له اسماً ولا لقباً؟».

قالت: «أما لقبه فإننا نعرفه».

قال: «ومن هو؟».

قالت: «يلقب بفاتح بلاد الافرنج بالسيف، ومؤيد الإسلام فيها بالحق والعدل».

ففهم عبد الرحمن أنها تريده هو، إذ لا يصدق ذلك اللقب على سواه، ولذلك أراد أن يتحقق ظنه فسألها متجاهلاً مرادها: «ومتى يكون الزواج، وأين؟».

قالت: «في أي وقت يريده الخطيب، ولكنه لا يكون إلا وراء نهر لوار!».

قالت ذلك وهي تنظر إلى عبد الرحمن مستفهمة كأنها تقول له: «هل فهمت مَن هو؟».

فأدرك عبد الرحمن أن المراد بتقييد الزواج بذلك المكان تعجيل الفتح حتى يعبر المسلمون نهر لوار، وهو آخر حدود «اكيتانيا» من جهة الشمال في الطريق الذي هم سائرون فيه، فثار في خاطره حب الفتح وأحس لساعته بميل إلى مريم، وكان قد استلطفها منذ رآها في ذلك المساء وهو في شاغل عنها بأمر الحرب والنصر وتنظيم الشؤون، فلما سمع ما قالته سالمة وتذكر الفتاة وما في عينيها من الجواذب شعر بميل إليها أحياه فيه الأمل. وذلك طبيعي في الناس في مثل هذه الحال. فقد يرى أحدهم الفتاة مراراً ويستلطفها، ولكنه لسبب من الأسباب لا يأمل الحصول عليها، فإذا حدث له ما نبه فيه هذا الأمل فسرعان ما يشعر نحوها بانعطاف ينمو حتى يصير شغفاً. وليس هذا مقصوراً على الحب وحده، بل هو يشمل سائر مطامع الإنسان. فقد يكون أحدهم محباً للسلطة ولكنه ليس له مطمع فيها لضعفه أو فقره، فإذا ظهر له من ثقاته إمكان تحقيق أمنيته شغف بها وبذل نفسه في الحصول عليها. وقد أصاب عبد الرحمن الغرضين معاً، لأن عبارة سالمة أذكت فيه حب الفتح، وأحيت فيه الميل إلى مريم، فاكتفى بهذا القدر من الحديث في الأمرين، وجاراها في كتمان اسم زوجها وغرضها من التفاني في مساعدتهم، على أمل استطلاع ذلك في فرصة أخرى، وقال لها: «دعينا الآن من هذا وأخبريني ما الذي تعتزمين إعانتنا به في شأن الفتح الجديد؟».

فقالت: «ليس لي سيف أناضل به عنكم أو أشترك في النضال معكم، ولكنني خبرت طبيعة هذه البلاد وعرفت من أحوالها ما لو عرفه المسلمون لفتحوها من أيسر سبيل».

فقال: «وما ذاك؟».

قالت: «هل يُخفى على الأمير عبد الرحمن أن الغاليين أهل هذه البلاد هم غير الافرنج الذين يحاربونكم ليمنعوكم منها، وإن الدوق (أودو) حاكم اكيتانيا هذه وجنده ليسوا أقرب إلى قلوب الغاليين من قائد جند المسلمين ورجاله؟».

قال: «وكيف ذلك؟».

قالت: «إن سكان هذه البلاد أخلاط من الرومانيين والغال، وقد كان الغاليون أمة كبيرة، وظلوا على البداوة والاستقلال، حتى جاءوهم الروم في القرن الأول قبل الميلاد، ففتحوا بلادهم على يد يوليوس قيصر القائد الشهير، وما زالت في حوزة الروم نحو خمسة قرون. ثم تضعضعت الدولة الرومانية فهاجمتها قبائل الجرمان من الشمال، كما هاجمتها قبائل العرب بعد ذلك من الجنوب. والافرنج إحدى قبائل الجرمان ففتحوا غاليا هذه واستولوا عليها، وكان (ميروفي) أول مَن تولى حكمها منهم، فبقي الحكم في أسرته إلى أن أفضى الأمر إلى ملوك ضعفاء طمع فيهم وزراؤهم وأمراؤهم فاقتسموا البلاد بينهم، وكانت اكيتانيا من هذه الأقسام، وآخر حدودها من الشمال نهر لوار، ويحكمها الدوق (أودو). وهناك وراء هذا النهر تقع مقاطعة اوستراسيا وحاكمها شارل (قارله) وزير آخر الملوك الميروفيين. وكلاهما من الفرنك، ولكن كلاً منهما ينظر إلى الآخر بعين الحذر، والأهالي ينظرون إلى كليهما بعين المقت لعلمهم أنهما يرغبان في فتح بلادهم للتمتع بها، ثم جئتم أنتم لفتحها. فالغاليون محكومون في الحالتين، ولا يهمهم لمن تكون الغلبة من الجندين إلا إذا رأوا في أحدهما مزية على الآخر من حيث مصلحتهم وراحتهم».

فقطع عبد الرحمن حديثها بقوله: «والغاليون بالطبع

يؤثرون الافرنج لأنهم نصارى مثلهم!».

فابتسمت سالمة وقالت: «ليس الأمر كذلك يا مولاي، إن الدين لا دخل له في هذه الحرب، وإنما ساق قبائل الافرنج إلى هذا الفتح حب السلطة والطمع في الكسب، ولذلك انقسموا فيما بينهم، فإن (أودو) حاكم اكيتانيا التي نحن فيها الآن، يحاذر شارل حاكم أوستراسيا، ويخاف سلطانه، وكل منهما جاهد في تبغيض الآخر إلى الأهالي وهؤلاء يبغضونهما كليهما لأنهم لم يروا منهما ما يبشرهم براحة، وذلك لما تعلمونه من عادتهما في استعباد الرعية وابتزاز أموالهم واستنفاد قواهم، خلافاً للعرب في بدء فتحهم لأسبانيا إذ تركوا لأهلها الحرية في كل معاملاتهم، ولم يتعرضوا لهم في شيء من دينهم، وكان أفضل أمراء المسلمين في ذلك موسى بن نصير، وابنه عبد العزيز. ولولا أن عجل بقتل عبد العزيز لفتحت هذه البلاد على يده، إذ أحس الاسبان في أيامه أنهم انتقلوا من الضيق إلى الفرج، ولكنهم ما لبثوا أن ذاقوا مرارة الظلم من بعض الذين خلفوه من أمراء المسلمين. ثم أفضت الامارة إليكم، وعلمت أنكم سائرون على خطة ذلك الفاتح العظيم في محاسنة الناس وإنصاف أهل الذمة، ورعاية العهود المبرمة معهم في شأن كنائسهم وديانتهم. وقد تحقق لي ذلك الآن، فالغاليون إذا ضمنوا سلامتهم وسلامة أهلهم ومعائشهم على أيدي المسلمين، كانوا عوناً لهم على الفتح ولا تنسَ أن اليهود والنصارى وغيرهم من أهل هذه البلاد يناصرونكم كذلك ما داموا على يقين من اعتزامكم توفير أسباب الراحة والطمأنينة لهم بعد الفتح. وأما ما يبدو لكم من الغيرة على النصرانية فليس صحيحاً فيما عدا طائفة الاكليروس ومَن يهمهم نصرة الكنيسة من بقايا الرومان ومَن انتمى إليهم من الغاليين، أما قبائل الافرنج فبينهم مَن اتخذ الدين

ذريعة للسلطة وكسب المال، كما فعل بعض قبائل البربر وغيرهم من جنودكم!».

فلما سمع عبد الرحمن قولها تحقق سداد رأيه فيما شرع فيه من محاسنة أهل الذمة وتوخي العدل والانصاف وقال: «أنت تعلمين أني فاعل ذلك من تلقاء نفسي، فما الذين تفعلينه أنت في هذا السبيل؟».

قالت: «إني أتطوع للذهاب في أي مهمة تفرضونها، والأفضل على ما أرى أن أتقدمكم إلى البلاد التي تنوون فتحها، فأغرس في قلوب أهلها الاطمئنان للمسلمين وسلطانهم، على أن تعاونوني على ذلك بإكرامكم نصارى بوردو وطمأنة قلوبهم، ومحاسنتهم واحترام شعائر دينهم، والمحافظة على أعراضهم وأرواحهم. فإذا فعلتم ذلك سهل عليَّ إقناعهم بأن المسلمين الفاتحين أهل عهد وذمام، يخافون الله ويعملون بالعدل، وليسوا كما يتوهم بعض ذوي الأغراض قساة لا دين يردعهم عن ارتكاب المحرمات، ولا حنان في قلوبهم يمنعهم من الظلم والعسف، وقد حمل الناس على تصديق ذلك ما ارتكبه بعض الذين رافقوا جند المسلمين رغبة في النهب والقتل دون أن يجدوا حكيماً عاقلاً كالأمير عبد الرحمن يصلح ما أفسدوه كما رأينا في هذا المساء».

فازداد عبد الرحمن إعجاباً بتعقل سالمة وغيرتها على المسلمين وقال: «افعلي ما يتراءى لك، وسأعامل نصارى بوردو كما تريدين، فماذا ترينه يرضيهم؟».

قالت: «إنما يرضيهم أولاً وقبل كل شيء المحافظة على شعائرهم الدينية واستبقاء كنائسهم ومعابدهم، ثم رد أسراهم بالافتداء، وهناك أمر ذو بال أوجه نظركم إليه، هو ضرورة منع بيع

أسرى النصارى ثم قتلوهم أسراً، فتجنب هذا الأمر مستحسن على كل حال بين الطائفتين».

فقال عبد الرحمن: «ولكن اليهود تجار نبيعهم الأسرى بالمال، فمن أراد من أهل البلاد أن يفتدي أسيره افتداه منهم بالمال».

قالت: «ولكن بعض اليهود يبتاعون الأسرى للتنكيل بهم انتقاماً لما كانوا يسامونه على أيديهم من قبل وكثيراً ما ابتاع اليهود أسرى النصارى ثم قتلوهم صبراً، فتجنب هذا الأمر مستحسن في كل حال».

لم تكد سالمة تتم كلامها حتى سمعوا قرقعة وضوضاء خارج الفسطاط، ثم دخل هانىء ووراءه عبيد يحملون أكياساً وأدوات وقال: «هذه أدوات الكنيسة جمعناها بشق الأنفس، لأنها كانت قد تفرقت في أصحاب الغنائم!». وأمر الرجال أن يفرغوا ما في الأكياس بين يدي الأمير، فامتلأ البساط بالشمعدانات والصلبان والكؤوس، وبعضها من الفضة والذهب، فضلاً عن أصناف شتى من الملاعق والصحون والصور وقطع من الذهب اقتلعوها من الصور الكبيرة التي لم يستطيعوا حملها.

فلما خرج العبيد ولم يبق في الخيمة إلا عبد الرحمن وهانىء وسالمة، التفت عبد الرحمن إلى سالمة وقال لها: «هذه هي الآنية فماذا نفعل؟».

قالت: «أرى أن ترسلها إلى أسقف الكنيسة في بوردو مع رجل يخبره بأن نهب هذه الكنيسة وقع بغير علمك ويعتذر له، كما يخبره بأن الأسرى باقون إلى مساء الغد في المعسكر، فمن أراد أن يفتدي أسيره فليقدم ولا حرج عليه. وسأذهب أنا إلى الأسقف بعد عودة الرسول فأغتنم فرصة إعجابه برفق المسلمين وعدلهم، وأطلب إليه أن

يرسل مَن يحاول إقناع أهل البلاد الأخرى الواقعة في طريقكم إلى نهر لوار بأن المسلمين أرفق بهم من الافرنج، وبأنهم إذا دخلوا بلادهم فاتحين، فيستركونهم أحراراً في ديانتهم وعاداتهم وحكومتهم وقضائهم وسائر أحوالهم، كما كان شأن أهل الأندلس في أول الفتح».

فلما سمع عبد الرحمن رأي سالمة لم يزد عليه كلمة واحدة، وازداد إعجاباً بسداد رأيها وسعة اطلاعها فقال لها: «فليكن ما ترين وليبق كل ما دار بيننا مكتوماً عن كل إنسان». ثم التفت إلى هانىء وقال له: «اعهد إلى رجل من ثقاتك في أن يوصل هذه الآنية إلى الأسقف ويبلغه هذه الرسالة».

وكان هانىء قد أصبح أكثر إعجاباً بسالمة من عبد الرحمن، ولا سيما أنها أم الفتاة التي ملكت لبّه من أول نظرة، فبادر إلى استقدام بعض رجاله وحملهم الآنية، ثم خرج معهم لإنجاز تلك المهمة. ونهضت سالمة ملتمسة من عبد الرحمن أن يرسلها إلى مقر ابنتها لتبيت هناك إلى الصباح ثم تخرج لمهمتها، فأراد عبد الرحمن المبالغة في إكرامها فاسترجع هانئاً وقال له: «ادع لي رجلاً من خاصتك يشيع سالمة إلى خباء النساء حيث تقيم ابنتها».

فعَدّ هانىء هذه المهمة فرصة يجب اغتنامها فقال: «إن مثل هذه السيدة لأهل لكل إجلال، وأنا ذاهب إلى قرب الخباء، فيسعدني أن أشيعها بنفسي».

فاستحسن عبد الرحمن شعور هانىء وابتسم وقال له: «بورك فيك، إنها أهل لأكثر من ذلك».

فمشت سالمة في أثر هانىء وظل عبد الرحمن وحده وقد بهره ما شاهده في ذلك المساء من الغرائب، واستبشر بنجاح حملته، وزاد

رغبة في تفقد جنده والسهر على جمع كلمته.

— ٤ —

ميمونة

تركنا مريم وقد خرجت مع خادمها حسان من خيمة الأمير عبد الرحمن والغلام دليلهما إلى الخباء. وكان الليل قد نصب سرادقه فظل فكرها مشتغلاً بهانىء وأحست بجاذب نحوه لا تدري ما هو، وذهب من خاطرها ما كانت تسمعه من أمها عن أهمية مستقبلها. ولم تكن تسمع منها شيئاً صريحاً في هذا الشأن، ولكنها كانت تحملها على إتقان الكلام باللغة العربية وتُعنى بتعليمها ركوب الخيل وفنون الفروسية وغيرها من الألعاب الرياضية، حتى خشنت عظامها وقوي عضلها وشبت على الحمية وعزة النفس والشجاعة، ولكن لطف أنوثتها ما زال غالباً عليها، وإنما زادتها الرياضة صحة واكتسب وجهها رونقاً وإشراقاً.

مشت في أثر الغلام وبجانبها حسان يتوكأ على عكازه بنشاط وخفة، وقد تذمل بقبائه، وعلى رأسه قبعة (طاقية) لصقت برأسه الحليق فظهرت كأنها جلد ثان له! فمروا في أثناء الطريق بجماعات من الرجال، كل جماعة من قبيلة، بعضهم في الخيام، وبعضهم فيما بينها، وقد علت الضوضاء، وكان أنكى ما يسمع من أصوات الرجال عبارات الخصام على قسمة الغنائم ونحوها ولا سيما ما كان منها ثميناً كالثياب الموشاة وآنية الذهب أو الفضة، أو الأدرع أو الطنافس، وكثيراً ما يفضي الخصام في شأن بعضها إلى تجزئتها قطعاً وتوزيعها بين المختصمين أجزاء لا تفيدهم شيئاً. وكانت مريم تسمع أصوات الأمراء يهددون رجالهم أو يوبّخونهم، ولا تسل عن حالها لما سمعت صوت هانىء في خيمته على بضع خطوات منها وهو يحاسن

بعضهم لإقناعهم بتسليم آنية الكنيسة عملاً بإشارة عبد الرحمن، فقد اختلج قلبها في صدرها وودت لو تقف هناك برهة لتسمع حديثه وتستأنس بصوته، وتمنت لو أن الخباء قريب لعلها ترى هانئاً إذا مرّ بها، فنادت الغلام وسألته عن موقع الخباء فقال: «إنه خارج هذا المعسكر يا مولاتي».

قالت: «وهل هو بعيد من هنا؟».

فتطاول الغلام بعنقه وهو ينظر إلى الأفق ثم قال إن الخباء يا سيدتي عند هذه النار». وأشار بإصبعه إلى نار موقدة وراء حدود المعسكر فنظرت مريم فإذا هي لا تزال بعيدة عن المكان فقالت: «ولماذا جعلوا الخباء بعيداً هكذا؟».

قال: «لأنه دار النساء، والعادة في هذه الدور أن تُقام خارج المعسكر، ومتى وصلنا إلى هناك رأيت أخبية عديدة لنساء الأمراء والقواد وغيرهم من رجال الجند، ولولا مَن يقوم بخدمتهن من الخدم والخصيان والعبيد لحسبت نفسك في مدينة من النساء!».

فسكتت وهي تجد في مشيتها، وحسان يتابعها ساكتاً كأنه استأنس بصوت خفق نعاله ووقع عكازه على الحجارة، حتى إذا خرجوا من المعسكر سمعت عند خروجهم أصواتاً آتية من أطرافه خيّل إليها أنها من قبيل التهديد، فأجفلت وتراجعت، وأدرك حسان خوفها فقال لها: «لا تخافي يا بنية، إن حراس المعسكر يطلبون منا شعار الليل، فإذا لم نجبهم به ظنونا من الأعداء».

فقالت: «وكيف ذلك؟ وما هو الجواب؟».

قال: «هو عند هذا الغلام». والتفت إليه ليسأله فإذا به يقول بصوت عالٍ جواباً على ما قاله الحراس: «طليطلة وقرطبة!». فالتفت حسان إلى مريم وقال لها: «هذا هو شعارهم الذي يتعارفون به

اليوم». وكان الحراس قد سكتوا، فواصلت مريم وحسان سيرهما في أثر الغلام حتى انتهوا إلى الأخبية، فسمعوا من حراسها مثل ذلك النداء، فأجابوهم بمثل ذلك الجواب، واتجه بهم الغلام إلى خباء منفرد أمامه نار عظيمة فعلمت مريم أنه الخباء الذي تقصد. فلما دنت منه رأت الخدم ببابه وفيهم البيض من الصقالبة الذين يباعون في تلك البلاد، والسود الزنوج الذين رافقوا الحملة من افريقيا وأكثرهم من الخصيان. وتأملت الخباء فإذا هو مربع من نسيج أحمر متين قائم على أعمدة من الخشب مكسوة بالقماش، تقرب مساحته من خمسين ذراعاً في مثلها، يكتنفه سور من ذلك النسيج مسند بالأعمدة ومشدود إلى الأرض بالأوتاد والأمراس، أما سقف الخباء فقبة كبيرة من ذلك النسيج نفسه قائمة على عمد متينة. وقد قسم الخباء داخل السور إلى غرف وأفنية تفصل بينها جدران من نسيج أخضر مسندة بالأعمدة أيضاً.

وبينما هي تتأمل ذلك البناء أقبل عليهم رجل من خصيان الخباء البيض عرفت من سحنته أنه صقلبي، فاستقبله الغلام وتعارفا وتفاهما، وكان الغلام قد أفهم الخصي المهمة التي هو قادم في شأنها فتركها وهو يقول بلسان عربي تخالطه عجمة: «إني ذاهب إلى القهرمانة قيمة الخباء أستقدمها لاستقبالها» ومضى حتى دخل الخباء فوقفت مريم وحسان والغلام في انتظاره، ثم عاد وقال: «تفضلي يا مولاتي بالدخول، وسيبقى خادمك معنا».

فمشت مريم وقد التفت بثوبها وأصلحت نقابها الأسود وتعهدت شعرها استعداداً لاستقبال القهرمانة، ودخلت باب الخباء في أثر الخصي فرأت نفسها في دهليز انتهت منه إلى شبه قاعة فيها مصباح مضاء بالزيت قد علقوه بحبل في سقف الخباء بين عمودين

من أعمدته، لم تشك مريم في أنه من مصابيح بعض الكنائس في البلاد التي فتحوها، وأرض الخباء مفروشة بأبسطة ثمينة وفيها معظم ما يحتاجون إليه من الآنية كان أهله مقيمون هناك منذ أعوام!

فلما دخلت القاعة سبقها الخصي وأبلغ القهرمانة أمر الأمير فتقدمت لاستقبال ضيفتها. وكانت كبيرة الجثة ثقيلة الحركة، عريضة الوجه كبيرة العينين خشنة الصوت مهدلة الخدين من الكبر، غليظة الشفتين، قد نبت على شفتها العليا وحول ذقنها شعر مستطيل، وغطت صدرها وعنقها القلائد والعقود، وفيها الذهب بين مرصع وغير مرصع، وحول زنديها الأساور والدمالج، وفي أذنيها الأقراط وفي رجليها الخلاخل، حتى يكاد الناظر إليها وهي تمشي وتتوكأ على وركيها يتوهم أنها تنوء تحت أثقال تلك الحلى، مع أن دلائل القوة ظاهرة في كبر وجهها ووضوح تقاطيعها. وكان بينها وبين عبد الرحمن قرابة رحم، وقد ألقى إليها مقاليد خبائه وفوّض إليها تدبير شؤون نسائه وجواريه، وفيهن القوطيات والصقليات والروميات والبربريات وغيرهن. فلما وقع نظرها على مريم ورأت ما هي عليه من الجمال والهيبة أحبتها واستخفت روحها، فرحبت بها، ولا سيما بعد أن علمت برغبة عبد الرحمن في إكرامها. وكانت مريم قد استوحشت من منظر تلك القهرمانة فلما سمعت ترحابها استأنست بها وهمّت بتقبيل يدها فامتنعت وقالت لها: «أهلاً بكِ يا حبيبتي ما اسمك؟».

قالت: «مريم». ولفظت الراء غيناً على عادتها، فاستلطفت منها تلك اللثغة ودعتها إلى الجلوس على البساط، ثم أمرت بعض الخدم فجاؤوها بالطعام ولم تكن قد ذاقت طعاماً منذ الصباح، فأكلت والقهرمانة تحدثها وتسألها، فتجيبها وذهنها منصرف إلى التفكير في أمر هانىء، وكلما تذكرته خفق قلبها وأسرعت ضرباته. فلما رأتها

القهرمانة قلقة منقبضة حملت ذلك منها على محمل الاستيحاش، وتذكرت ما أوصى به عبد الرحمن من وجوب إكرامها ففكرت في شيء تؤنسها به، وبعد أن فكرت قليلاً ومريم صامتة قالت لها: «يظهر أن حديث العجائز لم يرق لك، وقد أوصاني الأمير بإكرامك. ولعل من أسباب استيحاشك قرب عهدك بالأسر، وإنك أخذت من أهلك. فاعلمي أنك ستكونين عندنا كأنك بين أهلك، وإني داعية لك من نساء هذا الخباء امرأة أصلها من أهل هذه البلاد قد تعلمت العربية. وهي بارعة في الجمال ولها منزلة رفيعة عند الأمير، فأظنك إذا لقيتها استأنست بها». قالت ذلك وصفقت فدخل خصي من الصقالبة وتأدب في موقفه فقالت له: «قل لميمونة أن القهرمانة تدعوك إليها». فخرج الخصي فالتفتت القهرمانة إلى مريم وقالت: «أظنك ستستأنسين بميمونة لأنها من أعز أهل هذا الخباء على الأمير، وقد كانت من جواري لمباجة بنت الدوق (أودو) صاحب هذه البلاد، وأظنك تعرفين حكايته مع المنيذر الافريقي أحد أمراء المسلمين الذي كان والياً في الجبال على حدود إسبانيا ثم أبرم مع الدوق (أودو) معاهدة لا نعرف فحواها ولكننا علمنا أن (أودو) زوّج ابنته للمنيذر، فخاف أميرنا عبد الرحمن من خفايا ذلك الاتفاق، فلما مرّ بالجبال وهو قادم لهذا الفتح قتل المنيذر، وغنم الجند أمواله ونساءه، وأرسلوا امرأته لمباجة إلى الخليفة في دمشق، فكانت ميمونة هذه من نصيب الأمير عبد الرحمن. ويُقال إنها كانت من أعز جواري لمباجة إليها، وأشبههن بها جمالاً وتعقلاً».

ولم تتم القهرمانة كلامها حتى دخل الخصي وفي أثره ميمونة، وعليها ثوب أرجواني واسع الكمين طويل الأردان يجر وراءها مع طول قامتها واعتدالها، ولها شعر ذهبي طويل قد ضمته حزمة واحدة

وأرسلته على ظهرها، ولو تأملته جيداً لرأيته ذهبياً ناصعاً، وإذا تفرست فيه لرأيته أميَل إلى الشقرة اللامعة. ومع ذلك فقد كانت سوداء العينين واسعتهما، طويلة الأهداب سوداءها، ترى في عينيها لمعاناً يدل على الدلال والدهاء أكثر مما يدل على الصدق والوفاء. وكانت صغيرة الأنف، مطمئنة الفم، رقيقة الشفتين، بارزة الذقن عريضته، بيضاء البشرة، صافية اللون، فلم تتمالك مريم عند وقوع نظرها عليها من الإعجاب بما يتجلى في وجهها من الهيبة والجمال، ورأت نفسها منقبضة بما التفت به من الكساء الأسود، لولا أن ميمونة لم تكد تقع عليها نظرها حتى هشت لها وابتسمت ابتسامة انفتح لها قلب الفتاة، وأحست للحال بأنس أنساها ما كانت فيه من القلق، وأجابتها بابتسامة تختلف عن ابتسامتها اختلافاً لا يميزه إلا الناقد البصير.

دنت ميمونة من مريم وحيتها ورحبت بها كأنها كانت على موعد من لقائها، أو كأنها تعرفها من زمان طويل، فازدادت مريم استئناساً وطمأنينة، ونسيت ما سبق إلى ذهنها من التهيّب عند مقابلة القهرمانة والتفتت القهرمانة إلى مريم وقالت: «هذه ميمونة التي أخبرتك عنها الساعة، فأرجو أن تستأنسي بها وترتاحي إلى مجالستها». ثم أشارت إلى ميمونة وقالت: «وهذه ضيفة الأمير عبد الرحمن، قد بعث بها إلينا وأوصانا برعايتها».

فجلست ميمونة بقرب مريم وهي تقول: «أهلاً بالضيفة الكريمة من أين أتيت يا حبيبتي؟». قالت ذلك بكلام عربي تخالطه لهجة افرنجية، فتنسمت مريم من مجمل سحنتها ونسق كلامها أنها افرنجية الأصل كما قالت لها القهرمانة، فأجابتها: «قد كنت في جملة أهل بوردو الذين قُضِيَ عليهم بالوقوع في أسر هذا الجند».

قالت: «هل قبضوا عليك وحدك وليس معك أحد من أهلك؟».

قالت: «كلا، ولكنهم قبضوا على أمي وخادم لنا شيخ، غادرته مع جملة الخدم خارج هذا الخباء».

قالت: «أراك تتكلمين العربية جيداً وتقولين أنك من أهل بوردو، فكيف ذلك؟».

قالت: «لا أدري السبب، ولكن هذا هو الواقع!». قالت ذلك وهي تعلم أن أمها لا تريد التصريح بأكثر منه.

فسألتها: «وهل قتل أبوك في هذا الفتح؟».

فأجابت بقولها: «كلا».

فقالت: «هل أُسِر؟ أم فَر؟».

فسكتت وأومأت برأسها أن لا هذا ولا ذاك؟!.

فأدركت ميمونة أن أباها ميت من قبل، ولكنها لم تكتف بذلك فقالت: «وما اسم أمك لعلّي أعرفها؟».

قالت: «اسمها سالمة».

قالت: «إذن هي عربية؟».

قالت: «لا أدري».

ـ ٥ ـ

سران..!

كانت ميمونة في أثناء حديثها مع مريم تتفرس في وجهها، وتستحث ذاكرتها إذ خيّل لها أنها تعرفها من قبل، وأخذت تطيل السؤال لعلها تستدل على ذلك من كلامها، فلما رأتها اقتضبت

الحديث بقولها: «لا أدري». عدلت عن مواصلة البحث: والتفتت إلى القهرمانة فرأتها قد أدلت رأسها على صدرها ونامت وعلا شخيرها فقالت ميمونة لمريم: «هلم بنا إلى غرفتي فتمكثين عندي في أثناء هذه الضيافة».

فأطاعتها مريم ونهضت معها واتجهتا إلى غرفة من غرف الخباء فجلستا هناك، وقد عادت ميمونة تستحث ذاكرتها لعلها تستحضر صورة ذلك الوجه وأين شاهدته، ومريم في غفلة عن ذلك وفي شاغل بما عاد إلى ذهنها من الهواجس بشأن هانىء وما أثاره في فؤادها من لواعج الحب، فغلب عليها الانقباض وبدت في وجهها ملامح الاضطراب.

ظلتا صامتتين مدة وكل منهما في هاجس، وإذا بصوت القهرمانة يقرع الآذان وهي تنادي: «ميمونة..! مريم..!». فذعرتا، وخافت ميمونة أن تعد القهرمانة خروجها على تلك الصورة ذنباً فتشكوها إلى الأمير أو تسيء معاملتها لأنها الآمرة الناهية في ذلك الخباء. وللقهرمانات نفوذ عظيم في بيوت الأمراء والخلفاء والسلاطين في كل العصور، وإذا كان الأمير أو الخليفة ضعيفاً أصبحت القهرمانة صاحبة الأمر والنهي حتى في أعمال الحكومة، تعزل وتولي وتقبض وتطلق كما تشاء. فلما سمعت ميمونة نداءها نهضت للحال، فنهضت مريم معها ومشتا إلى القاعة ودخلتا وإذا هناك امرأة بلباس أسود يجللها من رأسها إلى قدمها فحالما رأتها مريم عرفت أنها أمها فتقدمت إليها وسلمت عليها فقبلتها، على حين لم تكد ميمونة تتفرس في وجهها حتى انجلت لها الصورة التي كانت تستحث الذاكرة في استحضارها، فبدت عليها أمارات الاضطراب والبغتة، ولكنها تغلبت على عواطفها وتقدمت للسلام على سالمة وهي

تهش لها وترحب بها!. أما سالمة فحالما وقع نظرها على ميمونة عرفتها، فخفق قلبها دهشة لأنها لم تكن تتوقع أن ترى ذلك الوجه هناك، ولا في أوربا، فردت عليها السلام ببرود وهي تتفرس في وجهها لتحقق ظنها فيها، وميمونة تغالطها بعبارات الترحاب والمجاملة والممازحة كقولها: «لقد سرّني كونك هنا سروراً مزدوجاً لسببين: الأول أنني استأنست بك وفرحت لفرح حبيبتي مريم بك، وإن يكن لم يسبق لي حظ بمعرفتك، والثاني إن نداء خالتي القهرمانة لم يكن من غضب عليّ!». قالت ذلك وضحكت وتشاغلت بإصلاح شعرها هنيهة، ثم عادت إلى الكلام وهي تلاعب كم ثوبها وتضحك وعيناها تبرقان، ثم قالت: «مرحباً بك، لقد أتيت أهلاً فعسى أن نقضي مدة إقامتنا هنا معاً بسرور».

ثم وضعت ميمونة يدها على كتف مريم كأنها تحاول ضمها إليها وقالت: «ولا تلوميني إذا تعلقت بحب ابنتك من أول نظرة، فإنها تعشق بما خصتها به العناية من اللطف والجمال، فلا غرو إذا لقيت من الأمير عبد الرحمن هذه العناية والإكرام».

وكانت ميمونة تتكلم ضاحكة متلطفة، وسالمة تحدق فيها وتتبين لهجة كلامها وغنة صوتها لتحقق ظنها في معرفتها. واستغرقت في التفكير، وحارت فلم تدر ما تصنع بعد أن علمت حقيقة تلك المرأة التي سمت نفسها ميمونة، وتظاهرت بأنها من جملة نساء جند المسلمين، وقد تكون بلاء كبيراً عليهم. وبقيت فترة وهي مترددة بين أن تكشف أمرها وتبين لها أنها عرفتها، وبين أن تكتم أمرها وتتجاهل!.. على أنها لحظت من الجهة الأخرى أن ميمونة عرفتها، فخافت أن تبوح بسرها إلى أحد وهي تود بقاء أمرها مكتوماً، ولهذا اعتزمت التجاهل مؤقتاً لترى ما يكون، فقالت: «إنه

ليسرني أيضاً أن تكون ابنتي في حجر أخت حنون مثلك، وفي رعاية الخالة أيّدها الله». قالت ذلك وأشارت إلى القهرمانة، فضحكت العجوز حتى بانت لثتها وليس فيها من الأسنان القواطع إلا اثنتان، واحدة في الفك الأعلى والأخرى في الأسفل، وبينهما ثغرة مربعة، ثم قالت: «إن ابنتك يا سالمة ضيفة عندي، وما للضيف غير الكرامة، وليس هي من نساء هذا الخباء أو سراريه أو جواريه ليجري عليها الأمر والنهي».

فقطعت سالمة كلامها قائلة: «إنني أعدها تحت أمرك، وإذا شئت أن تعديها ابنة لك كان ذلك زيادة في تفضلك». فهمت القهرمانة بالوقوف وهي لثقلها لا تستطيع النهوض إلا بالاعتماد على يديها والزخير والتوكؤ كأنها تحمل حملاً أثقل كاهلها. فلما قاربت أن تقف قالت: «وهي ابنتي وأعز من ابنتي، ولذلك فإني عهدت برعايتها إلى أحب أهل هذا الخباء إلى الأمير عبد الرحمن». وأشارت إلى ميمونة..

فأتمت ميمونة عبارتها قائلة: «كوني مطمئنة يا سيدتي فإن مريم ستكون عندنا كأنها في حجرك، ومَن يستطيع أن يرى هذا الوجه ولا يحبه ويتعشقه؟ ولا يغرك مجيئها إلينا باسم الضيفة فإن الأمير لا يلبث متى رآها حتى يتعلق بها ويستبقيها عنده فيزيد بذلك سرورنا ونفرح ببقائها بيننا». قالت ذلك ونظرت إلى مريم وتبسمت، فلما سمعت مريم ذلك بدت البغتة في وجهها وخافت أن يصح قولها فتخسر حبيبها وتضيع آمالها فتصاعد الدم إلى وجهها حتى اصطبغ، وأطرقت، فحسبت ميمونة إطراقها حياء على عادة البنات إذا خوطبن بمثل ذلك.

فقطعت القهرمانة كل حديث بقولها: «هلمّ الآن إلى الرقاد فقد

مضى معظم الليل». وصفقت، فخالط صوت التصفيق خشخشة الأساور والدمالج، وجاء أحد الخصيان فقالت له: «أعد غرفة خاصة بالضيفتين».

فقالت ميمونة: «اجعليها بالقرب من غرفتي إن لم تكن هي نفسها، لأني قد استأنست بالحبيبة مريم وهي استأنست بي». فأشارت القهرمانة إلى الخصي أن يفعل ذلك.

وبعد قليل عاد الغلام وقال إنه أعدّ كل شيء، فانصرفن جميعاً، وسارت سالمة ومريم في أثر الغلام نحو الغرفة. وقبل أن تصلا إليها سمعتا صهيل فرس اختلج له قلب مريم اختلاجاً سريعاً لأنه يشبه صهيل أدهم هانىء، فلم تتمالك أن سألت أمها قائلة: «كأني أسمع صهيل فرس الأمير هانىء فهل هو هنا؟».

قالت: «لقد جاء معي إلى هذا المكان وكنت أحسبه قد عاد لفوره لأنه سائر في مهمة ذات بال تتعلق بأسقف بوردو، ولكن يظهر أنه في شغل هنا، ولا يلبث أن ينصرف».

فتوسمت مريم خيراً من بقائه، ودلها قلبها على أنه إنما بقي ليراها، فاضطربت وظهر الارتباك في وجهها، ولو تفرست أمها فيها لرأت في عينيها ارتباكاً وتفكيراً وقلقاً، ولكنها لم تنتبه لشيء من ذلك لاشتغالها بأمر نفسها واستعدادها للمسير في الغد إلى بوردو.

أما القهرمانة فلما خلت بنفسها أخرجت من جيبها منديلاً مطوياً على شيء في داخله، وفتحته في ضوء المصباح وأخرجت منه عقداً من اللؤلؤ بأسلاك من الذهب، وفي وسطه صليب من الذهب مرصّع بالياقوت والماس على شكل بديع، فوضعته على كفها وأخذت تقلبه وهي تبتسم وتقول في نفسها: «لا بد من غرض لهانىء في إهدائه هذا العقد لي، وإلا فليس في وجهي ولا في قامتي ما يدعو إلى

الشغف أو العشق، ولا هو يحتاج إلى وساطتي لدى عبد الرحمن لأنه صاحب الكلمة النافذة عنده». ثم أمسكت العقد بأحد طرفيه بين إصبعيها ورفعته أمام المصباح فأبرق بما فيه من الحجارة الكريمة فقالت: «لا شك أن هذا العقد من جملة ما أصاب هانىء من الغنائم في موقعة اليوم، ولكن ترى ماذا يريد بإهدائه إليَّ». ثم انتبهت بغتة وقالت لنفسها: «عرفت غرضه، ولا بأس به». ثم صفقت فدخل غلامها فقالت له: «قل للأمير هانىء أن يوافيني إلى غرفتي من بابها الخارجي، وخذ بيده إلى هناك». قالت ذلك وأرجعت العقد إلى جيبها ومشت نحو الغرفة وهي تتوكأ وتترجرج، فوصلت إليها قبل هانىء بقليل، وجلست على وسادة بجانب جدار الخباء، ثم أقبل هانىء وعلى رأسه بدل العمامة خوذة من الفولاذ، وقد أرخى العباءة فانفتحت على صدره، فبانت الدرع من تحتها، وحول خصره حمائل يتدلى منها سيفه المعهود، ودخل مسرعاً حتى اقترب من القهرمانة وهي جالسة لم تتحرك فقالت له: «مرحباً بالأمير هانىء، تفضل بالجلوس».

قال: «لا وقت عندي للجلوس يا خالة لأني ذاهب في مهمة طارئة عاجلة، ولكني أحببت أن أراك قبل ذهابي».

قالت: «بورك فيك يا بني، هل من حاجة أقضيها لك؟».

فتبسم هانىء وقال: «لي حاجة سهلة جداً لا أظنك تضنين بها عليَّ».

قالت: «وما هي؟».

قال: «أرأيت مريم؟ أحب أن أراها وأكلمها لحظة بحضورك حتى تكوني على بيّنة من سلامة نيتي».

قالت: «الآن؟».

قال: «كلا غداً صباحاً بعد سفر أمها، لا شك أنك مجيبة سؤلي، فليس فيه ما يخشى منه».

فتنحنحت القهرمانة وضحكت، وأشارت بعينيها أنها تفعل ما يريده، فهمّ بيديها ليقبّلها فمنعته، فخرج وانصرف.

أما مريم فقد تركناها ذاهبة مع أمها إلى مضجعها وهي مطرقة لا تتكلم، وكذلك أمها، فلما وصلتا إلى الغرفة المعدة لهما، وجدت جدرانها من القماش وفي أرضها بساط عليه فراش، وعلى أحد جدران الحجرة ركوة لشرب الماء معلقة بخيط، فجلستا على الفراش ومريم ساكتة. فلما استقر بهما الجلوس قالت سالمة: «نحمد الله يا بنيّة على نجاتنا ونجاحنا في إقناع أمير هذا الجند بما نريده، وفيه خيره وخير هذه البلاد، هذا وإني ذاهبة في صباح الغد إلى أسقف بوردو، وربما أبقى عنده يوماً أو يومين لقضاء بعض المهام، فهل يشق عليك هذا الفراق؟».

فقالت مريم: «ولماذا هذا الغياب، وما هي تلك المهام التي تقتضي أياماً للفراغ منها، وأنا لم أفارقك قبل اليوم قط، ولا أستطيع البقاء وحدي بين أناس لا أعرفهم. أرجو أن تبقي حساناً معي لاستأنس به».

قالت: «إني في حاجة إلى اصطحابه، وما أحسب غيابي سيطول كثيراً».

قالت: «لقد شغلت بالي، فهلا ذكرت لي سبب هذا الغياب؟».

قالت: «لا أخفي عليك يا بنيّتي أني اتفقت مع الأمير عبد الرحمن على أن أتوسط بينه وبين الغاليين سكان هذه البلاد الأصليين، على أن يعاملهم بالرفق والإحسان كما عامل موسى بن نصير وابنه عبد العزيز نصارى الأندلس عند فتحها. وأنا ذاهبة في

صباح الغد إلى أسقف بوردو، لأقابله بعد أن تكون آنية بيعته قد ردت إليه بأمر أمير المسلمين، فأستعينه وأستعين سواه من سراة هذه المدينة في إقناع سراة البلاد الأخرى وأساقفتها وكهنتها بأن المسلمين خير لهم من (أودو) وغيره من أمراء الافرنج، وأنا أعتقد أن في ذلك فلاحهم، واعلمي يا مريم أني أطلعتك على سر يجب أن يبقى مكتوماً عن كل إنسان».

ولم تكن مريم تهتم بهذا الحديث لما جاش في خاطرها من أمر هانىء، وودت لو عادت أمها إلى ذكره لعلها تستطلع شيئاً من أمره، ولكن أمها قطعت الحديث ونهضت لتبديل ثيابها التماساً للرقاد، ففعلت مريم مثلها وذهبت إلى فراشها ولكنها لم يغمض لها جفن معظم ذلك الليل، وهي تتوقع أن يناديها هانىء أو يناديها أحد عنه، فلما طال انتظارها يئست من ذلك وغلبها الرقاد.

كانت ميمونة قد ذهبت إلى مضجعها بجوار مضجع سالمة، وهي مشتغلة الخاطر بما وقفت عليه من أمر هذه، وحدثتها نفسها بأنها لم تدخل المعسكر إلا لأمر تبيته، فاعتزمت التجسس عليها والإنصات إلى ما عسى أن يدور من الحديث بينها وبين ابنتها. فلما سمعت ما ذكرته سالمة عن مهمتها عند أسقف بوردو، أهمها الأمر كثيراً لأنه يحول دون الغرض الذي رافقت الحملة من أجله فباتت ساهرة قلقة تفكر في ذلك، وتدبر الحِيَل لإحباط مسعى سالمة.

وقبل أن ينبلج الصباح نهضت ميمونة وتزملت بردائها، وتظاهرت بالخروج إلى خباء بالقرب من خباء الأمير، وكانت على موعد في كل صباح مع رجل من الجند تزعم أنه كان من غلمانها يوم كانت عند لمباجة في أيام المنيذر الافريقي، فرأت في أثناء خروجها فارساً قادماً من المعسكر عرفت من قيافته ولون جواده أنه هانىء،

فاستغربت قدومه في ذلك الصباح! فلما توارى عن بصرها ذهبت إلى موعدها فمكثت هناك حتى جاءها الرجل وهو بربري عليه ثياب الجند قصير القامة خفيف الشعر والعضل، في نحو الثلاثين من عمره، وفي عينيه حوَل شديد، فلما أقبل عليها تبسم وأشار إشارة المشتاق، فابتسمت له في دلال وقالت: «يظهر يا عدلان أنك نسيت سيدك وغفلت عن وعدك، ولعل الغنائم شغلتك عن ميمونة، مع أنها لا يشغلها عنك شيء».

فبدت الغبطة في عينيه، إذ استدل بذلك العتاب على أن له منزلة عند تلك الحورية ربة الجمال والدلال. وكان على علمه بما بينه وبينها من البعد الشاسع يطمع في حبها، ويقنعه أن يسمع منها مثل تلك العبارة، شأنه في ذلك شأن «أذناب العشاق». والعشاق ثلاثة: عاشق لا يقنع بغير الحب المتبادل الذي يملأ القلبين، وعويشق يقنعه أن يقدم لمعشوقته طاقة من الأزهار أو عقداً من الجوهر، ويكفيه منها قبول هديته ولا مطمع له فيما وراء ذلك، و«ذنب العشاق» وهو مَن يكفيه أن يخدم معشوقته خدمة تروق لديها كابتياع بعض حاجات الطعام أو نحو ذلك. وكان عدلان هذا من النوع الأخير، فعشق ميمونة وتفانى في خدمتها، ولما كانت تبديه له من التلطف، والتظاهر باطلاعه على بعض سرها، ووعدته بالرضاء التام متى أنجز خدمة وعدها بالقيام بها بعد أن تشتت شملها بقتل المنيذر.

فلما سمعها تعاتبه، ابتدرها بالجواب وهو ينظر إلى وجهها الجميل نظر المحب الولهان وقال: «كيف تقولين ذلك يا مولاتي وأنت تعلمين تفاني في خدمتك منذ أعوام؟ وأما الغنائم فلا يخفى عليك ما تركه أولئك العرب منها، خصوصاً اليوم، فإنهم بعد أن فرقوا الغنائم فينا عادوا فاسترجعوها وأهانوا الأمير بسطاماً إهانة ليس بعدها

إهانة!».

قالت: «الأمير بسطام؟ وكيف تركته يقبل ذلك ولم تحرضه على المطالبة بحقه؟ إلى متى هذا الذل؟».

قال: «لقد حرضته، ولكن غريمه صعب لا ينال!».

قالت: «ومَن هو غريمه؟».

قال: «هو الأمير هانىء نفسه، وأظنك رأيته قادماً في هذا الصباح إلى هذا الخباء».

قالت: «نعم رأيته، وما غرضه من المجيء إلى هنا؟».

قال: «إن غرضه تلك الفتاة الجميلة التي أرسلها الأمير عبد الرحمن إليكم بالأمس، فإنها غنيمة الأمير بسطام وقد أخذها الأمير هانىء رغم أنفه وساعده الأمير عبد الرحمن في ذلك».

فقالت: «وهل رضيت بهذا العربي وآثرته على الأمير بسطام؟».

قال: «يظهر أنها أحبت هانئاً وتعلقت به».

فأدركت ميمونة أن الحب قد تمكن بين مريم وهانىء، وإن هانئاً إنما جاء في هذا الصباح لمقابلتها، فرأت أن تغتنم تلك الفرصة وتدس الدسائس وتوقع الخصام بين الأميرين، فقالت: «كيف رضي بسطام بهذا الذل؟ وكيف يرضى أن تخرج فريسته من بين يديه ويصبر على الهوان؟ إذا قبل هو ذلك فأنا لا أقبله له، وأرجو أن تخبره بأني سأبذل أقصى جهدي في إرجاع هذه الفتاة إليه؟ وقل له ذلك دون أن تشعره بما دار بيني وبينك. هل فهمت يا عدلان؟ إنه يسوءني أن يستأثر هؤلاء العرب بالطيبات ويحملوكم الأثقال والأخطار، أفتفتحون لهم الحصون وتجمعون الغنائم، ثم لا يصيبكم غير التعب والشقاء؟! ولكن لا بأس، فسوف ترى مني ما يسرك». ثم

رأت وهي تخاطبه فارساً خارجاً من خباء الأمير، وأدركت أنه ليس رجلاً، ولكنه سالمة ذاهبة في مهمتها، وقد تحققت ذلك من سواد ثيابها وسير حسان في ركابها، كما أدركت أن هانئاً سيظفر بعد ذهاب سالمة بلقاء مريم، فقطعت حديثها مع عدلان بقولها: «أذهب أنت الآن في حراسة الله». ثم عادت إلى الخباء على عجل، وظل هو واقفاً ينظر إلى قامتها ويتمتع بمنظر ذلك الشعر الجميل، حتى إذا كادت تتوارى التفتت إليه وابتسمت، فأحس كأنها ملكته الأرض وما عليها.

أما هي فلما تأكدت من وقوع التنافر بين هانىء وبسطام، عادت إلى إعمال الفكر للإيقاع بين هانىء وعبد الرحمن ليتم لها إفساد أمر الجيش، لعلمها أن فوزه إنما يقوم باتحاد هذين الأميرين. وكانت قد علمت أن عبد الرحمن إنما أرسل مريم إلى الخباء لتكون في مأمن من سواه، وعلمت أن «حب» هانىء لمريم يسوء عبد الرحمن، فعزمت على إيقاد نار الغيرة بينهما. فسارت تواً إلى غرفة مريم فلم تجدها، وبحثت عن القهرمانة فقيل لها إنها في غرفتها، وهنا تحققت صدق ظنها، فعادت إلى غرفتها مسرعة، وقد خطرت لها حيلة ظنت أنها تنال بها إربها، فنادت غلاماً من غلمان الخباء كان من غلمان المنيذر الافريقي وأخذ في جملة مَن أخذ من الأسرى، وقالت له: «أسرع إلى الأمير عبد الرحمن، وقل له: «إن ميمونة تقرئك السلام، وتقول لك بادر إليها الآن لأمر مهم تريد أن تطلعك عليه الساعة!».

فقال: «حباً وكرامة». ومضى.

— ٦ —

لقاء الحبيبين

كان هانىء قد جاء الخباء مبكراً لشدة شوقه إلى لقاء مريم، فلما

بلغ غرفة القهرمانة استقبلته واستمهلته ريثما تنصرف أمها. فلما تهيأت هذه للخروج نهضت فودعتها، ثم عادت بعد أن سارت ومعها حسان فسرها أنها لم تجد ميمونة في الخباء، حتى لا تطلع على سر المقابلة بين هانىء ومريم. فاصطحبت مريم إلى غرفتها، وسارت هذه معها وهي تفكر في هانىء وبعده عنها، فلما دخلت الغرفة ورأته هناك بغتت، وصعد الدم إلى وجنتيها وغلب عليها الحياء، فأرسلت خمارها على عينيها وأطرقت وقد صبغ الحياء وجهها، فزادها ذلك جمالاً في عيني هانىء. وكان جالساً ينتظر في الغرفة على مثل الجمر، وقد حسب الساعة التي قضاها في الانتظار عاماً طويلاً، فلما سمع خشخشة الخلاخل والدمالج وراء جدار الغرفة علم أن القهرمانة قادمة، ثم ما لبث أن رآها داخلة ومريم في أثرها فهاجت لواعج هيامه، ونهض لاستقبالها. وسمع القهرمانة تقول متظاهرة بأن وجوده هناك كان اتفاقاً: «ما الذي جاء بك في هذا الصباح أيها الأمير؟».

قال: «جئت لأرى وجهك يا خالة؟».

فضحكت القهرمانة وقالت: «لا أظن أن وجهي تعجبك تجعداته؟. وكأني توقعت قدومك فأتيت إليك بهذا الوجه الجميل فهل تعرفه؟». قالت ذلك وهي تشير إلى مريم، فابتسم هانىء وقد غلب عليه الغرام وقال: «لقد عرفته وكلفت به، فهل تراه يعرفني؟».

وكان مريم مطرقة فلما سمعت كلامه نظرت إليه بعينين قد أذبلهما الغرام وتلألأ فيهما ماء الحب، نظرة تغني عن خطاب، فلم يتمالك هانىء عند ذلك أن قال: «فهمت الجواب!».

فضحكت القهرمانة وأمسكت بيد مريم وأجلستها، وقالت وهي تحاول الجلوس: «ما أسرع ما فهمت جوابها وهي لم تتكلم!».

فجلس هانيء ملتفاً بعباءته، وأصلح عمامته وقال: «لقد دلني قلبي يا خالة، ومن القلب إلى القلب دليل!».

ثم التفت إلى مريم وقال: «لا تخافي يا مريم، إني لم آت لأزعجك وإنما جئت لأتحقق ما حدثتني نفسي به، حتى إذا صدق ظني وخدمني سعدي، وقفت نفسي على خدمتك، وجعلتك من أسعد الناس!».

فتنهدت مريم تسكيناً لما جاش في صدرها من الخفقان مما لم تعهده من قبل، وهمَّت بالكلام ولكن منعها الحياء، وهي التي كانت لا تبالي إذا لقيت الرجال في حومة الوغى، فكيف تلعثم لسانها بين يدي رجل يتمنى رضاها، ويتوقع كلمة مِن فيها ليتغنى بها ويجعلها تعويذة في عنقه؟ ولكنه الحب، يذل الأسود ويلعثم ألسنة الفصحاء.

وأدرك هانيء من تحريكها شفتيها دون أن تتكلم أنها تكتم أمراً تود التصريح به لولا الحياء، فتوجه بكليته إليها وقال وقد أخذ الهيام منه مأخذاً عظيماً: «قولي يا مريم، لا تخافي ولا تكتمي، فإن خالتي القهرمانة لا يُستحى منها، فهي خزانة أسرارنا، قولي: هل تحبينني؟».

فالتفتت إليه وتجلدت وقالت: «وما الفائدة من الحب إذا لم يكن متبادلاً؟ وأنتم معشر الأمراء قد تعودتم اقتناء النساء بالعشرات، والحب لا يكون صحيحاً إلا إذا كان بين اثنين ليس معهما ثالث؟».

فبغت هانيء لهذا التعريض وهو لا يرى له محلاً وقال: «لست من هؤلاء يا مريم. وهذه الخالة تعلم أني بلغت هذه السن ولم أتخذ امرأة ولا اقتنيت جارية ولا سرية. اسأليها تنبئك فإنها مطلعة على أحوال جميع الأمراء في هذا الجند، فإن لكل واحد منهم خباء لنسائه وجواريه، وأما أنا فلا خباء لي، ولا أحببت امرأة ولا فتاة، ولم يكن

يخطر ذلك ببالي قبل أن رأيتك صباح الأمس فعزمت على أن تكوني نصيبي في هذه الدنيا. وتأكيداً لذلك فإني أعاهدك من هذه الساعة أني لا ألتفت إلى سواك. فهل تعاهدينني أنت أيضاً؟».

فأبرقت أسرّة مريم وأشرق وجهها وتجلت في عينيها وحول فمها ابتسامة طار عقل هانىء لها، وخفق قلبه سروراً وقال ولم ينتظر جوابها: «ولكن لي شرطاً أشرطه عليك وعلى نفسي، إني لا أتم شيئاً قبل الفراغ من هذه الحرب، فإذا عدنا منها فائزين ـ ونحن فائزون بإذن الله ـ كان ما نتمناه فهل تعاهدينني على ذلك؟».

فقالت وهي مطرقة حياء: «ذلك شرطي أنا أيضاً لأني إذا فزت بك عند ذلك أكون قد نلت السعادتين».

فقال: «فلنتعاقد إذن على هذا الشرط». ومدّ يده إليها ونظر إلى يدها ولسان حاله يقول: «مدي يدك». فمدتها إليه ببطء وهي ترتجف من شدة التأثر فأمسكها بيده وضغط عليها فأحسا كأنهما لمسا تياراً كهربائياً ارتعدت له فرائصهما!... ثم نهض هانىء وهو يقول: «لا بدّ لي من الذهاب الساعة إلى المعسكر لنتأهب للقاء العدو، وأعدك أني سأجاهد جهاد الأبطال لعلمي أن ذلك يسرك، فادعي لي بالنصر».

ثم مد يده إلى كمه وأخرج قارورة تفوح منها رائحة طيب قوية. وقدمها لمريم وهو يقول: «وهذه قارورة من طيب خاص ليس مثلها عند أحد في هذا الخباء، تطيبي بها وحدك حتى إذا أتيت لزيارتك تنمست ريحك قبل وصولي إليك فأستدل على وجودك قبل أن أراك، وأنت أيضاً كلما شممت رائحة هذا الطيب تتذكرين قتيل هواك». قال ذلك وعيناه تتلألآن من شدة الهيام، فمدت يدها وتناولت القارورة وهي تبتسم، ثم تذكرت فراقه لها في تلك الساعة فانقبضت نفسها، فالتفتت نحو السماء وترقرقت العبَرات في عينيها.

وكانت القهرمانة في أثناء الحديث قد استغرقت في النوم وهي جالسة، لا يهمها من هذا الاجتماع إلا ما نالته من التحف وما ترجوه من الهدايا المتواصلة. وبينما هي غارقة في أحلامها علت الضوضاء خارج الخباء فانتبهت فسمعت قرقعة اللجم ودبدبة الخيل فبغتت وبغت هانىء ومريم. وقبل أن تنهض القهرمانة سمعت أحد الغلمان يصيح في الخارج «أين السيدة القهرمانة؟!».

فنهضت القهرمانة وصاحت: «مَن يناديني؟» وخرجت فاستقبلها أحد الغلمان وهو يقول: «إن الأمير عبد الرحمن يدعوك إليه».

فقالت وقد علتها الدهشة: «وأين هو؟». وهرولت نحو القاعة، فقال الغلام: «إنه ينتظرك في القاعة». فعادت إلى هانىء وقالت: «اسرع يا مولاي إلى جوادك وامض قبل أن يراك الأمير هنا فربما رابه أمرك».

فأكبر هانىء أن يخرج خروج الهارب فتجلد وقال: «اذهبي أنت إليه ولا تخافي فإني ذاهب على مهل».

ومضت القهرمانة كي ترسل مريم من باب آخر يؤدي إلى غرفتها، وتسير هي تواً إلى القاعة لملاقاة الأمير عبد الرحمن. وكان هانىء قد اجتاز الباب الخارجي رابط الجأش حتى وصل إلى أدهمه، وهَمّ بأن يركبه فلقي بجانب الجواد رجلاً من ملازمي الأمير عبد الرحمن وقد أمسك بشكيمته. فلما دنا هانىء منه قال له: «إن الأمير يطلب أن توافيه إلى خيمته في المعسكر، فإنه خرج وسيعود إليها على عجل».

فقال: «ومَن أنبأه أني هنا؟».

قال: «عرف ذلك من جوادك؟».

أما القهرمانة فلم تكد تخرج من حجرتها ومريم معها حتى لقيها عبد الرحمن، وكان وجه مريم قد ازداد بتلك البغتة احمراراً، وتجلت دلائل الحب في عينيها مع ما يغشاهما من الدمع، فلما رأت الأمير عبد الرحمن استرجعت جأشها ووقفت للسلام عليه.

أما هو فحالما رآها تذكر أمها فبادرها بالخطاب دون أن يلتفت إلى القهرمانة وقال: «مريم؟! أين أمك، هل سافرت؟».

قالت: «نعم يا مولاي سافرت في الصباح». قالت ذلك بلثغتها المعلومة، ولم يكن عبد الرحمن قد سمعها تتكلم بعد فأعجبته تلك اللثغة، وكان لفرط ذكائه وصدق فراسته قد رأى على وجهها آثار البغتة، وتذكر أنه رأى جواد هانىء بباب القهرمانة من الخارج، فأدرك أن هانئاً كان هناك معها. فتظاهر بعدم المبالاة بهذا الأمر، وتأكيداً لعدم مبالاته خاطب القهرمانة ببرود وسذاجة قائلاً: «هل رجع الأمير هانىء؟».

فلما سمعت القهرمانة سؤاله لم تدر بماذا تجيبه، وكاد يرتج عليها لو لم يتدارك هو الأمر بقوله: «لا بأس من ذهابه فإني سأراه بعد رجوعي». ثم مشى نحو مريم وهو يخاطب القهرمانة قائلاً: «قد أوصيتك يا خالة بإكرام هذه الضيفة، وأعيد توصيتك الآن بأن تبالغي في رعايتها وإكرامها ولا تمنعي عنها شيئاً، ولا تدعيها تستوحش في هذا الخباء فإنها أعز نسائه عندي».

فانبسطت نفس القهرمانة لذلك واطمأن بالها، وتبادر إلى ذهنها أن عبد الرحمن غافل عما حدث من لقاء هانىء ومريم وقالت: «إني فاعلة ما يأمر به مولاي، والحق أن مريم لا يراها أحد إلا أحبها وأكرمها».

فقطع عبد الرحمن كلامها وهو يقول: «أين ميمونة؟ هل هي

في غرفتها؟».

قالت: «أظنها هناك». ومشت لتبحث عنها.

فقال لها عبد الرحمن: «امكثي هنا مع مريم أو أمضي بها إلى حيث تشائين، وسأذهب أنا إلى ميمونة فإني أعرف مكانها».

وكانت ميمونة قد رأت الأمير عبد الرحمن عند وصوله إلى هناك، وعلمت بأنه رأى جواد هانىء ورأته يخاطب بعض غلمانه ويشير إلى ذلك الجواد، فدخلت وجعلت تتنسم ما عساه أن يكون من أمره بعد أن يرى القهرمانة ومريم ومعهما هانىء، فشعرت بأنه لقيهما خارجتين من تلك الحجرة، وسمعت ما دار بينه وبينهما فظنته لم يلحظ اجتماع مريم بهانىء فعزمت على التصريح بذلك له.

أما عبد الرحمن فمشى يلتمس حجرة ميمونة والخدم يتناثرون بين يديه تهيباً أو يقفون له وقاراً، حتى اقترب من باب الحجرة، فتظاهرت ميمونة بأنها قلقة لإبطائه في الوصول إليها، فأسرعت إلى الباب وعلى وجهها أمارات القلق. فلما أقبل حيّته، وعيناها تنظران إليه نظر الحب والهيام، مع أنها غير عاشقة ولكنها كانت تجيد الخداع فبدت بلمعان عينيها مع ما تتكلفه من الابتسام والإطراق وكأنها متفانية في حبه. أما عبد الرحمن فكان يستلطفها كثيراً ويحب قربها، ولكنه كان ينظر إليها نظره إلى بعض جواريه، وكان من الجهة الأخرى قد عاهد نفسه على ألا يقرب النساء حتى يفرغ من تلك الحرب ويقطع نهر لوار، فضلاً عن اشتغال خاطره بمهام الفتح عن مجالسة النساء، ولذلك قلما كان يأتي إلى الخباء، وإذا أتاه أظهر لميمونة عطفاً خاصاً لغرض في نفسه لم يكاشف به أحداً. وقد تكون هي أدركت غرضه وتجاهلته متظاهرة بأنها تفعل ما يريده عفواً بلا قصد، في حين أنه لو عرف قصدها لما كان جزاؤها عنده أقل من الإعدام!

كان عبد الرحمن يعتقد مثل أهل الخباء أن ميمونة كانت من خاصة وصيفات «لمباجة» ابنة الدوق «أودو». ولذلك أبقاها عنده للانتفاع بها في الاتصال بالدوق أو بعض قواده، ولكنه كتم هذا الأمر في نفسه ولم يظهره حتى ولا لهانىء، فلما بعثت إليه في ذلك الصباح أسرع إليها متوقعاً أن يسمع منها خبراً من هذا القبيل، فلما رأى وقفتها على تلك الصورة خيّل إليه أنها تعشقه وتتفانى في خدمته، فسره ذلك، لأنه يسهل استخدامها في غرضه، فابتسم لها ودخل حتى جلس على وسادة هناك وقال: «ما الذي تريدينه مني يا ميمونة؟».

فقالت وهي تحاول الجلوس بتأدب: «أريد أموراً كثيرة يا مولاي لا أدري بأيها أبدأ». قالت ذلك وتنهدت، ورأى هو دمعتين تتساقطان على خديها وهي مطرقة، تتظاهر بأنها استحيت من افتضاح حبها له، فانخدع بذلك، ولكنه أجابها على الفور قائلاً: «أنت تعلمين ما عاهدت ربي عليه منذ عزمت على هذه الحرب».

فأسرعت في الجواب كأنها تستدرك إصلاح ما تبادر إلى ذهنه وقالت: «لا يتوهم مولاي أني أطمع في غير رؤية هذا الوجه الصبوح، ولعلي مخطئة في التطاول إلى ما لا أستحقه، فإن في خباء مولاي الأمير عشرات من أمثالي وما فيهن من تجرؤ على هذه الكلمة. أما أنا فلا أدري ما الذي جرأني عليها. فهل دلني قلبي على الصواب، أو خدعني؟ لا أدري. وعلى كل حال يكفيني أن يكون الأمير عالماً بما له في قلبي من الحب الشديد، وليس لي أن أكلفه مثله أو مثل بعضه، لأن الحب لا يكون قهراً». ثم غصت بريقها وسكتت!

وكان عبد الرحمن يعتقد أن ميمونة تحبه ولكنه لم يسمع منها مثل ذلك من قبل، فتبادر إلى ذهنه أنها اندفعت إلى العتاب غَيرة من مريم،

والغيرة تفعل العجائب، فأراد أن يتحقق هذا الأمر فقال: «هل رأيت الضيفة الجديدة؟».

فسرّت ميمونة لابتداء عبد الرحمن بذكرها وقالت على الفور: «كيف لم أرها وقد وقفت نفسي على خدمتها منذ وصولها لعلمي أن ذلك يرضي الأمير ولم أفارقها إلا ساعة في هذا الصباح لاشتغالها في غرفة القهرمانة مع الأمير هانىء!». قالت ذلك وهي تتظاهر بأنها تقوله بسذاجة وسلامة ضمير وأصغت بكل جوارحها لما عساه أن يبدو من عبد الرحمن بعد سماعه ذلك الخبر.

أما هو فأحس بشيء من الغيرة، وتذكر أن أم مريم إنما ادخرتها له، وفكر في اختلاء هانىء بمريم على تلك الصورة فلم ير له سبباً غير الحب المتبادل بينهما، فحدثته نفسه لأول وهلة بأن يمنع هانئاً من ذلك، ولكن حبه إياه ورغبته في حفظ الوفاق معه إلى نهاية الحرب ـ كما شرطا على نفسيهما ـ غلبا على ذلك الشعور، فرأى الانتظار حتى تنتهي الحرب، فإذا خرجا منها فائزين، وكان هانىء عند ما شرطه على نفسه من البسالة ساعده في نيلها، وعلى هذا تجلد وأجاب ميمونة مظهراً عدم المبالاة فقال: «ولكن هانئاً خرج الآن من عندها، وقد لقيتها مع القهرمانة، وسرني ارتياحها هنا، فأرجو أن تساعديني في تحقيقه».

فاستغربت ميمونة ما سمعته منه، وأسِفت على فشل مكيدتها وذهاب سعيها هباء منثوراً ولكنها أرادت تحقق الأمر فبالغت في التجاهل وإظهار السذاجة وقالت: «ليثق مولاي بأني فاعلة ما يريد، ولا شك أن هذه الفتاة من نوادر الخلق جمالاً وتعقلاً ورزانة، وهي خفيفة على القلب لا يستطيع جليسها إلا أن يحبها فإذا كنت لا أكرمها إكراماً لمولاي الأمير فإني افعل ذلك حباً لها، ولا عجب إذا أحبها

الأمير أكثر من سائر نسائه لأنها أهل لذلك».

فخاف عبد الرحمن إذا طال الحديث أن يبدو منه ما لا يريد التصريح به فابتدرها قائلاً: «لقد خرج بنا الحديث عن الموضوع، ما الذي دعوتني لأجله الآن؟».

فأظهرت الاهتمام وقالت: «دعوتك لأمر مهم كان يجب أن أبدأ بالكلام فيه، وربما كان فيه وحده ما يغنيني عن الأدلة على إخلاصي في خدمة مولاي. أما هذا الأمر، فهو أني علمت من بعض العيون الذين كلفتهم استطلاع أحوال العدو بعد سقوط بوردو، أن الكونت أودو ورجاله متربصون لكم في مضيق (دردون) على مقربة من هذا المكان، في طريقكم إلى نهر لوار».

ولم يكن عبد الرحمن يجهل هذا الخبر، لأن جواسيسه كانوا منبثين في كل الأنحاء وأكثرهم من أهل البلاد الأصليين ولا سيما اليهود الذين كانوا يساعدون المسلمين انتقاماً من المسيحيين وطمعاً في الغنائم. وكانت ميمونة لا تجهل اطلاعه على هذا، ولكنها تجاهلت لتظهر أنها اطلعت على السر بسعيها الخاص، وتبريراً لاستقدامها عبد الرحمن لتطلعه على حب هانىء لمريم إيقاعاً للفتنة بينهما. ولو أنها علمت أنه يجهل نبأ ترصد الأعداء له في ذلك الموضع لبالغت في كتمانه.

فسايرها عبد الرحمن مظهراً الفرح بذلك الخبر وقال: «بورك فيكِ يا ميمونة وأرجو ألا تغفلي عن مثل ذلك».

وساءها أن حيلتها لم تنجح، فرأت أن تحول سهام مكيدتها إلى هانىء، لأنه شاب لا يصبر على الكظم. وكل غرضها إيقاع الفتنة بين ذينك القائدين، ليفشل جندهما. فلما سمعت ثناء عبد الرحمن على سعيها في خدمته ابتسمت ونظرت إليه نظرة العتب والدلال

والاستعطاف ولولا رزانة عبد الرحمن وقوة إرادته لخرقت تلك النظرة صدره ونفذت إلى قلبه، فهاجب فيه لواعج الغرام وأنسته أمر الجند والقتال.

أدرك عبد الرحمن من نظرة ميمونة إليه أنها تعاتبه على وقوفه عند حدّ الثناء عليها، فسره افتتانها به رغبة في استخدامها فيما ينفع الجيش، فابتسم لها ليزيدها بذلك تفانياً في خدمته، ثم نهض وهَمّ بالخروج فنهضت ميمونة وهي تقول: «لولا علمي بالمهام الكثيرة التي تنتظر مولاي الأمير. لتوسلت إليك أن تبقى هنيهة أخرى. فهل أنت عازم على الذهاب لملاقاة العدو قريباً؟ وإذا ذهبت فهل تتركني هنا؟».

وأدرك أنها تقول ذلك تدللاً، فابتسم مرة أخرى وخرج مسرعاً يلتمس جواده ليرجع إلى المعسكر، فمشت ميمونة في أثره حتى إذا أوشك على الوصول إلى باب الخباء سمعته يقول: «مرحباً بالأمير هانىء، ألا تزال هنا؟ لماذا لم تدخل إلى الخباء؟». فازدادت ميمونة استغراباً من ذلك الترحاب، بينما تقدم هانىء وهو يلتف بعباءته وليس في وجهه وجَل ولا خجل، وقد أكبر أن يرجع إلى المعسكر رجوع الهارب بعد أن علِم عبد الرحمن بوجوده هناك. فلما أوعز إليه غلام عبد الرحمن بالذهاب إلى المعسكر وقف ورجله في الركاب لا يتكلم ولا ينتقل وخيّل إليه أن مريم تنظر إليه وتراقب حركاته، فلبث حيناً واقفاً ثم تحول عن الجواد بغتة ومشى إلى باب الخباء ليلقى عبد الرحمن، فلما علم أنه في خلوة لا يراه فيها أحد، انتظر خروجه أمام الخباء.

أما مريم فلما تركها عبد الرحمن مع القهرمانة عادت إلى التفكير في هانىء وخروجه على تلك الحالة، فأرادت أن تستطلع أمره فتحولت إلى جدار الخباء ونظرت من شق فيه فرأته يتمشى خارجه

وعباءته وسيفه يجران وراءه وهو يلاعب شاربيه ولحيته، فاختلج قلبها في صدرها سروراً وودت لو تخاطبه، ولكنها خافت من القهرمانة فاكتفت بالنظر إليه وتأمل حركاته. وبعد قليل سمعت ضجة في الخباء فعلمت أن عبد الرحمن خارج فأحبت أن تعلم ما يكون من أمره إذا لقي هانئاً، فتحولت بحيث تراهما ولا يراها أحد، لاشتغال القهرمانة وسائر أهل الخباء بوداع الأمير ، فرأت هانئاً قد مشى إلى عبد الرحمن حتى التقيا، وسمعت عبد الرحمن يخاطبه مخاطبة الأخ ويعاتبه على تخلفه ولكنه في الوقت نفسه يرحب به، بينما هانىء يدل عليه دلال الابن على أبيه، ويقول له: «بلغني أنك سألت عني».

فأجابه عبد الرحمن وهو يقترب منه حتى وضع يده على كتفه: «وهل يسأل المرء إلا عن أخيه أو حبيبه؟». قال ذلك وابتسم وأهل الخباء يسمعون، وأكثرهم سروراً بذلك مريم، وأشدهم غيظاً ميمونة. ثم مشى عبد الرحمن ويده في يد هانىء حتى ركبا إلى المعسكر وحولهما الخدم والأعوان.

وظلت ميمونة ومريم تنظران إلى ذلك الركب وكل منهما في ناحية وقلبها في ناحية، ثم عادت ميمونة إلى خلوتها وأعملت فكرتها في مكيدة أخرى، وقد أسفت أسفاً لا مزيد عليه لفشل مكيدتها الأولى!

أما مريم فقد عادت لتخلو إلى نفسها وقد ازداد اشتعال الحب في قلبها، وجلست في غرفتها تراجع في ذهنها ما دار بينها وبين حبيبها استئناساً بذكراه، ومخافة أن يكون قد بدرت منها عبارة تؤاخذ عليها. وبقيت كذلك هنيهة كأنها في عالم الخيال، ثم انتبهت للقارورة وكانت لا تزال في قبضتها فنظرت إليها وفتحتها واشتمت رائحتها فطربت لها واستأنست بها لأنها من هانىء وصبت قليلاً من الطيب

على كفها دهنت به شعرها ووجهها وكفيها فضاعت رائحة الطيب حتى ملأت الخباء.

وفيما هي في خلوتها دخلت عليها ميمونة وهي تبتسم ابتسام محب معجب بحبيبه، فقابلتها مريم بمثل ابتسامتها وقد ارتاحت إليها وتاقت إلى مكاشفتها بما شغل خاطرها من الحب ولكنها أمسكت لئلا يكون في ذلك ما يغضب حبيبها. على أنها رحبت بميمونة وتحفزت للوقوف احتفاء بها فسبقتها ميمونة إلى الحديث، فقالت وهي تهش لها: «أراك عدت من غرفة القهرمانة وقد ازددت طيباً؟».

وكانت القارورة ما زالت في قبضتها، فضحكت وبدا الحياء في وجهها وبادرت إلى القارورة فخبأتها في جيبها ولم تحر جواباً، فأدركت ميمونة أن بين تلك القارورة وهانىء علاقة، فعمدت إلى استكشاف سرها منها فقالت: «لقد زادك الحياء طيباً يا حبيبتي. لعل الطيب من ضيفك البطل الصنديد الأمير هانىء؟ أرجو ألا يكون من سواه. وثقي أنك لو خيّرت أن تنتقي لك حبيباً من بين كل رجال العالم، لما وقع اختيارك على خير منه».

فأدركت مريم أن ميمونة مطلعة على سرها، ولكنها تجاهلت وقالت: «كيف تحكمين على الأمر قبل التثبت منه، كيف عرفت ذلك؟».

قالت وهي تضحك وتقترب منها: «عرفته من مصور وثيق، وتحققته من قرائن الأحوال، وإذا كنت تنكرين ذلك عليّ، فإن ملامحك تشهد عليك، ولا ألومك على التستر لأن الحب يحلو بالكتمان، وقد كان يجدر بي أن أظهر اقتناعي بإنكارك، ولكنني لم أفعل شفقة عليك وحباً لك».

فلما سمعت مريم كلامها استغربت تلميحها بالشفقة ولم تفهم

مرادها، فرفعت بصرها إليها وقالت: «لم أفهم مرادك من الاشفاق عليَّ، فهل هناك ما يبعث على الشفقة؟ أفصحي».

فقالت: «لا أقول شيئاً قبل أن تثقي بحبي لك وغَيرتي على مصلحتك».

قالت: «أنت تعلمين أني أحببتك وقد وثقت بك من أول نظرة ولا سيما وقد خبرت حبك لي، فلا حاجة إلى برهان».

قالت: «صدقت يا حبيبة، إني أشعر بإخلاصك، ولكنني أخاف إن قلت لك قولاً أن تحمليه على غير محمله. ومع ذلك فإني أفعل ما تدعوني إليه محبتك، نعم ليس هناك ما يدعو إلى القلق الكثير، ولكنني اختبرت هؤلاء العرب واطلعت على سجاياهم وفي مقدمتها أن غَيرتهم شديدة، وأنت تعلمين أنك هنا في خباء الأمير عبد الرحمن، وأن كل من في هذا الخباء من نسائه، فيجدر بك أن تحذري أن تظهري أمامه ميلك إلى الأمير هانىء، وأظن الأمير هانئاً نفسه يحرص على ذلك، على أني لا أقول هذا بناء على قول سمعته فإني أعرف حب الأمير عبد الرحمن لهانىء، ومراعاته جانبه، حتى إنه لا يمنع عنه شيئاً يريده، لأن عليه معتمده في هذه الحرب، وهو يمينه التي يناضل بها، ولكني أردت تنبيهك لعلمي أن هائناً يريد ذلك منك وإن كان لا يظهره لك أنفة وترفعاً، وأما أنا فقد خبرت عادات القوم وآدابهم في هذا الشأن، ولعلك سمعت عن منزلتي عند الأمير عبد الرحمن، وإني أقرب نسائه إليه، وهو يعتمد عليَّ في كثير من المهام، فأيقني إذن بأنه لا يفعل إلا ما يرضيك».

فقبلت مريم النصيحة بإخلاص، وازدادت وثوقاً بميمونة، وسهل عليها مكاشفتها بما في قلبها فالتفتت إليها وقد انبسطت نفسها، وقالت: «أشكرك على ذلك يا سيدتي وسأعمل حسب

إشارتك، ولا ريب أنك عالمة بكل ذلك وأنت من أكثر نساء هذا الخباء ذكاء ولطفاً».

فاكتفت ميمونة من ذلك الحديث بما وصلت إليه، وأرادت الانتقال إلى موضوع آخر فقالت: «ذكرت لك الطيب فلم تجيبيني، أين القارورة؟».

فمدت مريم يدها وأخرجت القارورة ودفعتها إلى ميمونة ففتحتها واشتمت رائحتها وهي تقول: «لم أشتم في عمري مثل هذا الطيب! إنه طيب خاص ليس عند أحد من أهل هذا الخباء مثله». ثم أرجعت القارورة ولم تمس ما فيها، فقالت مريم: «تطيبي بشيء منه فإنك أهلٌ لذلك».

فامتنعت ميمونة وقالت: «لا يجوز لأحد سواك أن يمس هذا الطيب لأنه هدية خاصة لك». ودفعت إليها القارورة وهي تبالغ في الامتناع، فاستحسنت مريم تمنعها وازدادت وثوقاً بصدق مودتها، ففتحت لها قلبها وصارت تستأنس بقربها وتميل إلى مكاشفتها بعواطفها، وميمونة تعمل فكرتها لاستخدام ذلك عند الحاجة».

وصل عبد الرحمن وهانىء إلى المعسكر وحولهما الفرسان، وكان كل منهما يفكر في مريم، فهانىء يتذكر ما دار بينه وبينها، وما آنسه من مجاملة عبد الرحمن على حين أنه كان يتوقع امتعاضه، أما عبد الرحمن فكان يفكر فيما دار بينه وبين سالمة في شأن مريم، وتلميحها بأنها ستكون له بعد الفراغ من الحرب لسر لم تصرح له به، وتذكر إعجابه بمريم وما هي عليه من الجمال والهيبة، ثم ما ظهر له من الحب المتبادل بينها وبين هانىء. فلما بلغت تصوراته هذا الحد شعر بغيرة شديدة، ولكنه عاد إلى التفكير في أمر الحرب وشدة احتياجه إلى هانىء، وتوقف نجاح الغزو على اتفاقهما. ورأى أن هذا

الاتفاق لا يتم إلا بارتياح هانيء. وارتياحه لا يكون إلا بحصوله على مريم. فلما تمثل له ذلك عاد إلى تعقله وسعة صدره فهان عليه إرضاء هانيء، وخاف أن يكون في سكوته في أثناء الطريق باب للشك ففتح الحديث قائلاً: «ألم تحمد الله على انتصارنا في هذه الحرب يا هانيء؟».

قال: «لقد حمدته حمداً كثيراً، والفضل في الانتصار راجع إلى بسالة الأمير عبد الرحمن وتدبيره».

قال: «بل الفضل فيه للأمير هانيء قائد فرساننا، بل أرى الفضل فيه لما وفقنا إليه من الوفاق المتبادل الذي أرجو أن يبقى إلى النهاية».

قال: «وهذا ما أتمناه، وإذا تم لنا الفتح كان فيه الفخر للعرب كافة، إذ نكون قد فتحنا لهم بلاداً واسعة، يحكمون أهلها، ويجبون خراجها، وينشرون الإسلام فيها».

قال: «وأظن سرورك بفتح (بوردو) يضاهي سرورنا جميعاً بما فتحناه وسنفتحه من البلاد!»، قال ذلك وابتسم، فأدرك هانيء تعريضه بمريم فضحك وقد انشرح صدره وقال: «لا أستطيع إنكار ذلك أيها الأمير لأنه ظاهر في كل جارحة من جوارحي».

قال: «إني أُسَرّ بكل ما يسُرّك، وثق إني عون لك على كل ما تريده، ولكنك تعلم أني عاهدت الله على ألا أقرب النساء قبل أن أفرغ من هذه الحرب، أو أن نقطع نهر لوار على الأقل، فهل أنت على هذا الرأي؟».

ففهم هانيء مراده فقال: «نعم إني أعاهد الله على هذا أيضاً».

وأحس هانيء من تلك الساعة بثقل أزيح عن صدره واطمأن

قلبه، وشعر بميل شديد إلى مكاشفة مريم بما دار في شأنها بينه وبين عبد الرحمن. وذلك طبيعي في المحبين فإنهم يتلذذون بمكاشفة بعضهم بعضاً أخبار الناس، فكيف بما يتعلق بهم، وتحقيق أمانيهم، وعلى الأخص إذا اؤتمن أحدهم على سر وطلب إليه كتمانه، فإنه يزداد ميلاً إلى مشاطرة حبيبه الاطلاع عليه، كأنه يعد ذلك نوعاً من إكرامه!

ثم عاد الأميران إلى السكوت مدة والركب ماش حتى دخلوا المعسكر، وكان الجند قد فرغوا من اقتسام الغنائم وهم فرحون بما نالوه منها، لا سيما البرابرة. فلما وصلا إلى خيمة الأمير عبد الرحمن، دخلاها، ثم صفق عبد الرحمن فجاءه بعض الغلمان فقال له: «ادع الأمراء إليَّ».

فلما خرج الغلام التفت عبد الرحمن إلى هانىء وقال له: «قد علمت من أخبار الجواسيس وغيرهم أن طاغية اكتانيا الكونت (أودو) معسكر بجندهم في مصيق (دردون) على بضع ساعات من هذا المكان، فينبغي لنا أن نبادر إليهم قبل أن يتأهبوا للدفاع، فإذا غلبناهم وقتلنا أميرهم ذهب عنا نصف العناء في هذا الفتح، أو قل العناء كله، ولم يبق مَن يقف في سبيلنا إلى نهر لوار. فماذا ترى؟».

قال: «أرى أن نبادر إلى الحرب والجند في نشوة النصر».

قال: «سنشاور الأمراء متى حضروا، ولا أظنهم إلا موافقين على الزحف، فنرحل برجالنا ونترك الأخبية في مكانها وعندها بعض الحامية والغنائم، فإذا هزمنا الافرنج بإذن الله حملنا نساءنا وعيالنا وغنائمنا، وسرنا إلى (تورس) على نهر لوار».

وبعد قليل جاء الأمراء وهم بضعة عشر أميراً، فيهم العربي والبربري والشامي والمصري والنبطي وغيرهم، وفي جملتهم الأمير بسطام. فعرض عبد الرحمن عليهم رأيه وأيده هانىء، فوافقوا جميعاً

على الرحيل صباح الغد، على أن يتركوا النساء في الأخبية حيث هنّ، ثم التفت عبد الرحمن إليهم وقال لهم: «أنتم تعلمون أننا سائرون لمحاربة هؤلاء الافرنج في معسكرهم، والمسافة قريبة، وهم متحصنون في جبالهم فينبغي أن نسير إليهم خفافاً، ولا يخفى عليكم ما قد صار إلى رجالنا من الغنائم في أثناء الفتوح التي وفقنا إليها منذ خروجنا من الأندلس، وهي ثقيلة، حتى لقد ثقل على الرجل حمل غنائمة وحدها بلا قتال، فكيف إذا اضطر إلى الهجوم والركض؟ ولهذا أرى أن تترك الغنائم في هذا المعسكر بقرب الأخبية فتبقى هناك هي والنساء، ونجعل معها حامية من رجالنا، فإذا بلغنا من عدونا ما نريده أضفنا إليها ما نغتنمه منهم». قال عبد الرحمن ذلك وهو يتوقع معارضة بعضهم لحرصهم، ولأنهم لم يأتوا إلى تلك الحرب إلا رغبة في المال، وأدرك هانىء ذلك أيضاً فقال: «إن الأمير مصيب في رأيه، وما أظن الأمراء إلا موافقين عليه، لأننا نخشى إذا جاهد رجالنا وهم مثقلون بالغنائم أن يعجزهم حملها، فيقصروا في ساحة الوغى، ولا يخفى عليكم ما يترتب على ذلك من الفشل».

وكان عبد الرحمن يخشى الاعتراض خصوصاً من الأمير بسطام، وكان في أثناء كلام هانىء يتفرس في وجوه الأمراء، فوجد التردد ظاهراً في وجه بسطام فاستأنف الكلام قائلاً: «والذي أراه أن نعهد في حراسة الغنائم إلى الأمير بسطام ومَن يختارهم من رجاله وغيرهم».

فوقع رأيه موقع الاستحسان عند الجميع، فوافقوا عليه وخرجوا للعمل به، ليأمروا رجالهم بالتأهب للرحيل صباح الغد.

فذهب هانىء إلى خيمته، ولم ينم تلك الليلة لما خالج أفكاره من الهواجس في شأن مريم على أثر ما سمعه من عبد الرحمن، حتى

حدثته نفسه أن يطير إليها في ذلك الليل ويكاشفها بما دار بينهما في شأنها، ويخبرها بعزمهم على الرحيل إلى محاربة الافرنج ويصبرها حتى الرجوع. وقد زاده رغبة في الذهاب إليها أنه فارقها ولم يتمكن من توديعها.

ـ ٧ ـ
مكيدة جديدة

قام المسلمون في الصباح للصلاة، ثم نفخ في النفير فتأهبوا للمسير بعد أن قوضوا الخيام ولم يتركوا منها إلا ما وضعوا فيه غنائمهم، ومعها الأمير بسطام وبعض رجاله ونفر من رجال القبائل الأخرى، وساروا وبينهم الرماحة والرماة، وهانىء يقود الفرسان.

وبعد المسير بضع ساعات أشرفوا على مضيق أخبرهم الجواسيس أن «أودو» ورجاله متحصنون خلفه، فنزل المسلمون في سهل بالقرب من ذلك المضيق، وترجل الفرسان وسرحوا خيولهم للعلف والراحة ريثما يقومون بالهجوم، وقد أقاموا الحراس حول المعسكر وبثوا سراياهم يستطلعون أحوال أعدائهم ومناعة مواقعهم ليعلموا من أين يهاجمونهم، وذهب هانىء للاستراحة في خيمته.

وفي المساء جاءت الطلائع بأن الافرنج مقيمون في الجبال وهم كثيرون، وقد تحصنوا وأقاموا لا يبدون حراكاً، فاجتمع أمراء المسلمين وتشاوروا في الأمر فرأوا أن يتربصوا ليروا ما يبدو من الافرنج.

وبات هانىء تلك الليلة وقد عادت إليه هواجسه، وعاد إلى التفكير في مفارقة المعسكر بضع ساعات ولا سيما ألا خطر على الجند في غيابه، على أنه ما زال متردداً في الذهاب خوف الفشل وحياء من عبد الرحمن، فأصبح في اليوم التالي وقد تراكمت عليه الهواجس وهو

يفكر في حاله وحال مريم وحال الجند. وبينما هو يتمشى في سهل خارج المعسكر رأى رجلاً بلباس عربي قادماً إليه من أقصى البر وهو يشير إليه فوقف، فلما دنا الرجل منه تفرس هانىء فيه فإذا هو ملثم فناداه، فمد الرجل يده إلى جيبه وأخرج منديلاً سلمه إليه. فلم يكد هانىء يأخذ المنديل حتى شم منه رائحة مريم ـ عرف ذلك من طيبها الذي أعطاها إياه بالأمس فصاح في الرجل: «مَن أنت وما خبرك؟».

فقال: «إن هذا المنديل ينبئك عني، إن صاحبه في حاجة إليك على عجل». قال ذلك وسار يعدو في عرض البر، فبهت هانىء ثم انتبه لنفسه وصاح في الرجل أن يقف فلم يلتفت إليه، فوقف هنيهة وهو يفكر فيما عسى أن يكون سبب الدعوة، وأسرع إلى خيمته فركب جواده والتف بعباءته وسار يلتمس الخباء دون أن ينبىء أحداً بمسيره لعلمه بأنه سيعود قبل انقضاء النهار.

وركض هانىء جواده فمضى لا يلتفت يميناً ولا شمالاً حتى وصل إلى الخباء وقد مالت الشمس عن خط الهاجرة، وتبلل هو وجواده بالعرق. ثم ترجل ودخل تواً إلى خباء الأمير عبد الرحمن واستدعى القهرمانة فجاءت وهي تتوكأ على وركيها وتمشي الهوينا. وحالما وقع نظرها عليه ابتدرته قائلة: «أين مريم؟».

فبغت لسؤالها وقال لها: «أتسألينني عن مريم وأنا إنما جئت لأسألك عنها، أين هي؟».

قالت: «هي عندك. ألم تبعث في طلبها هذا الصباح؟».

قال: «أنا؟ بعثت في طلبها؟ أين هي؟ قولي إن الوقت لا يسمح بالمزاح!».

فقالت وقد ظهرت الدهشة في وجهها وامتقع لونها: «أظنك أنت المازح! ألم تبعث إليها هذا الصباح رسولك ومعه جوادك

وعباءتك وخوذتك؟».

فصاح فيها وقد اشتد غضبه: «كلا لم أبعث أحداً، وهذا جوادي معي، وهذه عباءتي! تبصري فيما تقولين؟ وقولي الحق وإلا قطعت رأسك بهذا السيف!». قال ذلك ووضع يده على قبضة سيفه، فخافت القهرمانة وتحيرت، وارتج عليها من الخوف والدهشة وقالت: «تمهل يا بني لأقص الخبر عليك. جاءنا في هذا الصباح رجل ظننته من رجالك، على جواد ومعه جواد آخر أدهم لم نشك أنه أدهمك وعليه عباءة وخوذة، وأخبرني بأنك تطلب إرسال مريم معه إلى الأمير عبد الرحمن لأمر مهم خاص بأمها، ودفع إليَّ هذا الكيس - ومدت يدها وأخرجت كيساً فيه دراهم - فامتنعت في بادىء الأمر ولم أطعه، فألح عليَّ وأراني الجواد والعباءة، وقال لي إنك تطلب مريم لغرض مستعجل يتعلق بالحرب، وإنك بعثت لها جوادك لتركبه إلى هناك، وقد ذكر لي علامة لا يعرفها أحد سوانا وهي قارورة الطيب، وقال إن علامة صدقه هي أنك اجتمعت بمريم عندي وأعطيتها إياها، فلم يسعني إلا تصديقه، ولاسيما أنه جاءني كذلك بعلامة من الأمير عبد الرحمن لا يعرفها سواي ، وقد حرصت لشدة خوفي على مريم - رغم كل هذا - على أن أرسل معها أحظى نساء الأمير عبد الرحمن عنده وأوصيتها بها!».

وكان هانىء يسمع كلام القهرمانة وهو يرتعد من شدة الغضب، فلما تحقق ذهاب مريم قال: «ومن هي التي أرسلتها معها؟».

قالت: «هي ميمونة الافرنجية، أظنك تعرفها؟».

فقال: «نعم أعرفها، وإلى أين ذهبوا؟».

قالت: «لما تحققت صدق الرسول ورأيت مريم راغبة في

الذهاب، أذنت لها فيه، فركبت الجواد الأدهم وركبت ميمونة جواداً آخر، ومضوا نحو المعسكر».

فوقف هانيء وهو ينتفض من شدة التأثر، والهقرمانة واقفة بين يديه وقلبها يخفق خوفاً وقد أخذت تخفف غضبه قائلة: «لا بأس عليها يا بني، إن ميمونة تحبها حباً شديداً وأظنها تحرص عليها كثيراً، اجلس وخفف عنك. لا بأس عليها».

فلم يلتفت هانيء إلى ثرثرتها. وفكر فيما سمعه، فتذكر أن القهرمانة ذكرت أم مريم، فظن للأمر صلة بسر هذه الأم، وخيل إليه أن سالمة احتالت تلك الحيلة لاسترجاع ابنتها. ولكنه تذكر القارورة فرأى أمرها لا يؤيد ذلك الظن، فلم يدر ما يقول، ولما تشابه الأمر عليه رأى أن يبادر إلى المعسكر للبحث عنها، ثم تذكر أن الأمير بسطاماً هناك فتبادر إلى ذهنه أنه هو الذي احتال هذه الحيلة لاختطاف مريم منه، لأنه لم يزل عالقاً بها من يوم الفتح، فالتفت هانيء إلى القهرمانة وقال: «تقولين أنهم ساروا نحو هذا المعسكر؟». وأشار إلى معسكرهم بالأمس.

قالت: «نعم يا مولاي».

فأسرع إلى جواده فركبه وحول رأسه نحو ذلك المعسكر، ثم همزه وأطلق له العنان، وقد اعتزم قتل بسطام إذا رأى مريم عنده.

وكان في المعسكر مضارب قليلة للغنائم، حولها الحراس من رجال بسطام وغيرهم، وما كاد يُشرف عليهم حتى رآهم يختصمون ويتضاربون وقد علا ضجيجهم، ثم تقدم إليه بعضهم يستغيثون، فصاح فيهم: "ما الخبر؟". قال أحدهم: "نشكو إليك جور الأمير بسطام، فإنه سلط رجاله فاستأثروا بالغنائم، وأخذوا بعض أسهم رجالنا فأضافوها إلى أسهمهم، ولم يسمع هو لشكوانا!».

فازداد هانىء غيظاً وصاح: «أين بسطام؟ أين هو؟».

ولم يتم كلامه حتى خرج إليه بسطام وهو يمشي الهوينا ويترنح ترنح السكران، فلما رآه هانىء صاح فيه: «ما هذه الجرأة على أموال المسلمين؟ أيأتمنك الأمير على الغنائم فتستأثر بها، وتسطو عليها. لقد صدق القائلون أنك لست مسلماً!».

فقهقه بسطام وهو يمسح لحيته من فتات طعام تساقط عليها وقال: «ما لك وللغنائم؟ ألم تشغلك تلك النصرانية عنها؟ دع الحرب واذهب إلى الخباء فإنك أولى بمعاشرة النساء، وسترى عاقبة غيّك قريباً!».

فحمي غضب هانىء من هذه السخرية، ولم يتمالك رشده، فاستل حسامه وأهوى به معتزماً قطع رأس بسطام، ولكن هذا انحرف عن الضربة فنجا، وكاد هانىء يقع عن جواده فازداد حنقاً وانقض عليه انقضاض الصاعقة، فتوسط بعض الرجال بينهما، وهانىء لا يبالي بهم، وكادت روح بسطام تزهق لولا أنه فرّ إلى إحدى الخيام واختبأ فيها، فهَمّ هانىء بأن يترجل ويتبعه، فأحاط بعض الرجال بجواده وتوسلوا إليه أن يغمد سيفه حقناً لدماء المسلمين، فرجع إلى رشده، ووقف يرتجف لفرط تأثره، وكان ذكر الإسلام قد خفف غضبه، وسكّن ثائرته، ولا سيما أنه تصور ما قد ينجم عن قتل بسطام من الخصام بين فرق الجند، فأمسك عن مطاردة بسطام مكتفياً بفراره. ثم عاد إلى الأمر الذي جاء لأجله، وهو البحث عن مريم هناك، فجعل ينظر في الخيول الواقفة حول الخيام، فلم يرَ بينها جواداً أدهم ولا رأى هناك نساء، فسأل بعض الوقوف ممن يثق بهم من رجاله عمن في الخيام فقالوا له: «ليس فيها غير الغنائم!». فقال: «وهل لم يمر بكم ركب على أفراس ومعهم نساء؟». فقالوا: «كلا.

إننا هنا منذ الأمس ولم نرَ أحداً».

فوقف في حيرة، وقد عادت إليه هواجسه في شأن اختفاء مريم، ثم التفت إلى ما يحيط به من السهل وأكثره عارٍ من الأشجار إلا بعض التلال الدالية من الكرم وبعض أغراس الزيتون، فلم يرَ أشباحاً فازدادت حيرته وحدثته نفسه بأن يعود إلى «دردون» عسى أن يجد مريم هناك.

وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة والجواد قد أنهكه التعب. فخاف إذا ركضه أن يقصر في الطريق، وإذا لم يستحثه ألا يصل المعسكر قبل العشاء، على أنه لم يجد بداً من العودة به فحول شكيمته وتوجه نحو «دردون».

كانت مريم قد خرجت في ذلك الصباح ومعها ميمونة، فركبت ذلك الجواد الأدهم وتزملت بالعباءة وعلقت الخوذة بالسرج. وساقت الجواد في أثر الرسول، وميمونة على جواد آخر بجانبها تظهر لها استغرابها أمر هذا الطلب العاجل، وتشجعها متظاهرة بأنها لم تصحبها إلا لكي تكون في خدمتها وحراستها من كل خطر. وكانت مريم تستحث جوادها وأفكارها تائهة في عالم التصورات، وصورة هانىء تتخلل كل خيال يمر في ذهنها!.

وبعد مسير ساعة أدركوا المعسكر القديم إلى يسارهم، وكانت مريم تحسب نفسها سائرة إليه لأنها لم تكن عالمة بانتقال الجند إلى «دردون» فلما رأت الخيام قليلة سألت الرسول عن مقر الجند وعن المكان الذي هم ذاهبون إليه فقال: «إن الجند انتقلوا إلى «دردون» لملاقاة الافرنج هناك، وسيعودون إلى هنا. وأما نحن فسائرون إلى مكان على مقربة من "دردون" أمرني مولاي الأمير أن أوصلك إليه، فإما أن يكون هو في انتظارك هناك، وإما إن يأتي بعد وصولك».

فصدقت مريم قوله وطارت نفسها تسبقها إلى لقيا الحبيب. ثم ساروا بضع ساعات أخرى تاركين (بوردو) إلى يسارهم حتى وصلوا إلى بناء منفرد تداعت جدران سوره فدخل الرسول أمامهم من باب السور إلى حديقة مهملة، لا يخفى على المتأمل فيها أنها من حدائق أهل اليسار، وأنهم غادروها منذ أسابيع. فترجلتا ودخلتا الحديقة، وقالت ميمونة للرسول متظاهرة بالغيرة على مريم: «إلى أين أنت سائر بنا؟ إننا على مقربة من (دردون) على ما أظن. ولمن هذا البيت الذي أدخلتنا إليه؟ إحذر أن تكون مخطئاً».

فوقف الرجل متأدباً وقال: «لست مخطئاً يا مولاتي إننا في قصر أحد أمراء اكيتانيا وقد هجره فراراً من جند المسلمين. وفي هذه المزارع قصور كثيرة مثله هجرها أهلها وبقيت غنيمة للمسلمين».

فقالت: «وأين الأمير هانىء؟».

قال: «يظهر أنه لم يأت بعد لأني لم أرَ أثراً يدل على مجيئه، ولكنه لا يلبث أن يأتي سريعاً». قال ذلك ومشى بهما حتى أدخلهما البيت من باب كبير كان مفتوحاً، فلم يجدوا فيه إلا بعض المقاعد الضخمة مما لا يستطاع حمله في أثناء الفرار، وقد خيّم عليه السكون إلا ما كان يتردد من صدى خطواتهم وصهيل الجوادين، وكانت مريم حين وصلت ولم تجد هائناً ولا أثراً يدل عليه قد ساورها الشك في الأمر، ولكنها سكتت لترى ما يكون، مطمئنة إلى وجود ميمونة معها وإلى إخلاصها لها وكونها أكثر معرفة منها بتلك البلاد وأحوال الجند، ولم يخف على ميمونة ما يخالج أفكار مريم فتظاهرت بالدهشة أيضاً، ومضت تسأل الرسول عدة أسئلة، حتى وصلوا إلى قاعة ليس فيها إلا مقعدان قديمان فجلست ودعت مريم إلى الجلوس، وأخذتا تتفرسان في المكان في حيرة وارتباك.

ومضت برهة وهما ساكتتان، ومريم تتوقع قدوم هانىء، وتنظر إلى الخارج من نافذة تطل على الحديقة، بينما تركهما الخادم الذي أوصلهما ولم يعد.

وأخيراً تظاهرت ميمونة بالخوف وقالت: «ويلاه أين نحن؟ ماذا جرى لنا؟ وأين ذهب الرسول الذي جاء بنا؟ يا ليتنا اصطحبنا بعض الصقالبة من خصيان الخباء!». ثم صفقت كأنها تستقدم الرجل فلم تسمع جواباً غير الصدى.

وسرى الخوف إلى نفس مريم، حين رأت ميمونة خائفة، ووقفت وقد ظهر الاهتمام في وجهها وقالت: «هل خدعونا؟ أين الرجل؟ كيف يتركنا هنا ويذهب؟ وإلى أين ذهب؟». وكان الوقت قد قارب الأصيل وهما لم يتذوقا طعاماً، ولكن مريم شغلت عن الجوع بما هما فيه.

وفيما هما كذلك سمعتا صوت صهيل وقرقعة لجام، فالتفتت مريم إلى الخارج فرأت فارساً وفي ركابه رجلان ملثمان، وهو يركض جواده ركضاً عنيفاً حتى وصل إلى باب البستان فترجل، فظنت لأول وهلة أنه هانىء فخفق قلبها ووثبت تجري إلى الحديقة غير منتبهة لاختلاف لباس الفارس القادم وجواده عن لباس هانىء وجواده، فلما صارت على مقربة منه، وجدته رجلاً بديناً يترنح في مشيته، وسيفه إلى جانبه، وعباءته مسترخية وراءه، وما كادت تتبين وجهه حتى عرفت أنه بسطام، فاضطربت واصطكت ركبتاها وكاد الدم يجمد في عروقها، والتفتت إلى ميمونة فرأت الدهشة ظاهرة في وجهها ولكنها تصدت لمقابلة بسطام وقالت له: «ما الذي تريده أيها الأمير..؟».

فأجابها وهو يلهث من التعب والرجلان يمشيان وراءه: «وما

الذي يعنيك من هذا الأمر؟».

قالت: «ليس في هذا المكان رجال، ولا أحد يهمكم أمره».

قال: «إنما جئنا في طلب النساء!. أليست مريم النصرانية هنا؟». قال ذلك وهو يضحك ويمد يده إلى وجه مريم، فنفرت وأعرضت، بينما أمسكت ميمونة بيد بسطام وقالت: «لا تفعل أيها الأمير ما لا يليق بالأمراء واعلم أنك إذا مسستها عرضت نفسك لغضب أمير جند المسلمين».

فصاح بسطام فيها صيحة شديدة وقال: «من أقامك ناصحاً أو نذيراً؟ وما شأنك أنت وأنا لا أكلمك؟». ثم مشى نحو مريم فاعترضته ميمونة وقبضت على زنده ولكنه دفعها فوقعت على الأرض، ثم التفت إلى الرجلين وقال: «قيدوا هذه المرأة واحبسوها واقفلوا الباب عليها!».

ولم يتم قوله حتى انقض الرجلان على ميمونة، وقيدوا يديها ورجليها وهي تصيح وتستغيث وتحاول التخلص، ومريم تهم بإنقاذها وبسطام يمنعها دون أن يمسها بيده وهو يقول لها: «لا تخافي يا جميلة، إننا لن نصيبها بسوء، وإنما أردنا إيقافها عند حدها!». فلما فرغوا من تقييدها جرها الرجلان إلى غرفة هناك، فالتفتت إلى بسطام وقالت: «لا بأس عليَّ مما فعلتموه بي، ولكنني أتوسل إليكم ألا تمسوا هذه الفتاة بسوء!».

ثم أدخل الرجلان ميمونة إلى الغرفة وأغلقا الباب، فسألتهما بصوت خافت: «أين عدلان؟».

فتقدم أحدهما وأزاح اللثام عن وجهه فبانت سحنته، ونظر إليها بعينه الحولاء نظرة المحب الولهان وقال: «أنا عبدك عدلان، أرجو أن أكون قد أديت مهمتك كما تشائين!».

قالت وهي تبتسم: «بورك فيك. وأين هو هانىء وماذا فعلت به؟».

قال: «فعلت ما أمرتني به يا سيدة النساء، وإنما أرجو أن تكوني راضية عنّ عبدك وأسير هواك، وتتحققي أنك لا تجدين مَن يصوع بأمرك وينفذ مآربك سواي!».

فابتسمت ابتسامة أخرى ونظرت إليه نظرة تنم عن الرضاء وقالت: «وأين هو هانىء الآن؟».

قال: «أظنه لا يزال تائهاً في هذه الصحراء يفتش عن حبيبته!».

قالت: «وكيف أوصلت إليه المنديل؟».

قال: «بعد أن أتيتك بالجواد الأدهم أمس ووكلت به هذا البطل (وأشار إلى رفيقه) وأفهمته كيف يخدع القهرمانة كما أرشدتني، ذهبت بالمنديل إلى معسكر المسلمين فوصلت إليهم صباحاً. وكان من حسن حظ مولاتي وتوفيقها أن رأيت الرجل خارجاً يتمشى، فأسرعت نحوه ودفعت إليه المنديل وأنا ملثم، فسألني عن غرضي فأخبرته أن صاحبة هذا المنديل تدعوه إليها حالاً، ثم تركته واختبأت في مكان أراه منه ولا يراني، فرأيته أسرع إلى جواده فركبه وساقه إلى الخباء، فلما تحققت ذهابه أسرعت من طريق آخر إلى معسكر مولاي الكونت (أودو) فأخبرته بالواقع كما أمرتني، وحرضته على مباغتة المسلمين وقائد فرسانهم غائب فأطاع ونادى رجاله وهجموا على المسلمين وهم في غفلة، وما أظنهم إلا قد ذعروا وتقهقروا فاستولى الافرنج على معسكرهم!».

وكان عدلان يتكلم وميمونة تراقب حركاته، وكلما قال عبارة تبتسم له وتبدي ارتياحها وهو يتكلم بنشاط وسرور. فلما انتهى قالت له: «وماذا صنعت مع بسطام؟».

قال: «أتيته وهو في المعسكر القديم وتظاهرت بأني متطوع لخدمة تسره، ثم قلت له: «إن مريم خرجت من الخباء إلى هذا المكان، وإني سأذهب به إليها فيبلغ منها ما يشاء على شرط أن يحافظ عليك، فأثنى عليّ ودفع لي هدية ثمينة، وكنت أتوقع أن يلتقي هانىء به فيقتتلا فيقتل أحدهما الآخر، فيكمل توفيقك وتتم رغائبنا بانقسام هذا الجند، فجاء هانىء بعد ذهابه إلى الخباء ولم يجد مريم فيه فظن بسطاماً اختطفها، فلما لقيه في الخيام تخاصما وهَمّ هانىء بأن يفتك به ولكن بسطام هرب منه إلى خيمته وبقي بها حتى ذهب، فحرضته على الإسراع إلى هنا، ثم سرت في ركابه، والتقينا في أثناء الطريق بأخي هذا وكان قد جاء يستعجلنا، فبدلت عباءته بعباءتي وجئنا معاً في ركاب بسطام».

فقالت ميمونة: «بورك فيك من خادم أمين. وإذا تحققت أمنيتنا بفشل جند العرب دعوتك بلقب آخر!». قالت ذلك وغمزت بحاجبيها وهي تنظر إليه بدلال، فأشرق وجهه وجعل ينظر إليها وقلبه يطفح سروراً لما آنسه من تلطفها، وتوقعه قرب تحقق آماله في حبها.

لما رأت مريم ميمونة تُساق إلى تلك الحجرة مقيدة الأطراف، وسمعتها تتضرع إلى بسطام لأجلها ازدادت ثقة بإخلاصها، ولكنها كانت في شاغل بنفسها، إذ توقعت فتك بسطام بها، ولا سيما أن رائحة الخمر كانت تفوح منه، وقد احمرت عيناه واكمدّ لون وجهه، وتمنطق بجلد عريض غرس فيه خنجراً ضخماً وضع يمينه على قبضته ويسراه على قبضة السيف، فتمثل لمريم شيطاناً رجيماً، فاستعاذت منه بالله وتضرعت إليه تعالى في سرها أن ينجيها من شره، وكانت لا تزال متزملة بالعباءة الحمراء التي تعتقد أنها عباءة هانىء فوق ردائها

الأسود، وعلى رأسها خمار أسود يغطي جبينها إلى الحاجبين وقد تلثمت به من أسفل الذقن، فبدا وجهها مستديراً وقد تلألأت عيناها وزادهما الانقباض هيبة.. ومع كل ما شاهدته من أسباب الخوف لم تخر عزيمتها، ولعلها كانت في لقائها الأول لبسطام أكثر اضطراباً منها الآن، ولا سيما بعد أن حبس ميمونة مقيدة ولم تبق إلا هي وحدها معه في ذلك البيت الواسع!

ونظر إليها بسطام نظرة تفيض بالإعجاب، ثم دعاها إلى الجلوس على كرسي هناك كأنه يريد أن يخاطبها بلطف، فجلست وجلس هو على كرسي آخر، وقد التف بعباءته حتى غطت السيف والخنجر، وقال لها بلسان بربري عربي مستعجم: «لا تخافي يا مريم.. إني لا أريد بك سوءاً لأني أحبك حباً شديداً. ويلوح لي أنك خدعت بذلك الغلام العربي، فانخدعت بأقواله، على أنك نصيبي وحدي من هذه الحرب، ولو شئت أن أمنعه منك لمنعته من أول ساعة، ولكنني تلطفت بك ورفقت بمزاجك، والآن وقد وقعت بين يدي فأطيعيني!».

وكانت مريم تسمع كلامه وأطرافها ترتعد لفرط تأثرها وهي تفكر في مجيئه إلى هناك، هل كان على موعد أو أنه جاء اتفاقاً؟ وأحبت أن تماطله في الحديث ريثما يأتي هانىء لاعتقادها أنه قادم فقالت: «دع عنك ذلك يا أمير، فإن لكل شيء وقتاً، وأنتم الآن في حرب، فبعد انقضائها يأخذ كل ذي حق حقه».

قال: «تماطليني بالمحال، ولا تظني هانئاً بالغاً منك شعرة فقد صرت في قبضة يدي ولن يخرجك منها أحد، فالأفضل لك أن تطيعيني وإلا فإني بالغ منك ما أريد قهراً!».

فلما سمعت تهديده عظم عليها الأمر، ولكنها رأت أن تستمر

في مماطلته ريثما يأتي هانىء فقالت: «لا أرى داعياً للتهديد أيها الأمير، فإن من يعد نفسه أميراً ويفتخر بشجاعته وشدة بأسه لا يليق به أن يهدد فتاة بمثل هذه العبارات، ولا سيما في مثل ما أنتم فيه من الجهاد!».

فضحك بسطام ضحكة الاستخفاف وقال: «نعم أنا أمير شجاع، وساحة الوغى تشهد لي بذلك، ولولاي لم يكن لذلك الغلام ذكر بين الرجال، ولا كان لأولئك العرب راية تخفق في هذه البلاد. فإذا علمت ذلك فاقلعي عن ذكر سواي!.

فلما سمعت تعريضه بهانىء وبالعرب، ورأت اللين لا يجدي معه نفعاً، عادت إلى ما شبت عليه من الانفة وقالت: «دع عنك التعريض والتلميح فإنك لست من أنداد الأمير هانىء، ولو أنه حضر الآن ما تجرأت على التفوّه في حضرته بمثل هذا الكلام!".

فحملق بسطام بعينيه ووقف بغتة، وأمسك بذراعها بقوة ليرهبها، ولكنه شعر بصلابة عضلها، ووجدها قد استطاعت التخلص من قبضته برغمه، ثم نهضت وقالت له: «حذار أن تمسني، فقد نفذ صبري!».

فلما شاهد منها هذا الإصرار ورأى فيها تلك القوة اشتد غيظه، وحمي غضبه، فقال: «لا تعللي نفسك بالمحال. وإن ضربة بسيفي هذا لكفيلة بالقضاء على حياتك! وما أنت إلا سبية تُباعين ببضعة دراهم، وقد أخطأت بمحاستك فظننت المحاسنة ضعفاً مني، وأنت تعلمين أن في خبائي عشرات من أمثالك يتمنين رضائي!».

— ٨ —

هانئان .. اثنان!

لما سمعت مريم تهديد بسطام بقتلها، همت بالرد عليه، ولكنها

سمعت ضجة علت فجأة في البستان، وسمعت رجلاً يقول: «إن الأمير هانئاً هنا». فبغتت وهمت باستطلاع الخبر فأسرعت إلى الباب وبسطام في أثرها، فرأت جماعة من العرب قد وقفوا حول الجواد الأدهم يقولون: «أليس هذا جواد الأمير هانىء فأين هو؟».

فقال لهم بسطام: «ليس هانئاً هنا، ماذا تريدون منه؟».

فتقدم أحدهم وقد غشيه الغبار وتجلى القلق في وجهه، وتصبب العرق من جبينه، وقال: «إن الافرنج هاجمونا أيها الأمير واشتد القتال بيننا وبينهم، والأمير هانىء غائب من الصباح وقد فشل فرساننا وكادت الدائرة تدور علينا فخرجنا للبحث عنه، فإذا لم يدركنا لم تقم لنا قائمة، فلما رأينا هذا الأدهم ظنناه هنا».

فقال بسطام: «ليس هذا أدهمه، ولعله طلب النجاة بنفسه، فابحثوا عنه في غير هذا المكان؟». قال ذلك وتحول إلى الداخل، فرجع الرجل ورفاقه إلى الأدهم وتأملوه جيداً فتحققوا أنه ليس جواد هانىء فانكفأوا راجعين.

وكان جيش العرب قد تضعضع لغياب هانىء ولا سيما أن الهجوم عليهم حدث بغتة وهم في خيامهم. وكان عبد الرحمن في صباح ذلك اليوم مشتغلاً في خيمته ببعض الشؤون ينتظر مجيء هانىء إليه للمداولة في أمر الجند فلما أبطأ هانىء عليه قلق وهَمّ باستقدامه، وإذا ببعض الرجال قد جاؤوه مسرعين ينادون: «إن الافرنج قد خرجوا إلينا كالسيل الجارف!». وعلت ضوضاء الجند فخرج عبد الرحمن إلى فرسه وبعث رسولاً إلى الأمير هانىء وسائر الأمراء ليجمعوا رجالهم ويتأهبوا للهجوم، ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى انهالت النبال على خيمته فنظر إلى المعركة فرأى الافرنج هاجمين وقد تصاعد غبارهم، فركب جواده ونادى رجاله ووقف في انتظار هانىء

ليقود الفرسان ويرتبهم فعاد الرسول وقال: «لم نجد الأمير هانئاً في خيمته ولا رأينا جواده في مربطه».

فارتبك عبد الرحمن، إذ كان كثير الاعتماد على هانىء في تنظيم الهجوم لأنه قائد فرسانه، والفرسان أهم فرق الجند عند العرب فغضب لتخلفه غضباً شديداً وأخذ على نفسه قيادة الفرسان، فلم يستطع تنظيمهم لأنه لم يتعودهم ولا تعودوه، والفرصة قصيرة، فالتحم الجيشان وزلزل العرب، ولولا شجاعة عبد الرحمن وحسن تدبيره في ذلك الموقف الحرج لتشتت شمل رجاله في ساعة. لكنه كان رابط الجأش فأخذ يستنهض همة رجاله مخترقاً أمامهم صفوف الأعداء، لا يبالي بما يتساقط عليه من النبال.

فلما مالت الشمس عن خط الهاجرة ولم يأت هانىء بعد، بعث عبد الرحمن بجماعة من الجند للبحث عنه، وبقي هو يدبر أمور الجند ويصبرهم ويستحثهم ويشجعهم، حتى كادت الشمس تدنو من المغيب، وكاد الافرنج يظفرون بالعرب، وكان الفرسان يحاربون وعيونهم شائعة إلى عرض البر يتوقعون قدوم قائدهم أو سماع خبر عنه، وكلما التقى اثنان أو ثلاثة منهم في ساحة القتال تساءلوا عن هانىء وسبب غيابه، وشعروا بأن حاجتهم إليه في القتال أشد مما كانوا يظنون.

ورغم ما عرف عن عبد الرحمن من سعة صدره وشدة حبه لهانىء فإنه وجد عليه وظن أن الغرام حمله على المسير إلى حبيبته على أثر ما سمعه من رضائه عن تحابهما، فأضمر إذا صح ذلك أن يحرمه من مريم!

كانت تلك الأفكار تتوارد على ذهنه متقطعة، يتخللها ارتباك في تدارك الخطر المحدق به وبجنده، وكان لا يفتر عن التلفت

والتطلع لعله يرى هائئاً قادماً، ولم يكن يرى إلا ما يزيده اضطراباً من اشتداد تضعضع الجند ولا سيما الفرسان، حتى كاد الافرنج يصلون إلى خيمته!

وفيما هو في ذلك لاحت منه التفاتة إلى يسار الجند فرأى من خلال الغبار والنبال فارساً على جواد أدهم عليه عباءة حمراء وعلى رأسه خوذة وقد شهر سيفه وأطلق لفرسه العنان فصار يعدو بأسرع ما يستطيع حتى اعتدل عنقه، وتطاير عرقه، وانتصب ذيله، وامتدت قوائمه، فاستطال بدنه وتناثر التراب من مواقع حوافره، وتصاعد الغبار خلفه، وهوى نحوه كأن الفرس سابح في الهواء وكأن الغبار يحاول اللحاق به فلا يدركه. والفارس ثابت على ظهره كأنه قطعة منه لا يبالي السهام المتطايرة ولا الرجال المهاجمين! فلما رآه عبد الرحمن خفق قلبه سروراً، إذ اعتقد أنه هانيء، فساق جواده نحوه حتى اقترب منه وهو يتوقع أن يقف له، ولكنه ظل هاجماً على الافرنج، وهو يقول: «أتاكم هانيء لا تفشلوا! ولا تخافوا من غلمان الافرنج، إنهم غنيمتكم اليوم».

فلم يشك عبد الرحمن في أنه هانيء، وأراد بعضهم أن يستقدمه ولكنه ساق جواده إلى معسكر الافرنج من جهة لم يكونوا يظنون العرب يأتونهم منها، فاشتدت عزائم العرب ولا سيما الفرسان، وساروا في أثره كأنهم الأسود الكاسرة، وبغت الافرنج وأرادوا أن يحولوا قوتهم إلى الجهة التي هاجمهم منها ذلك الفارس، وإذا بفارس آخر بعباءة حمراء وخوذة، على جواد أدهم أيضاً، وقد استل حسامه وهجم على الافرنج من جانب آخر وهو يقول: «جاءكم هانيء!». فتبعه مَن بقيَ من الفرسان وازداد المسلمون ثباتاً وشجاعة، ولم يأت المساء حتى فرّ الافرنج على بكرة أبيهم وأصبح معسكرهم

غنيمة للمسلمين، فاستولوا على ما فيه من الخيام والمؤن والأسلحة والذخائر!

وكان الأمير عبد الرحمن قد شاهد هجوم الفارس الآخر من الناحية الأخرى، ورآه يشبه هانئاً، كما أنه على جواد كأدهمه، فلما فرّ الافرنج وعاد إلى خيمته، توقع أن يجد هائناً بين الأمراء، ليعهد إليه في أمر الغنائم كما جرت العادة. ولم يمض إلا قليل حتى أقبل عليه أحد الفارسين صاحبي الأدهمين، فإذا هو هانىء نفسه، فرحب به، وقال هانىء: «لقد ظن هؤلاء الافرنج، إنهم سينالون منا بالغدر والخديعة، فدمرهم الله، ولو علمت بعزمهم على الهجوم ما فارقت المعسكر لحظة!».

فقال عبد الرحمن وهو يتحول عن جواده ويتشاغل بإصلاح ركابه: "لقد قلقنا لغيابك فنحمد الله على رجوعك». ثم التفت إليه وقال: «ومَن هو هذا الفارس الذي تقدمك وتسمى باسمك؟».

فقال هانىء: «لم يكن معي أحد!».

قال: «أما رأيت فارساً على أدهم كأدهمك، وبعباءة كعباءتك؟ لقد رأيته بعيني وسط المعركة قبل وصولك، وسمعته يتسمى باسمك!».

قال ذلك ونظر إلى بعض مَن كانوا حوله وقال: «أين ذلك الفارس الآخر الذي كان على الجواد الأدهم؟».

فقال أحدهم: «رأيناه هاجماً وقد أوغل في الصفوف، ثم توارى، وربما جاء بعد قليل».

فصاح عبد الرحمن: «اذهبوا في أثره واستقدموه!» ثم تحول هو وهانىء إلى الخيمة، وجاء في أثرهما بعض الأمراء وجلسوا يتحادثون

في أمر ذلك اليوم العجيب وما كان يهددهم من الخطر، وكلهم يذكرون هانئاً الآخر ويتعجبون، على أنهم ما لبثوا أن شغلوا عن أمره بتدبير أمر الغنائم والأسرى، ولم يكن في معسكر الافرنج نساء لأنهم لم يكونوا يحملون معهم نساءهم وأولادهم. أما الرجال فإنهم ركنوا إلى الفرار وفي مقدمتهم الكونت «أودو» صاحب اكيتانيا ورجال حاشيته.

وتباحث الأمراء في أمر الغنائم من الأسلحة والخيام والفرش وغير ذلك، ووكلوا إلى كتاب الجيش النظر في تقسيمها وحفظ حق بيت المال كالعادة، ولم تكن الغنائم في هذه الوقعة كثيرة فاقتسموها على عجل، وقضوا تلك الجلسة وكل منهم يفكر في أمر ذلك الفارس، ثم تفرقوا إلى خيامهم إلا هانئاً فإنه بقي عند عبد الرحمن، فقص عليه حديثه ولم يكتمه شيئاً. فلما بلغ إلى حديث بسطام وما كان من أمره في مستودع الغنائم هز عبد الرحمن رأسه وقال: «إنّا لله وإنّا إليه راجعون، إن أمر هؤلاء البرابرة ليحزنني وأخشى من عواقب استبدادهم إذا نحن بالغنا في استرضائهم، كما أنني أخشى إذا جافيناهم أن يفسدوا علينا سعينا!».

وكان هانىء لما ذكر الجواد الأدهم الذي حملت عليه مريم تذكر ما قالته القهرمانة عن الرسول الذي جاءها بعباءة حمراء وخوذة تشبهان عباءته وخوذته، فتبادر إلى ذهنه أن ثمة علاقة بين هذا الرسول وبين الفارس الذي تسمى باسمه، وبعد قليل عاد الذين ذهبوا للتفتيش عن ذلك الفارس فذكروا أنهم بحثوا عنه في المعسكرين فلم يقفوا له على أثر، فعاد هانىء إلى هواجسه، وازدادت حيرته، وقلق على مريم وخاف أن تكون قد أصيبت بسوء.

أما عبد الرحمن فإنه لما سمع ما قصه عليه هانىء من أمر مريم

وخروجها تذكر أمها والمهمة التي ذهبت فيها، فساوره الشك في أمرها، وظن أنها تظاهرت بما تظاهرت به احتيالاً للفرار من الأسر ولكنه راجع ما حفظه من حديثها وما كان يبدو في وجهها من أمارات الجد فغلب عليه الاعتقاد بصدقها.

ولبثا برهة صامتين لا يتكلمان، يتنازعهما التفكير في مريم وفي ذلك الفارس. وأنهما لكذلك إذ سمعا وقع حوافر مسرعة نحو الخيمة فأصغيا وإذا بغلام دخل مسرعاً وقال: «إن فارسين بالباب يلتمسان الدخول». فقال عبد الرحمن: «ليدخلا!»، فخرج الغلام ثم عاد وفي أثره رجل عليه خوذة وعباءة حمراء فحالما وقع نظرهما عليه علما أنه الفارس الذي سمى نفسه هانئاً، فلما رآه هانىء وقف وأقبل عليه متفرساً في وجهه فرآه قد تلثم تحت الخوذة بلثام أسود، ورأى من خلال العباءة ثوباً أسود فصاح فيه: «أهلاً بالفارس الذي يسمي نفسه هانئاً!». فظل الفارس ساكتاً ينظر من خلال اللثام، فابتدره الأمير عبد الرحمن قائلاً: «إنك ذو فضل على هذا الجند، فبالله ألا رفعت لثامك وعرفتنا بنفسك؟».

فرفع الفارس يده إلى الخوذة فنزعها فبان من تحتها خمار أسود، وألقى العباءة عن كتفيه فبانَ من تحتها ثوب أسود عرف هانىء للحال أنه ثوب مريم فلم يتمالك أن صاح: «مريم! مريم!».

فمد الفارس يده إلى الخمار فأزاحه فبان من تحته وجه مريم يتدفق حياة وجمالاً، وقد زاده التلثم دفئاً فتورد وأبرقت العينان! ولا تسل عن هانىء لما علم بما أتته مريم من البسالة التي تُندر في النساء، فقال وهو لا يتسطيع إمساك نفسه: «مريم! أهذه الفعال فعالك يا حبيبة؟ عهدناك ربة الجمال واللطف، ولم يخطر لنا أنك أيضاً ربة الجند والسيف! حبيبتي ما الذي جرى؟ أين كنت؟ ما هذا؟ ماذا أرى؟».

قالت: «ها أنذا واقفة بين يديك ويدي الأمير عبد الرحمن، ولم آت أمراً يستحق الإطناب، وإذا كنت قد فعلت شيئاً فما هو إلا لأني تسميت باسم الأمير هانىء، فالأمير هانىء هو الذي فعل ذلك!». قالت ذلك بلثغتها المعهودة وقد تجلى في محياها شيء هو فوق البسالة والأنفة لا يعرفه إلا المحبون! ثم فطنت إلى وجود الأمير عبد الرحمن قائلاً: «بورك فيك وبورك في الأمير هانىء إنكما متكافئان، ولولاكما لأصاب هذا الجيش ضيق لا ندري عواقبه؟ تفضلي يا بنية، اجلسي وقصي علينا خبرك، وما الذي دعاك إلى اقتحام هذا الخطر العظيم؟ فقد سمعت من أخي هانىء أنك خرجت من الخباء في هذا الصباح بخدعة، فذهب للتفتيش عنك، ولم يعد إلا بعد مجيئك وكان قانطاً من العثور عليك، فما هو خبرك؟».

قالت: «أرجو قبل الشروع في الحديث أن تأمر باستقدام رفيقتي وصديقتي ميمونة التي تحملت العذاب من أجلي، فإنها خارج هذا الفسطاط!». وأشارت بإصبعها إلى الخارج. وكان الأميران قد علما بضياعهما معاً فلم يستغربا كلامها، فصفق عبد الرحمن فدخل الغلام فأمره أن يدخل المرأة الواقفة خارجاً، وبعد هنيهة دخلت ميمونة وهي تتظاهر بالحياء والدعة، فأشار إليها عبد الرحمن أن تجلس على طنفسة في بعض جوانب الفسطاط وهو يبتسم لها اعترافاً بحسن صنيعها، ثم حوّل وجهه إلى مريم لاستماع حديثها، وكان هانىء ما زال واقفاً فأشار إليه عبد الرحمن أن يجلس بجانبه، وأصاخ الأميران بأذنيهما لسماع القصة.

فبدأت مريم بالحديث من حينما جاءها الرسول يلتمس منها أن توافي الأمير هانئاً، وكيف أن ميمونة عرّضت نفسها لخدمتها وكيف آنستها وأعانتها، حتى وصلت إلى دخولهما القصر المهجور وما كان

من مجيء بسطام وما أبداه من القحة وكيف عرضت ميمونة نفسها للخطر دفاعاً عنها. فلما ذكرت مريم ذلك تحولت الأنظار إلى ميمونة فتظاهرت بالحياء والإطراق، أما هانىء فأحس حينما سمع اسم بسطام بارتعاد من شدة الغيرة، والتفت إلى الأمير عبد الرحمن وهمس في أذنه قائلاً: «يا ليتني قتلته في هذا الصباح».

أما مريم فإنها استمرت في حديثها فقالت: «فلما رأى بسطام دفاع هذه الصديقة عني، أمر رجاله فقبضوا عليها وأوثقوها وساقوها إلى حجرة هناك وهي تصيح وتستغيث، فلما يئست من نجاتها التمست من ذلك الوحش الكاسر أن يرفق بها وبي، ولكن نفسه الخبيثة سولت له الفتك بي في ذلك القصر المهجور، وطال الجدال بيني وبينه، وفيما نحن في ذلك جاء بعض فرسان الجند للبحث عن الأمير هانىء هناك، وقد علمت منهم أن الافرنج هاجموكم وهانىء غائب، وإن العرب في تضعضع بسبب غيابه، أما بسطام فإنه لم يعبأ بذلك وانتهرني وعرض بذكر الأمير (وأشارت إلى هانىء) واتهمه بالجبن وبأنه فرّ من المعركة خوفاً من الموت، وأصرّ على أنه غلام لا شأن له، رغم ما ظهر من أن الجند لا يستطيعون عملاً من غيره».

ولما سمع هانىء ذلك الإطناب حول نظره عن مريم حياء، بينما استمرت هي في حديثها فقالت: «فوقع كلامي على بسطام وقوع الصاعقة، وهجم عليّ ويده على قبضة سيفه يهم بأن يجرده ليضربني به، فصحت به (اخسأ يا نذل الرجال، إن مثلك لا يليق أن يسمى أميراً. فبدلاً من أن تجرد حسامك على فتاة، اذهب لنجدة إخوانك فيما هم فيه من الضنك، ولو أن هانئاً كان معهم ما وقعوا في ذلك الضيق). ولكن لم يزده هذا الكلام إلا حنقاً، فلم يخجل وأمعن في غيّه وقال ويده لا تزال ممسكة بسيفه: (لو كان هانىء رجلاً

ما تخلف عن ميدان الحرب في مثل هذا اليوم، ولكنه جبان). ثم جرد سيفه وهَمّ بضربي، فلما رأيت ذلك منه وتبينت الغدر في عينيه نسيت ضعف النساء وشددت عزيمتي وعزمت على الفتك به التماساً لسرعة الخلاص من بين يديه لألحق بالجند، لأن فشله يؤلمني كثيراً كما تعلمون، ولكن أمسكت نفسي وعدت إلى ملاينته فقلت له: (لا تخوفني بسيفك، ولا يغرنك أني فتاة فإني لا أخاف السيوف، ارجع عن غيّك واتركني وشأني وذلك خير لك). وقبضت على زنده وهززته فأكبر أن يصغي لنصحي وانتزع يده من يدي وعاد فأمسك بسيفه وهَمّ بضرب عنقي، فتراجعت لأتفادى الضربة، ولكنه واصلَ هجومه عليّ فلم أعد أستطيع صبراً وصحت فيه: (نصحتك فاقبل نصيحتي يا بسطام!). ثم رأيته يحاول أن يمسك ثوبي ليتمكن من ضربي ظناً منه أنني تراجعت فراراً، فهجمت عليه وأمسكت يمناه بيسراي ومددت يمناي إلى منطقته واستللت خنجره وأغمدته في صدره وقلت له: (أَبَيْت إلا أن تموت قتيلاً وأن تدنس يدي بدمك!). فغاص الخنجر إلى قبضته في صدره وخرّ قتيلاً وقد سقط السيف من يده، فالتقطت السيف ثم أسرعت إلى الأدهم فركبته، والتففت بالعباءة وجعلت الخوذة على رأسي، ثم ركضت الجواد إلى المعركة لأوهم أني الأمير هانىء تشجيعاً لفرسانه، فإذا ترتب على عملي هذا نجاح فإنما الفضل لذلك الاسم العزيز!».

لما انتهت مريم في حديثها إلى قتل بسطام، صاح الأمير عبد الرحمن مستغرباً: «هل قتلت بسطاماً؟».

فقالت: «نعم قتلته، وقد قصصت عليك السبب الذي دعاني إلى قتله، فإما أن تعذرني فيه أو تقتلني به، فإني بين يديك».

فتصدى هانىء للجواب قائلاً: «إن قتله مقدر منذ أيام، ولو لم

تقتليه أنت لقتلته أنا، وإذا رأى الأمير أن ينتقم له فلينتقم مني».

فقال الأمير عبد الرحمن: «لا أريد الانتقام له، ولكنني أخاف عاقبة قتله على الجند، لما تعلمون من..». ثم انتبه لوجود ميمونة، فتوقف عن إتمام الحديث وغير مجراه فقال: «سنعود إلى البحث في ذلك بعد». ثم التفت إلى مريم وقال: «اخبرينا عن سبب تأخرك عن القدوم إلى الآن مع أن المعركة انقضت منذ بضع ساعات».

فأشارت إلى ميمونة وقالت: «كنت مشغولة بأمر هذه الصديقة لأني تركتها أسيرة في ذلك القصر المهجور وأسرعت إلى ميدان القتال، فلما انتهت المعركة واطمأن قلبي على الجند تذكرت ما هي فيه من الضيق بسببي فذهبت لإنقاذها من محبسها في القصر، وقد وجدتها هناك كما تركتها مغلولة وقد غادرها الحارسان فحللت قيودها وجئت بها على جواد كان هناك. ولو لم أستطع إنقاذها لتنغص عيشي لأنها إنما أسرت وأهينت بسببي، فلما رجعت كان الليل قد أرخى سدوله فاهتديت إلى معسكركم بنيرانه، وعرفت خيمة الأمير من العَلَم الذي ببابها».

وكانت مريم تتكلم والهيبة تتدفق من محياها ، والصدق يتجلى في كل لفظة من ألفاظها فازداد عبد الرحمن إعجاباً بها، والأمير هانىء هياماً بحبها، ولم يتمالك هذا أن قال: «بورك في بطن حملك! ووالله لأنتِ بشير خير، ورسول سعادة لهذا الجند!».

فوقفت ميمونة عند ذلك وهي تتظاهر بالامتنان والحياء وقالت: «لا غرو إذا أُعجب بها الأمير وهو في إبان الشباب فقد عشقتها النساء قبله، وإني والله لم تقع عيني في هذه البلاد ولا في غيرها على فتاة جمعت ما جمعته هذه الحبيبة من لطف النساء وبسالة الرجال، وأنفة الأمراء وحنو الأمهات، فضلاً عن صدق اللهجة

وعزة النفس، فهي جديرة برضاء الأميرين، ولقد كنت أعدها صديقتي، ولكنني بعد ما غمرتني به من الجميل أصبحت وأنا أنظر إليها نظري إلى مَن هو فوق مرتبتي..».

وكانت مريم في أثناء ذلك مطرقة تكاد تذوب خجلاً، وقد كلل العرق جبينها حتى تقطر فوق خدين توردا من شدة الحياء. وأدرك عبد الرحمن ذلك، فعمد إلى تغيير مجرى الحديث فقال: «إن مريم لأهل لأكثر من ذلك. والآن قد آن لها أن تستريح بعد هذا العناء». ثم صفق فدخل الغلام فقال له: «أعدد لهاتين السيدتين خيمة تنامان فيها، وأحضر لهما كل ما تحتاجان إليه، وخُذ الفرسين إلى الإسطبل».

فأشار إشارة الطاعة، وخرج وخرجت مريم وميمونة في أثرها وهانىء يتبع مريم ببصره وقد اشتد هيامه بها وتذكر ما عاهدها عليه من أمر الزواج بعد أن يقطعوا نهر لوار، فهان عليه أن يقتحم جند الافرنج وحده إذا حالوا بينه وبين ذلك النهر، ولاحظ عبد الرحمن ما بدا في وجه هانىء من دلائل الهيام فسرّه تعلقه بمريم، لما آنسه من المشابهة بين الحبيبين في البسالة والحماسة والأنفة. على أنه ما لبث أن عاد إلى التفكير في مقتل الأمير بسطام، ولم يشك في أن رجاله سيثورون ويطالبون بدمه، فإذا علموا بأن مريم قتلته فربما أساؤوا إليها فيستاء هانىء، وتكون البلية الثانية شراً من الأولى! فلبث هنيهة وهو مطرق وقد استغرق في التفكير حتى غلب عليه الجمود.

وكذلك بقي هانىء مطرقاً مثله ولكن فكره كله كان متجهاً إلى مريم، وما قد يحول بينه وبينها من جنود الافرنج وحصونهم.

ثم انتبه عبد الرحمن بغتة ونظر إلى هانىء، فلما رآه مطرقاً أدرك أنه يفكر في أمر مريم، فعذره بعد ما شاهده من شجاعتها، وقال له:

«بورك لك في هذه الفتاة، فإنك والله جدير بها. ولكنني أريد أن أعرف رأيك في أمر بسطام وقتله، إنه نال ما يستحقه، ولكنك لا تجهل حاجتنا إليه، إن لم يكن للاستعانة بسيفه فلبقاء قبيلته على الولاء لنا، وأنت تعلم شأن أولئك البرابرة معنا ـ ولا سيما رجال بسطام ـ فإنهم إنما أنجدونا طمعاً في الغنائم ولم يذعنوا لأمرنا إلا وفي نفوسهم ضغائن علينا لاعتقادهم إننا مستأثرون بالسلطة والأموال دونهم، فإذا علموا بمقتل أميرهم فقد يبدو منهم ما يفسد أمرنا ويفرق كلمتنا، ونحن في أشد الحاجة إلى الاتحاد، فما رأيك؟».

فابتدره هانىء بالجواب وكأنما هو قد أعدّه منذ أيام وقال: «ليس أهون من إرضاء البرابرة. وإذا كانوا لم ينصرونا في هذه الحرب غيرة على الإسلام وإنما أرادوا كسب الأموال، فإنهم لم يطيعوا بسطاماً إلا لمثل هذه الغاية لأنه الوسيط بيننا وبينهم، فإذا تحققوا الكسب ظلوا على الطاعة، زد على ذلك أننا سنقنعهم بأن في ذهابه زيادة أسهمهم من الغنائم لأنه كان شديد الطمع مؤثراً لنفسه، ثم نمنح الأمراء هدايا خاصة ونطلب إليهم أن يختاروا رئيساً منهم بدل بسطام. وإذا عهدت إليَّ في تدبر ذلك فعلته وأنا ضامن السلامة».

فأُعجب عبد الرحمن بسداد هذا الرأي، وعهد إلى هانىء تدبير الأمر بحكمته. وفي صباح اليوم التالي تشاور الأمراء في أمر الأخبية فأجمعوا على نقلها إلى معسكرهم الجديد مع الغنائم الباقية في المعسكر القديم، وأتم هانىء مهمته على نحو ما قال، ومكثوا هناك يتأهبون للزحف إلى نهر لوار بعد رجوع سالمة من مهمتها فقد كان عبد الرحمن يتوقع فوائد جمة من مساعيها، لعلمه أن اتحاد جنده لا يدوم طويلاً لاختلاف عناصره وتضارب مقاصد أمرائه، فإذا لم يتخذ وسائل أخرى ساءت العاقبة، فضلاً عما يترتب على مشروع سالمة من حقن

الدماء وسهولة الفتح.

أما ميمونة فقد ساءها فشل ما دبرته لدحر جند المسلمين، ولكنها كانت لدهائها ومكرها قد حفظت خط الرجعة فأظهرت أنها أسيرة بسبب مريم وقد سرها مقتل بسطام لأنه مطلع على بعض سرها. وكانت حين خرجت مريم على الجواد الأدهم في ذلك اليوم، قد أرسلت الرجلين في أثرها فلما عادا إليها بخبر اندحار جند الافرنج، أمرتهما بالفرار وظلت هي بأغلالها هناك على أمل أن ترسل مريم مَن يحضرها.

— ٩ —
سالمة في بوردو

تركنا سالمة وقد ركبت من معسكر المسلمين قاصدة إلى «بوردو»، وحسان العجوز في ركابها، فلما أشرفا عليها التفتت إلى حسان وقالت: «هل كان يخطر لك أن نوفق إلى مثل الأمير عبد الرحمن بعد طول انتظارنا عملاً بالوصية؟».

فقال: «لا والله يا مولاتي، وقد ذكرتني بالوصية، فما الذي دعاك إلى إخراجها من المخبأ الذي عهدتك تحفظينها فيه حتى لا يراها أحد؟ وأين هي الآن؟».

قالت: «أتعني أنها كانت في يدي عند خروجنا من الأسر؟ إنني أخرجتها من مخبئها لما يئست من الحياة، وحسبت أن هؤلاء العرب سيقتلونني، وكنت أعتزم قبل أن تفيض روحي أن أضم الوصية إليَّ وأتنسم ريح صاحبها منها، ثم أعهد إليك أو إلى سواك في أن يوصلها إلى صاحب هذا الجند. أما الآن فهي مخبوءة تحت ثيابي، وليس يشغل بالي إلا أن مريم وحدها في معسكر العرب؟».

فقال حسان: «لا بأس عليها يا مولاتي، فالعرب كثيرو العناية

بالنزلاء، ولا سيما أن مريم في ضيافة كبير أمرائهم، وقد لحظت من أجل الخباء احتفاء كثيراً بها، فقد أحبها النساء واحتفلن بها وفي مقدمتهن ميمونة، فإنها تعشقها كما سمعت ذلك من الخصيان الذين يخدمونها».

وكان حسان يتكلم وهو يعدو عدواً خفيفاً بجانب ركاب سالمة، فلما قال ذلك أمسكت بلجام الجواد ليسير بها الهوينا، والتفتت إلى حسان وقالت: «لا أخفي عليك يا حسان إني لا أخاف على مريم إلا من هذه المرأة!».

فبغت الرجل، وكان يتكلم ونظره إلى الأرض ليتقي الحجارة والأشواك فلما سمع قولها رفع بصره إليها وقال: «وما هو سبب خوفك يا مولاتي؟».

قالت: «لأني عرفت من هي هذه المرأة التي تسمى ميمونة وأنها لداهية دهياء، وأخشى ما أخشاه أن تكون قد عرفتني، على أني حرصت على ألا أطيل الكلام معها حتى لا تعرفني. ولا شك في خطر بقائها في ذلك المعسكر، ولذلك اعتزمت أن أبادر عقب انتهاء مهمتي، باطلاع الأمير على حقيقتها لئلا تخدعهم وتضعضع شؤونهم، فهي ذات شأن عند الافرنج ويهمها أن يكون النصر لهم، وإني لأستغرب أن تكون في خباء الأمير عبد الرحمن وعهدي بها في غير هذه البلاد!».

فلما سمع حسان قولها مال بكليته إلى استطلاع الحقيقة، فقال: «وهل أعرفها أنا؟».

قالت: «لا شك في ذلك ولكن دعنا من هذا الآن». فسكت.

وكانا قد أشرفا على أسوار «بوردو» فرأيا الناس خارج السور زرافات ووحداناً وقد خرجوا لافتداء أسراهم فرحين بما عوملوا به

من الرفق وإن كان اليهود قد ضاقوا بهذا الرفق ذرعاً، ولا سيما من كانوا قد ابتاعوا الأسرى وهمّوا بحملهم للإتجار بهم، ثم جاءهم الأمر بالتخلي عنهم فأذعنوا كارهين.

فلما رأت سالمة تزاحم الناس هناك اتجهت إلى باب من أبواب المدينة بعيد عن ذلك الازدحام، وسارت رأساً إلى أسقف بوردو. فترجلت عند باب القلاية، وتركت حساناً عند الجواد، ودخلت تلتمس الأسقف فرأت القسوس والرهبان وغيرهم في حركة، وقد تجلت في وجوههم أمارات السرور لما جاءهم به هانيء في مساء الأمس من آنية الكنيسة مع الأمر بافتداء الأسرى، وكان أكثر القسوس يعرفون سالمة فرحبوا بها وبشروها بما كان، فهنأتهم وطلبت إليهم أن يستأذنوا الأسقف لها في المقابلة، فأذن لها، ولما دخلت عليه تلقاها بترحاب واحترام، مع أنه لم يكن يعرف حقيقة الدور الذي قامت به ولكنه كان يحترمها لتعقلها وسداد رأيها، فباركها وأجلسها إلى جانبه واستطلع أنباءها فقصت عليه ما جرى لها حتى انتهت إلى أمر الأسرى، فأكدت له أن العرب أكثر الأمم رفقاً برعاياهم وأسراهم، وإنهم إنما امتد سلطانهم في الشرق والغرب لما آنسه أهل البلاد على اختلاف نحلهم من حرية الدين والعمل على غير المألوف عند أمم الافرنج في ذلك العصر، وإن ما أصاب كنيسة بوردو من النهب إنما وقع من بعض أتباع جند المسلمين غير العرب.

فلما سمع الأسقف كلامها تذكر أنه كثيراً ما كان يسمع منها إطراء العرب ولم يكن يصدق، وكان يظنها تقول ذلك عن هوس مثل هوسها بتعليم ابنتها اللسان العربي وهي مقيمة ببلاد الافرنج، ولكنه بعد ما رآه من رفق المسلمين وعدلهم لم يسعه إلا تصديقها، فاغتنمت هي الفرصة وتطرقت بالحديث إلى الغرض المقصود فقالت: «لا أنسى

يا سيادة الأسقف ما كنت ألقاه من نفورك كلما امتدحت العرب بين يديك حتى شاهدت ذلك بنفسك عن بعد، ولو أتيح لك معاملتهم ومعاشرتهم لازددت ارتياحاً إليهم، ولذلك فإني استغرب من أهل هذه البلاد أن يقاوموهم ويقفوا في سبيلهم».

فقال الأسقف: «صدقت يا ابنتي، إننا كثيراً ما سمعنا بعدلهم، غير أننا رأينا من قسوة بعضهم ما تشيب لهوله الأطفال، حتى كاد يثبت عندنا ما كنا نسمعه من أنهم يعبدون الأوثان من دون الله».

فابتسمت سالمة ابتسام الدهشة وقالت: «يعبدون الأوثان؟ إن ذلك من الأراجيف التي يشيعها أعداؤهم، فإنهم يعبدون الإله الواحد الأحد، ويحترمون الديانة النصرانية احتراماً كبيراً، ويكرمون السيد المسيح كثيراً، ولا يعقل أن تنسب إليهم الوثنية ونبيّهم إنما قام لإبادة الأصنام التي كان العرب قبله يعبدونها، فكسرها ومحا الصور والتماثيل التي كانت في مكة، وبغّض الوثنية غلى أتباعه حتى حرّم عليهم التصوير ونحت التماثيل. فما بلغكم من هذا القبيل إنما هو حديث موضوع لغرض من الأغراض. ولست أنكر ما قد يبديه بعضهم من سوء التصرف أو الطمع، ولكن ذلك لا يصح القياس عليه. كما لا يصح أن نقيس أعمال كل الأساقفة على عمل واحد منهم شذ عن المنهج القويم. وزد على ذلك أن العرب مهما يكن أمرهم فهم أرفق بأهل هذه البلاد من هؤلاء الافرنج الذين جاؤوا بقبائلهم واستبدوا فيهم، واستعبدوهم واستخدموهم في أشق الأعمال، ولم يقلدوا واحداً منهم وظيفة من وظائف الحكومة، وهكذا استأثروا بخيرات البلاد، وبقي الغاليون مثل العبيد الذين يعملون في الحقول، هل رأيت غالياً تقلّد منصباً كبيراً؟ أو هل رأى

الغاليون راحة منذ وطىء هؤلاء الافرنج بلادهم؟! أما العرب فإذا فتحوا بلداً أطلقوا حرية الأديان والمذاهب والمعاملات، حتى الحكومة والقضاء فإنهم يتركونهما لأهله ويقتصرون على قيادة الجند وحماية الأهالي من الأعداء، لا يلتسمون أجراً على ذلك إلا بعض المال الذي يسمونه الجزية وهو لا يعدل بعض ما يقتضيه أولئك الافرنج من الضرائب الفادحة. ناهيك بالحرية التي يتمتع بها الأهلون في ظل حكم العرب، وسيادتكم تعلمون أن حال أهل هذه البلاد مع الافرنج الفاتحين أصبحت شراً مما كانت عليه تحت سلطان الرومان قبلهم. فأكثر الناس هنا عبيد يتصرف فيهم الحكام تصرف المالك في عقاره؟ صحيح أن العرب عندهم العبيد والموالي أيضاً، ولكنهم أرفق حالاً بهم، فإن الرق عند المسلمين غير مستحسن والإسلام يدعو إلى إبطاله، ولو لم يرَ نصارى الشرق والغرب ما رأوه من الرفق والعدل في ظل المسلمين ما فضلوهم على الروم والفرس. وقد أطلت عليك الشرح لأن غرضي أن تسعى في حقن الدماء، فهل تساعدني في ذلك؟ إن المسلمين سيفتحون هذه البلاد لا محالة، فبدل من أن يفتحوها عنوة ويسفكوا فيها الدماء ويهدموا المنازل والقصور، فليكن فتحها صلحاً فيسلم لكل واحد ماله وعرضه، والسعي في هذا السبيل من واجبات سيادتكم أكثر مما هو من واجبات أمثالي!».

وكانت سالمة تتكلم وأمارات الجد والاهتمام ظاهرة في كل كلمة تقولها وكل حركة تبديها، وكان الأسقف يسمع أقوالها ويعجب بسعة علمها عن العرب كأنها عاشرتهم وساكنتهم زمناً طويلاً، وكأنها اطلعت على علومهم وآدابهم. ومع ما في أقوالها من مخالفة لما كان متسلطاً على عقول أهل تلك البلاد يومئذ فإنه أحس بالاقتناع بقولها ونبهه ضميره إلى أن واجبه يقضي عليه بالسعي لحقن الدماء فقال لها:

«جزاك الله خيراً يا ابنتي على سعيك في مصلحة شعب الله، ونطلب إليه تعالى ونتضرع إلى السيد المسيح أن يقدم ما فيه الخير».

فلما آنست منه اقتناعاً عمدت إلى إتمام الغرض بلباقة وحسن سياسة فقالت: «لا أريد من سيادة الأسقف أن يكلف إخواننا المسيحيين تسليم البلاد إلى المسلمين عفواً، ولا أن يساعدوهم على أخذها بالسيف، وإنما أرى أن يتركوا الأمر لمن غلب دون أن ينتصروا لأحد الفريقين على الآخر. فإذا غلب الافرنج فهم أصحاب السيادة، والبلاد في أيديهم، وإذا غلب العرب فلن يضرنا ذلك شيئاً لأنهم خير لنا من أولئك».

فارتاح الأسقف إلى قولها، وكان روماني الأصل قد رأى من الافرنج استبداداً في دائرة نفوذه حتى كادت السلطة تخرج من يده، فقال لها: «أود أن يعلم إخواني الأساقفة بهذه النصيحة في البلاد الأخرى، ولكنني أخاف أن يطلع الحكام الافرنج على ذلك فيعود الأمر وَبالاً علينا!».

قالت: «عليَّ إبلاغ ذلك إلى مَن شئت، وإنما أطلب منك كتاباً إلى أسقف بواتيه، تذكر له فيه ثقتك بإخلاصي، فإذا لقيته اطلعته على ما أراه في هذا الأمر كما أرجو أن يبث مولاي هذه الروح في رجال بطانته، ولا أظن واحداً من أهل بوردو لا يشهد هذه الشهادة في العرب، وقد أعادوا إليهم أسراهم وآنية كنيستهم!».

قال الأسقف: «صدقت يا ابنتي لا يجوز لنا إنكار هذا الجميل».

قالت: «وأرجو منك أن تبث هذه الروح في حاكم البلد، فقد طلب منه الكونت (أودو) نجدة لمساعدته في قطع الطريق على العرب، لأني علمت أن الكونت معسكر في مضيق (دردون)، وعلى

كل حال أرى أن أترك تدبير الأمر إليك، وإني مسافرة إلى بواتيه الساعة، فهل تأذن لي في كتاب إلى أسقفها؟».

قال: «نعم»، ونهض فكتب على منديل من الحرير سطرين لهذا الغرض وأعطاها إياه، فتناولته وقبّلت يده فباركها. وقبل خروجها تذكرت أن المسافة بين بوردو وبواتيه نحو مائة ميل، لا يستطاع اجتيازها في أقل من ثلاثة أيام أو أربعة، وإن حساناً لا يقدر على المشي في ركابها كل هذه المسافة، فطلبت إلى الأسقف أن يأمر له بفرس ففعل، فخرجت شاكرة، بينما أهل القلاية يتساءلون فيما بينهم عمن عسى أن تكون وفيم كان مجيئها وخروجها على هذه الصورة. أما هي فرأت حساناً والفرسين في انتظارها، فركبت وركب حسان، وخرجا من بوردو قاصدين إلى بواتيه.

كان حسان يعرف عدة طرق تؤدي إلى بواتيه، فاختار أسهلها وآمنها. ونظم سيرهما بحيث يصلان كل مساء إلى دير يبيتان فيه ثم ينهضان في الصباح التالي. وسارا بقية ذلك اليوم وسالمة لا تكاد تتكلم لاشتغال ذهنها بمهمتها. فلما أقبل المساء أشرفا على دير صغير قائم على سفح جبل فوق نهر تجري مياهه في معظم السنة، وحول الدير مغارس الكرم والزيتون وأشجار الليمون والتفاح وغيرها، وهو كسائر أديرة تلك الأيام يتألف من بناء محاط بسور عالٍ له باب صغير للدخول. فلما وصلا إلى بابه تقدم حسان وقرع جرساً معلقاً فوقه، فأطل راهب من كوة فوق الباب وسأله عن غرضه فقال له: «نحن غرباء ونريد المبيت عندكم فهل من مكان؟». وكان يتكلم بلغة أهل البلاد، ولكن بلهجة دلت على أنه غريب عنها، ففتح لهما الراهب ودخلت سالمة تاركة حساناً يعنى بأمر الفرسين مع خدم الدير ثم يلحق بها. فلما رآها الراهب البواب آنس من منظرها وزيها سيماء الجلال

والوقار، وسارع إلى الرئيس فأخبره بأمرها فأمر أن يدخلها إليه. فعاد وقال لها: «تعالي معي لمقابلة الرئيس، ليأمر لك بغرفة تقيمين بها ما شئت».

وسارت سالمة خلفه في صحن الدير، فرأته مزدحماً بالناس من الرجال والنساء والأطفال وأكثرهم من أهل بوردو وجوارها، فأدركت أنهم لجأوا إلى الدير خوفاً من العرب، فلما دخلت غرفة الرئيس وقف لاستقبالها ورحب بها وأمر لها بالطعام وسألها عن سفرها فذكرت له أنها قادمة من بوردو إلى بواتيه، فقال: «لعلك فررت من بوردو على أثر نهب الكنيسة والفتك بالأسرى؟».

قالت: «لقد أخطأ الذين فروا لأن نهب الكنيسة إنما كان تعدياً من بعض البرابرة المرافقين لجند العرب، ولما علم أمير المسلمين بذلك أمر بإعادة الآنية إلى مكانها، ورد الأسرى إلى أهلهم بفدية قليلة، وعامل أهل بوردو بكل رفق».

فلما سمع الرئيس قولها بدت الدهشة في وجهه وقال: «وهل يعرف هؤلاء العرب الرفق أو يردعهم عن الفتك والقتل رادع وهم لا دين لهم ولا ذمام؟».

فقالت: «هل رأيت أحداً منهم يا مولاي؟».

قال: «كلا، ولكنني سمعت ذلك من كثيرين».

وهمَّت سالمة بأن تدفع التهمة والبرهان، ولكنها سمعت ضوضاء وصياحاً في ساحة الدير، فوقف الرئيس وصفق فجاءه راهب يعدو فصاح فيه سائلاً: «ما هذه الضوضاء؟!».

قال الراهب وهو يضحك والبغتة ظاهرة في وجهه: «هذا داتوس يا سيدي!».

قال الرئيس: «داتوس؟ كيف كان هذا؟ لقد عهدناه معتزلاً لا يخاطب أحداً ولا يقوم إلى الطعام إلا مكرهاً!».

قال: «يلوح لي أنه أصيب بمس، فقد رأيناه يهجم على خادم الأميرة(وأشار إلى سالمة) ويوسعه ضرباً وصفعاً وهو يصيح: (يا أماه، يا أماه) حتى كاد يقتله، لو لم نتدارك الأمر ونرده عنه!».

فلما سمعت سالمة ذكر خادمها قالت: «أين حسان؟ وما الذي جرى له؟ هل عليه من بأس؟».

قال الراهب: «هو في خير وسلامة، ولكننا لم نستطع منع داتوس عن الهجوم عليه، فبعد أن أرجعناه عنه هجم عليه ثانية بهراوة كانت بيده، ولما أمسكناه رمى الهراوة على الخادم وسقط هو على الأرض مغمى عليه من الغيظ. وقد تركته يختلج ويرتعد ولا يفتأ يذكر أمه!».

فهز الرئيس رأسه كأنه يستعيذ من شرٍ يخافه. ونهض فخرج ليرى ما هناك، فتبعته سالمة وقد استغربتْ ما سمعته عن ذلك الشاب، وتبادر إلى ذهنها أنه مصاب بخبل في عقله، فلما وصلت مع الرئيس إلى مكان الحادثة، وكانوا قد أدخلوا حساناً إلى حجرته ليغسلوا جراحه، وقع نظرها على شاب في عنفوان الشباب، جميل الصورة كبير العينين شديد بياض الوجه أشقر الشعر، مطروحاً على الأرض، وقد طارت قبعته والتف شعره ورأته يفتح عينيه ويتحفز للوقوف كأنه أفاق من سكرة، ثم جعل يلتفت يميناً وشمالاً كمن يبحث عن ضائع، فأشار الرئيس إلى الرهبان أن يخبئوا حساناً في مكان لا يراه فيه داتوس، وأمسك بيد الشاب وباركه وأخذ يلاطفه ثم أشار إليه أن يمضي إلى غرفته، فمضى ساكتاً وهو يتلفت حواليه.

ورجحت سالمة أن الشاب أصابه جنون أو «سكنه شيطان» ـ كما كان اعتقاد أهل ذلك العهد ـ لكنها أحبت أن تتحقق من ذلك،

فلما عاد الرئيس عادت معه وقد رأت في وجهه تغيراً زادها رغبة في الاستفهام، وأنساها البحث عن حسان. على أنها لم تهتم بالسؤال حتى سمعته يخاطبها بصوت منخفض قائلاً: «ألا تزالين تجادلينني في أمر أولئك العرب، وتزعمين أنهم أهل ديانة ورفق؟».

فاستغربت سالمة قوله هذا أكثر من استغرابها عمل داتوس وقالت: «لم أفهم يا أبتي علاقة هذا الحادث بالمسلمين أو العرب، بل أرى هذا الافرنجي قد تعدى على خادمي لأنه عربي حتى كاد يقتله!».

وكانا قد دخلا الغرفة، فأغلق الرئيس بابها وأومأ إلى سالمة فجلست على وسادة فوق طنفسة، وجلس هو على وسادة أخرى بالقرب منها وقال: «لو عرفت قصة هذا الشاب وسبب ما ظهر من هياجه وتعديه، لاقتنعت بما قلته عن العرب وأقلعت عن ظنك بهم خيراً!».

فازدادت سالمة دهشة وقالت: «ما قصة هذا الشاب؟».

فقال الرئيس: «اعلمي يا ابنتي أن هذا الشاب من جملة الافرنج الذين جندوا لمحاربة العرب منذ إقدامهم على فتح هذه البلاد، وكانت له أم هي كل أمله في الدنيا كما أنه كل أملها، فتركها وسار إلى الحرب، ثم اتفق خلال غيابه أن دخل المسلمون بلدته ونهبوا بيته وساقوا أمه إلى قلعتهم القريبة في جملة السبايا. فلما عاد الشاب من ميدان القتال وعلم بما حدث لأمه، ساق جواده إلى تلك القلعة ومعه بعض رفاقه، وهناك وجدوا القلعة موصدة وأطل عليهم بعض المسلمين من فوق سورها سائلين عن غرضهم، فقال لهم: «إن أمي أسيرة عندكم وقد جئت لآخذها، فقالوا له: (لا نعطيك أمك إلا إذا أعطيتنا الجواد الذي تركبه، وإلا فإننا نذبحها أمام عينيك). فغضب

داتوس لذلك غضباً شديداً وقال لهم: (لا أعطيكم جوادي، فافعلوا ما تشاؤون). قال ذلك وهو يظنهم يهددون بمقتل أمه دون أن يقدموا على ذلك، ولكنه ما لبث أن رآهم احتزوا رأسها ورموه إليه، فلما رآه غلا الدم في عروقه وفقد رشده، ولما أعجزه الوصول إلى القاتلين لاحتجابهم وراء الأسوار جعل يلطم وجهه ويبكي ويركض فرسه يميناً وشمالاً كالمجنون، ثم ترك أصحابه وأقام عندنا، وقد قصّ عليَّ خبره فاعتقدت من ذلك الحين العرب أهل ظلم وعسف لا دين عندهم ولا رحمة.

وقد مضى على داتوس بضعة أعوام لا يتكلم ولا يجالس أحداً كأنه أصيب ببله، ولعله إذا رأى خادمك وعلم من سحنته أو كلامه أنه عربي، هاج لذكرى مصيبته ففعل ما فعل».

وكانت سالمة تسمع الحديث وهي في دهشة شديدة، فلما أتى الرئيس على القصة أحست الفتاة بضعف حجتها في الدفاع عن العرب ولكنها تجلدت وقالت: «لا يخفى على مولاي الرئيس أن مثل هذه الأمور مما يحدث في جميع الحروب من العرب والافرنج وغيرهم، ولكن المعول عليه هو تصرف الجيش الفاتح وغرضه..».

فقطع كلامها قائلاً: «وما عسى أن يكون غرض العرب وقد شاهدنا من أعمالهم في أثناء فتوحهم ما لم يبق معه حاجة إلى دليل؟ ألم ينهبوا الأديرة ويأخذوا آنيتها؟ ألم يأسروا الرهبان في إسبانيا ويختاروا أجملهم خلقة ويبيعونهم بيع الأرقاء؟!».

فانتهزت سالمة فرصة تطرق الحديث إلى هذا الأمر وقالت: «نعم إن بعض العرب نهبوا الكنائس والأديرة، ولكن أمراءهم لم يكونوا يقبلون ذلك، وكثيراً ما كانوا يعيدون الآنية إلى أصحابها ويطلقون سراح الأسرى ـ لا سيما الرهبان ـ لأن نبيّهم أوصاهم بهم

خيراً، وآخر ما حدث من هذا القبيل أن بعض الملحقين بجند العرب من البرابرة وغيرهم نهبوا كنيسة بوردو، فلما علم أمير العرب بذلك رد ما نهبوه واعتذر، وأمر جنده إلا يعودوا إلى مثل ذلك، فالعرب أهل رفق وعدل، وفي اعتقادي أنهم خير لأهل هذه البلاد من الافرنج، وإني أقول هذا بين يديك على أن يكون سراً من أسرار الاعتراف لا يطلع عليه أحد، فإذا كانت الغلبة للعرب تحققت صدق قولي..».

فقاطعها الرئيس قائلاً: «يغلب العرب؟.. معاذ الله».

فبغتت سالمة وقالت: «إن النصر من عند الله يؤتيه مَن يشاء». ثم سكتت وقد تحققت أن الرئيس ممن لا يرجى إقناعه، وخافت أن يكون عليها بأس بعد ما جاهرت لديه بميلها إلى العرب، ولكنها اطمأنت إذ تذكرت أن حديثها معه لن يُذاع لأنه من قبيل سر الاعتراف».

عادت سالمة بعد خروجها من عند الرئيس إلى الغرفة التي أعدوها لها فباتت ليلتها، ونهضت في الصباح معتزمة السفر، فأرسلت في طلب حسان فقيل لها إنه لا يستطيع سفراً لجرح أصابه في رأسه فذهبت إليه بنفسها فرأته راقداً، وقد شد رأسه بمنديل والتعب ظاهر في وجهه، فسألته عن حاله فقال: «لقد أصاب ذلك الشاب مني مقتلاً بهراوته، ولولا لطف الله لأودى بحياتي، ولا أدري لاعتدائه هذا سبباً».

ولم تكن سالمة تخفي على حسان أمراً وهو خزانة أسرارها، فقصت عليه حكاية الشاب واستطردت إلى ما ترتب على ذلك من حديث بينها وبين الرئيس إلى أن قالت: «ولا بد من الإسراع في المسير إلى بواتيه ثم إلى تورس قبل أن يُفسد الأمر علينا، والمسلمون

في انتظارنا على أحر من الجمر».

فقال: «لو استطعت النهوض ما أمسكت عن السفر. فإذا شئت المسير وحدك على أن ألحق بك حالما أستطيع الركوب، فسيري على بركة الله».

فأطرقت سالمة مترددة بين أن تمكث بضعة أيام ريثما يشفى حسان وبين أن تذهب وحدها، واستقر رأيها أخيراً على أن تتوسط في الأمر فقالت لحسان: «سأبقى في انتظارك هنا إلى الغد، فإذا شفيت واستطعت الركوب سرنا معاً، وإلا فإني أسير وحدي». فأثنى عليها وقال: «إذا جاء الغد ظهرت عاقبة الجرح، فإذا لم تصبني الحمى كان الشفاء قريباً بإذن الله».

وعنيت سالمة بمعالجة جرح حسان عناية كبيرة، لأنها كانت تقدر انقطاعه لخدمتها أعواماً، ولأنها في حاجة إليه في سفرها. فذهبت إلى الرئيس وطلبت إليه أن يأمر باستدعاء طبيب لفحص الجرح ومعالجته، فاستدعى راهباً كان قد تفقّه بالطب، وكان أهل الدير يرجعون إليه في أمثال هذه الحوادث وأوصاه بمعالجته والعناية به، فذهب الراهب إليه مع سالمة، وما كاد يشاهد الجرح حتى زم شفتيه وأبرزهما ورفع حاجبيه، وكانت سالمة تراقب ما يبدو منه فلما رأت ذلك خفق قلبها خوفاً على حسان ولكنها لم تظهر اضطرابها بل سكتت لترى ما يقوله الطبيب، فالتفت إلى راهب آخر كان في خدمته وأومأ إليه أن يأتي «بالزجاجة» فذهب ثم عاد ومعه زجاجة وكأس. وكان الطبيب في أثناء ذلك قد قصّ الشعر عن رأس الجريح وأكثره متلبد متلاصق من الدم المتجمد عليه وقد انبعثت منه رائحة كريهة، ثم صبّ الطبيب من الزجاجة شيئاً كالخمر لوناً ورائحة، واستعان بالراهب الآخر على غسل الجرح فإذا هو طويل عميق فازداد قلقها

ولكنها تجلدت لتسمع رأي الطبيب.

وربط الطبيب الجرح باللفافة وأشار إلى حسان أن يستلقي ويستريح ليرى ما يكون من جرحه في الغد، ثم تركوه وخرجوا. فتقدمت سالمة إلى الطبيب تسأله رأيه، فقال: «لقد أبطأنا بالعلاج، وكان يجب أن نغسل الجرح عقب الإصابة، وعلى كل حال لا يمكننا معرفة النتيجة قبل غد».

فاستعاذت سالمة بالله، وصبرت حتى صباح اليوم التالي، ثم بكرت بالذهاب إلى حسان فوجدته نائماً، ونادته فلم يجبها، فجست يده فرأتها شديدة الحرارة فعلمت أنه في غيبوبة من شدة الحمى، فاستدعت الراهب الطبيب. فلما جاء وفحصه قال: «إنه في غيبوبة الحمى، وهو في خطر حتى يفيق!».

فقالت: «ومتى يفيق؟».

قال: «لا بد من الانتظار يوماً أو يومين، وعلى الله الشفاء».

فارتبكت سالمة ووقعت في حيرة من أمرها وخافت أن يُصاب حسان بسوء، فقضت ذلك اليوم كأنها على جمر الغضا، وهي تصلي وتتضرع إلى الله أن يشفيه، وباتت ليلتها حائرة لا تدري أتنتظر حتى ترى ما يكون من أمره أم تسير وحدها؟

ثم رأت أن بقاءها لا ينفعه، وإن أهل الدير أكثر عناية به منها، فعزمت على السفر في الغد على أن توصي به الرئيس والطبيب.

فلما أصبحت سارت تواً إلى حسان فرأت الراهبين في خدمته، وهو ما زال غائباً عن رشده، فسألتهما عن حالة فقال أحدهما: «أراه قد تندى بالعرق قليلاً وأظنها علامة حسنة تبشّر بالخير». فذهبت إلى الرئيس وأخبرته باضطرارها إلى السفر العاجل، وأوصته بحسان،

فبعث إلى الطبيب وبالغ في توصيته، ولما خرج الطبيب تقدمت للرئيس راجية أن يرسل معها من يصحبها إلى بواتيه، وأخرجت من جيبها دنانير دفعتها إليه باسم الدير، فأجابها الرئيس إلى رغبتها وأمر راهباً من رهبانه أن يرافقها إلى حيث تشاء. ولما تأهبت للمسير ذهبت إلى حسان لتراه قبل ذهابها فرأته على حاله، وخرج الرئيس لوداعها حتى باب الدير فقالت له: «إذا منّ الله على حسان بالشفاء فأبقه عندك ريثما أعود، فإني عائدة على عجل، فوعدها بذلك راضياً إذ نزلت من نفسه منزلاً رفيعاً لهيبتها وتعقلها وكرمها. وكان خدم الدير قد أعدوا فرسها وأعدوا لرفيقها الراهب بغلة من بغال الدير، عليها خرج فيه بعض الأطعمة الجافة زاداً لهما في الطريق، فركبا وسارا والراهب دليلها. على أن البغلة لو تركت لنفسها لم تخطىء الطريق إلى بواتيه ومنها إلى تورس لكثرة ما سارت إليهما. وكانت سالمة قبل خروجها قد التفت برداء أسود فأصبحت كأنها من راهبات تلك البلاد، وزادها شبهاً بهن اصطحابها ذلك الراهب.

ـ ١٠ ـ
شبح غريب

كان الوقت ضحى حينما غادرت سالمة الدير ومعها الراهب، وقد توجها شمالاً في طريق بعضه مطروق وبعضه غير مطروق، وكانت سالمة تستغرب ما تراه من المنازل المهجورة والكروم المتروكة، وهي تعلم أن أهل القرى إذا وقعت حرب لجأوا إلى المدن يحتمون بأسوارها، ولكنها رأت ما يدل على المهاجرة القريبة كأن أهل تلك الحقول تركوها بالأمس، فقالت في نفسها لا بد من حادث طرأ على هذه البلاد. فالتفتت إلى الراهب وهو على بغلته بجانبها وقالت: «ما لي أرى الحقول مهجورة على هذه الصورة؟».

قال: «لا أظنك تجهلين ما نحن فيه من الإحن بسبب هجوم العرب على بلادنا، وأهل القرى ليس لديهم حصون تحميهم من السلب والنهب؟».

فقالت: «ولكن العرب لا يزالون بعيدين عن هذه القرى، وربما لا يستطيعون الوصول إليها، فكيف هجرها أهلها؟».

قال: «إن خوف أهل القرى يا ابنتي ليس من جند العرب فقط، بل هم يخافون جند الافرنج أنفسهم، لأنهم إذا مروا بقرية نهبوها وأذلوا أهلها وخربوا منازلها وليس مَن يردعهم! ويلوح لي أن أهل هذه القرى علموا بقرب مجيئهم ففروا من وجوههم لا أدري إلى أين، ولعلهم لجأوا إلى البلاد البعيدة عن الطريق الممهد ريثما يمرون».

وكانت سالمة تسمع كلام الراهب وترى فيه ما يبشرها بنجاح مهمتها، ثم لفت نظرها ظهور شبح فارس قادم من بعيد، مولياً وجه جواده إلى الجهة التي هما سائران إليها. ولما رآها الراهب تنظر إلى ذلك الشبح وجه التفاته إليه وأخذ يتفرس فيه فقالت له: «ما ظنك بهذا الفارس؟».

قال: «يظهر من قيافته أنه من الافرنج، ولا يمكننا البت في ذلك إلا بعد رؤية وجهه، وأراه يقترب منا، فإذا دنا رأيناه وعرفناه أو سألناه عن حاله».

وما زال الفارس يقترب منهما حتى وقعت العين على العين، فإذا هو ملثم لا يظهر من وجهه إلا العينان، فحياه الراهب فلم يرد التحية، ولكنه تفرس في وجه سالمة وثوبها وفرسها، وحول عنان جواده وارتد راجعاً! فلما رأت سالمة ذلك قلقت وحسبت لهذا الأمر ألف حساب، ولكنها خافت أن يبدو ذلك للراهب فيسيء الظن بها،

فتجلدت وتظاهرت بعدم الاكتراث وقالت متضاحكة: «لعل الفارس خاف من أثواب الرهبنة».

فقال الراهب: «لا أدري يا ابنتي ما الذي خوفه! ولكنني أخشى عاقبة رجوعه على هذه الصورة، وكأنه جاء للبحث عنا أو عن أحدنا، فلما رأى ضالته عاد لإبلاغ المهمة!».

ولم تكن سالمة تظن غير ذلك ولكنها ظلت على تجاهلها ووجهت عنايتها إلى الإفلات مما قد ينصبوه لها من المكايد قبل وقوعها فيها، فغيرت مجرى الحديث وقالت: «وهل نحن بعيدون عن بواتيه؟».

قال: «إذا واصلنا السير بهذه السرعة فربما وصلنا إليها صباح غد».

فقالت: «وهل ترى المسير ليلاً، لعلك تتعجل العودة إلى الدير. وعلى كل حال لا مانع عندي من السير ليلاً، ما لم يكن علينا بأس من ذلك».

فقال: «لست مستعجلاً بالعودة، على أن المسير ليلاً لا خطر منه علينا لا سيما أني أعرف أهل البلاد ويعرفونني، والليلة مقمرة، فإذا شئنا نزلنا عند العشاء في دير أعرفه خلال الطريق فنتناول الطعام وننام قليلاً، ثم ننهض في نصف الليل فنستأنف السفر إلى بواتيه، فنبلغها عند الضحى. وقد أمرت أن أكون في خدمتك حيثما تسيرين».

فأعجبها رأي الراهب ورأت أنها متى وصلت إلى بواتيه كان لها من أسقفها ما يقيها غائلة الجواسيس، لأنها تحمل إليه توصية من أسقف بوردو، ومتى دخلت الدير الذي هو فيه فلن يجرؤ أن يمسها بسوء، وعلى هذا استحسنت رأي الراهب ووافقت على أن يواصلا

السير بالليل مع النزول بالدير الذي أشار إليه، فسارا وهي تتلفت إلى الوراء خلسة، كأنما تتوقع أن ترى أناساً مسرعين في طلبها، أما الراهب فكان مستغرقاً في صلاة يتلوها وهو على ظهر بغلته.

قضيا بقية النهار وهما يركضان الدابتين، وغربت الشمس قبل أن يدركا الدير المقصود وكان القمر في ربعه الثالث، فحان وقت العشاء وهو لم يطلع بعد، فسارا ساكتين في الظلام وسالمة تسوق جوادها وراء بغلة الراهب دون أن ترى الطريق، وسكنت الطبيعة فلم يكن يسمع هناك إلا وقع الحوافر، تارة على الحصى وطوراً على العشب، وقد تعب جوادها ولم يعد يستطيع العدو، في حين ظلت بغلة الراهب حافظة لنشاطها والراهب يمسكها عن العدو لئلا تسبق الجواد.

وفيما هما في ذلك وأبصارهما شاخصة إلى ما يتراءى لهما من رؤوس التلال، لاح لهما نور على مرتفع، فهمت سالمة بأن تستفهم الراهب عنه ولكنه ابتدرها قائلاً: «لقد صرنا على مقربة من الدير يا سيدتي».

ففرحت سالمة بذلك وكادت تنسى ما كانت فيه من الاضطراب، ثم واصلا سيرهما صعوداً على الآكام والبغلة دليلهما في الظلام وكأنها تسير في ضوء النهار، والجواد يتبعها وسالمة ممسكة بزمامه خوفاً من أن تزل قوائمه فزادها ذلك تعباً. وبعد مسيرة ساعة على هذه الصورة وصلا إلى سفح الجبل، ولكن النور الذي شاهداه بقي بعيداً كما رأياه أول مرة. وكانت سالمة تسمع صدى حوافر جوادها فتتوهم أن وراءها فرساناً جادين في أثرها، وتستعيذ من شر ما تتوقعه بذكر اسم السيد المسيح ورسم إشارة الصليب، وأصبحت لفرط قلقها لا تجرؤ على الالتفات إلى الوراء.

وأما الراهب فعاد إلى الصلاة والدعاء، وبعد قليل رأت سالمة النور يقترب منهما فتحققت أنهما صارا على مقربة من الدير، فنشطت ونسيت التعب ونادت الراهب قائلة: «لعلنا في آخر رحلتنا يا أبي؟».

قال: «نعم، لقد بلغنا الدير يا ابنتي فاطمئني».

ووصلا إلى سطح مستو ينتهي ببناء عالٍ عرفت سالمة من هيئته أنه الدير المقصود، ثم رأت نفسها تقترب من ذلك البناء حتى صارت بجانب الباب. وتوارى النور الذي كانت تراه من بعد، فترجل الراهب ومشى إلى الدير وزمام البغلة في يده وسالمة ما زالت على جوادها، حتى وقف الراهب بباب الدير فأمسك بحبل مدلى بجانبه وشده فسمعت قرع الجرس، ثم أطل بواب الدير من كوته، وقبل أن يسمعا نداءه صاح الراهب به باللغة اللاتينية أن «افتح سريعاً». فكان كلامه بتلك اللغة أحسن وسيلة للتعارف، وفتح الباب وخرج منه راهب طويل القامة دقيق العضل، فكلم الراهب باللاتينية، ودعاهما إلى الدخول فترجلت سالمة ودخلت إلى غرفة الأضياف وهو يرحب بهما ويسأل الراهب عن سبب تأخره حتى دخلا الغرفة، فغاب البواب عنهما قليلاً ثم عاد بشمعة مضيئة مغروسة في شمعدان من خشب عليه أثر الشمع القديم، فوضعه في الغرفة وتركهما ثم عاد فجاءهما بطعام، فجلست سالمة وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً ونسيت ما هي فيه من الجوع فقدم لها الراهب الطعام في قصعة وهو مؤلف من قطع من الدجاج المطبوخ، فتناولت منه قليلاً لأنها كانت أحوج إلى النوم منها إلى الطعام ثم شربت قليلاً من الخمر، وتوسدت الفراش ولم توص الراهب بإيقاظها لشعورها بشدة حاجتها إلى الراحة.

وأما الراهب فلما رآها نامت صعد إلى غرفة البواب فجلس

عنده قليلاً، وتحادثا في شؤون كثيرة معظمها خارج عن الموضوع الذي يهم سالمة، وفي آخر السهرة عرف الراهب رفيق سالمة من زميله بواب الدير أقرب طريق إلى مدينة بواتيه، وكان هو الطريق الذي سلكه هو وسالمة. ثم ذهب إلى فراش أعدوه له في غرفة أخرى فنام، ولم يكد يتوسد الفراش حتى أحس بالتعب وغلب عليه النعاس فاستغرق في النوم ولم ينهض إلا عند الفجر، فهرول إلى سالمة فأيقظها وذهب إلى مربط الدواب فأحضر الجواد والبغلة فركبا وسارا يلتمسان بواتيه.

وطلعت الشمس وهما بين الجبال لا يريان ما وراءها، وسالمة تحسب نفسها تائهة، ولولا تعويلها على معرفة الراهب بتلك الجهات لخافت أن يضلا الطريق، ووصلا عند الضحى إلى رابية أطلا منها على سهل بعيد رأيا في بعض جوانبه مدينة في منتصفها قبة عالية في قمتها صليب، فعرفت سالمة أنها قبة كنيسة بواتيه فانشرح صدرها ونسيت تعبها وقلقها وانبسط وجهها وقالت: «أليست هذه بواتيه؟».

قال: «نعم يا ابنتي هذه بواتيه، وبعد قليل ندخلها بإذن الله».

فقالت: «من أين ندخلها؟ إني أرى حولها سوراً».

قال: «ندخلها من بابها الجنوبي الذي ترينه وأمامه تلك الشجرة الكبيرة».

انشرح صدر سالمة لوصولها إلى بواتيه، لاعتقادها بألا خطر عليها هناك. ولكنها لم تكد تصل إلى الباب حتى رأت جماعة من فرسان جند الافرنج يخرجون منه وفي مقدمتهم فارس مثلهم، وعلى رؤوسهم الخوذ وعليهم الأدرع، وقد تقلدوا السيوف المستقيمة على مناطق من جلد وتحت الأدرع جبب قصيرة إلى الركب، وقد لفوا على سيوفهم لفافات من جلد، وعلقوا بأكتافهم جعب النبال، وتلثموا

بخمر من الحلق المشتبك، ولم يظهر من وجوههم إلا العيون والأنوف والأفواه وشيء من اللحى! فلما رأت سالمة قائدهم الملثم عرفت فيه جاسوس الأمس فخفق قلبها لرؤيته، ثم ما لبثت إن رأته قادماً نحوها والفرسان يتبعونه على عجل. فازداد اضطرابها واستعاذت بالله وأدنت جوادها من الراهب كأنها تحتمي به أو تنوي سؤاله عن شيء، وقد امتقع لونها وتحققت الخطر المحدق بها، وإذا بالفارس الملثم قد أومأ إلى رفاقه وأشار إليها بإصبعه كأنه يقول: «هذه هي فاقبضوا عليها!».

وسرعان ما أحاطوا بها وبالراهب، فسألهم هذا عن غرضهم فقالوا: «قد أمرنا بالقبض عليكما والسير بكما إلى حضرة الدوق أودو».

فقال: «وما الذي دعا إلى ذلك وما نحن من أهل السياسة ولا الحرب، فإني راهب وهذه امرأة..؟ ما أظنكم إلا مخطئين!».

فقال كبيرهم: «لسنا مخطئين، فتعاليا طوعاً وإلا أخذناكما بالإكراه».

فلما تحققت سالمة وقوع الخطر ورأت نجاتها مستحيلة من بين أيدي أولئك الفرسان تجلدت وقالت: «أظنكم تلتمسون القبض علي وليس على هذا الراهب، فأطلقوه وها أنذا سائرة معكم إلى حيث تشاؤون».

فتعجب الراهب من جرأتها ورباطة جأشها، وحدثته نفسه بأن يرفض النجاة بنفسه ويطلب البقاء معها، ولكنه رأى بقاءه لا ينفعها، وخاف لوم رئيسه فسكت ليرى ما يكون منهم، فإذا بالفارس الملثم قد خاطب كبير الفرسان همساً، فأشار هذا إلى الراهب بالانصراف، وأحاطوا بسالمة وساروا بها دون أن يلتفتوا إلى الوراء.

أما هي فلما رأت نفسها في قبضة الافرنج ولا حيلة لها في النجاة، تذكرت أنها تحمل رسالة من أسقف بوردو إلى أسقف بواتيه

فخافت إذا فتشوها أن يعثروا على الرسالة فيقع هذا الأخير تحت طائلة غضبهم، فاحتالت ورمت الرسالة في مكان لا يراها فيه أحد. ثم تذكرت الحافظة التي فيها كل سرها فخفق قلبها خوفاً من وقوعها في أيديهم، وجرها ذلك إلى تذكر ابنتها وكيف تركتها في معسكر المسلمين، كما تذكرت ميمونة وما كانت تخافه من دسائسها، فرجح عندها أن ما أصابها إنما كان بإيعازها، إذ ليس في اكيتانيا كلها مَن يعرفها أو يسيء الظن بها سواها. ولكنها عادت فتذكرت أنها خرجت في تلك المهمة سراً ولم تكاشف أحداً بخروجها غير مريم، فقضت وقتاً في تلك الهواجس وهي سائرة على فرسها والفرسان محيطون بها وفي جملتهم ذلك الجاسوس الملثم. وكانت تسترق النظر إليه لعلها تستطيع معرفته، فينكشف لها سر الأمر، ولكنه كان شديد الحرص على لثامه، على أنها تفرست فيه فرأت أنه وإن يكن في الظاهر إفرنجياً إلا أن ما كان منه تحت ردائه القصير ليس افرنجياً! ثم لاحظت سمرة ما انكشف من ساقية مع أن لون الافرنج مشرّب بالحمرة، فتحققت أنه جاسوس من خدم ميمونة، فندمت لأنها لم تكشف أمرها للعرب لينجوا من حبائلها، وخشيت أن توقعهم في شراكها أو تفسد أمرهم فيذهب سعيها هي في نجاحهم أدراج الرياح، وتصورت ما يكون حال ابنتها ووحيدتها إذا فشل المسلمون.

وما زالوا سائرين بضع ساعات وسالمة تتهيب من مقابلة الكونت أودو لئلا يعرفها فيكبر جرمها عنده ويكون ذلك شر المصائب.

— ١١ —
عند الدوق أودو

وصلت سالمة مع أولئك الفرسان عند الأصيل إلى كرم وراءه

سهل واسع، رأت في منتصفه قصراً كبيراً حوله الخيام يموج بينها الناس، وفوق القصر علم أدركت أنه للدوق أودو فتحققت أنها وصلت إلى المكان المقصود، وإن القصر لبعض أغنياء البلاد، وقد نزل به بعد أن هجره أهله.

وما زال الفرسان سائرين بها حتى وصلوا إلى باب القصر فترجلوا وترجلت، فسلموها إلى الحراس الواقفين بالباب فدخلوا بها إلى القصر، وهي مرتدية ثوبها الأسود ومقنعة بخمارها الأسود، فمشت بقدم ثابتة بين الحراس حتى تجاوزت باحة البيت إلى قاعة وقف الحراس ببابها، فدخل أحدهم ثم عاد، وأشار إليها أن تدخل فدخلت إلى قاعة فسيحة على جدرانها بعض الرسوم الجميلة، ولم ترَ على أرض القاعة طنافس ولا مقاعد سوى بضعة كراسي مما يحمل الجند في سفرهم، يتوسطها كرسي جلس عليه رجل نحيف البدن ممتقع اللون، أشقر الشعر أشيبه، أزرق العينين جاحظهما، غائر الفم بارز اللحية، منخسف الخدين بارز الوجنتين، وعلى رأسه قبعة عنابية اللون مزركشة بالذهب، وفي مقدمتها فوق جبينه حلية مرصعة بالماس والياقوت على هيئة الصليب، وعلى كتفيه بردة زرقاء مزركشة بالقصب تغطي ثيابه وتحتها جبة قصيرة من القطيفة حولها منطقة عريضة منسوجة بالذهب وعليها صور بعض الطير، وحول ساقيه لفافة من جلد ملون له أهداب من الفرو، ونعاله مشدودة إلى قدميه بسيور من نسج الشعر المتين، وكان الكرسي ذا جناحين وقد أسند زنديه إلى جناحي الكرسي، وظهرت تحت بردته سلسلة ذهبية مدلاة من عنقه فيها صليب من الذهب، فلم تشك سالمة في أنه الدوق أودو لأنها كانت تعرفه جيداً كما تعرف بعض الذين بين يديه من أمراء مجلسه.

وكان أودو قبل دخول سالمة قد تناول من بعض جلسائه قدحاً فيه خمر وهَمّ بشربه، فلما أمر بإدخالها وضع القدح على المائدة أمامه بين الأقداح الأخرى ومسح لحيته بيده ثم جعل يسرحها بأنامله، فدخلت سالمة وهو على تلك الحال، فلما وقع نظره عليها ظهرت البغتة في عينيه، ولولا اصفرار وجهه الطبيعي لبدت أيضاً في امتقاع لونه! ولم تكن سالمة أقل تأثراً منه، ولكنها كانت قد تجلدت وذهبت بغتتها، فوقفت بين يديه وخرج الحراس، ثم أومأ إلى أهل مجلسه فخرجوا جميعاً وبقي هو وسالمة.

فلما رأت سالمة نفسها وحدها معه ازداد قلقها، ثم أشار إليها أن تجلس، فجلست على كرسي بين يديها وهي متحفزة للنهوض. فخاطبها أودو بالافرنجية قائلاً: «إلى هذا الحد بلغ بك الغيظ؟».

فقالت متجاهلة: «وأي غيظ يا مولاي؟».

قال: «أتظنين أني نسيتك يا أجيلا؟».

فلما سمعت لفظ «أجيلا» ارتعدت فرائصها لأنها لم تسمع أحداً يناديها بهذا الاسم من زمن بعيد، ولكنها تجلدت وقالت: «أظن مولاي يريد امرأة غيري».

فضحك وقال: «إذا كانت عيني واهمة، فهل تظنين قلبي واهماً أيضاً؟ هل أنسى أجيلا وقد جرحت قلبي وأساءت إلى سلطاني! ولكنها أساءت إلى نفسها. ألم يكن من التعقل والحكمة أن تقلعي عن ذلك الجنون؟ أليس من العار عليك وأنت مسيحية مولودة في بيت من أكبر بيوت المسيحيين، أن تنصري على أهل دينك قوماً غرباء لا دين لهم ولا ذمام».

قالت وهي لا تزال مطرقة: «لم أفهم يا مولاي مغزى كلامك كأنك تخاطب امرأة غيري، فإن الاسم الذي ناديتني به ليس هو

اسمي، وإنما اسمي سالمة!».

فأغرق أودو في الضحك حتى سمع قهقته كل مَن في القصر، ومد يده إلى المائدة فتناول قدحه وشربه وهو ينظر إلى سالمة وهي لا تزال مطرقة، ثم أعاد القدح فارغاً ومسح فمه بيده وهو يقول: «ما لنا وللإنكار والإثبات؟ أخبريني يا سالمة (كما تسمين نفسك). ما الذي جئت لأجله إلى هذه المدينة، وما الذي فعلته عند أسقف بوردو؟».

فأدركت سالمة أنه مطلع على شيء من أمرها فقالت: «وما الغرابة في زيارة امرأة مسيحية لأسقف كنيستها؟».

قال: «لا غرابة في الزيارة، ولكنني أسألك عما دار بينكما، وعما حملك على الذهاب إليه؟».

قالت: «لقد دار بيني وبينه حديث طويل في شؤون خاصة بي لا تهم أحداً غيري، والاكليروس هم خزانة أسرارنا كما يعلم مولاي».

قال: «لا أسألك عن اعترافك فيما يختص بشؤونك، ولكنني أسألك عما دار بينك وبينه في شأن الافرنج والعرب، والحرب والسلم!».

فلما سمعت تصريحه لم يبق عندها شك في اطلاعه على سرها، فأسقط في يدها ويئست من النجاة، فساعدها اليأس على الجرأة فقالت: «يلوح لي أنك عالم بما دار بيني وبينه فلا حاجة إلى سؤالي!».

قال وهو يظهر الغضب: «أهكذا تكلمين الدوق أودو؟ أبمثل هذه الجرأة تخاطبين دوق اكيتانيا؟».

فظلت سالمة ساكتة، ولكنها ابتسمت ابتسامة فهم أودو منها ما هو أصرح من الجواب، فابتسم وكأنه ندم على التهديد فقال: «تلك

أيام مضت وقد أردنا إرجاعك إلى مثلها فأبيت وأسأت إلى نفسك وإلى ابنتك التي لا ذنب لها فقد أردت لها أن تبيع مثلك ديانتها وكنيستها جزافاً، وأن تقضي حياتها مع المسلمين. ولست أدري ما سر عنادك هذا؟!».

فأيقنت سالمة أن أودو مطلع على كل شيء كأنه كان معها في خيمة عبد الرحمن لما ألقت إليه سرها، واستغربت اطلاعة على تلك الأسرار، ولم تجد خيراً من السكوت أو الإنكار فقالت: «أراك ما زلت تخاطبني بالألغاز والاشارات والتلميح والتعريض، فاعتقد في ما تريد أن تعتقده، وافعل بي ما تريد أن تفعله!».

قال: «الذي أريد أن أفعله يا أجيلا سترينه رأي العين، ولو أنك أظهرت هذه القحة في مجلسي وبين رجال حكومتي لما استطعت الإغضاء عن قتلك، ولكنني أسامحك الآن إكراماً لحبنا القديم. أما الآن فقد تحول ذلك الحب إلى غضب وانتقام، ويكفيني انتقاماً منك أن أريك حبوط مسعاك، فمتى رأيت الأرض مضرجة بدماء العرب والبربر كنت مخيّرة بين أن تموتي حسرة، أو أن نقتلك بالسلاح الذي تختارينه!».

قال ذلك وقد احمرت عيناه ورقصت لحيته من شدة الحنق مع الكظم، وقد يحاول المرء إخفاء عواطفه بالكظم ولكن العينين تبوحان بسر القلب على حد قول الشاعر:

عيناك قد دلتا عيني منك على أشياء لولاهما ما كنت رائيها
والعين تعلم من عيني محدثها إن كان من حزبها أو من أعاديها!

فلما رأت سالمة غضب أودو وتصريحه بما في قلبه من الغيظ مع علمها بأنها أسيرة في يديه، رأت السكوت أولى لعلمها أن ما توهمه أودو في نفسه من الاقتدار على العرب محال وقد غلبوه في

مواقع كثيرة. فلما رآها لا تزال ساكتة ازداد حنقاً فقال لها: «أراكِ لا تزالين صامتة؟».

فقالت وهي تظهر التجلد وعدم الاكتراث: "وماذا عسى أن يكون جوابي لأمير حوله الجند والأعوان، والعدة والسلاح، يهدد امرأة وحيدة لا نصير لها ولا سلاح في يدها؟!".

وهمَّ بأن يجيبها، ولكنه سمع على الباب قرعاً عنيفاً، فاستغرب ذلك، لعلمه بأن أحداً من أعوانه لا يجرؤ على إقلاق راحته في مثل هذه الحال، فنهض غاضباً وأسرع إلى الباب وطيلسانه يجر وراءه، وفتح الباب وصاح بمن وجدهم من رجال خاصته قائلاً: «ما الذي حملكم على هذا القرع العنيف؟».

فقال أحدهم: «العفو يا مولاي، إننا فعلنا ذلك بإشارة هذا الرسول فإنه قادم من سفر، ومعه رسالة مستعجلة أوصاه مرسلها بأن يسلمها إلى حضرة الدوق حال وصوله إلى معسكره، وبأن يوقظه من نومه إذا اتفق أن وجده نائماً!».

فبغت أودو وقال: «أين الرسول؟ دعه يدخل».

فدخل رجل عليه لباس الافرنج ولكن سحنته تدل على أنه من بربر إفريقية، فلما شاهدته سالمة عرفت أنه من جند المسلمين جاء متنكراً، أما هو فحالما دخل مد يده إلى جيبه وأخرج لفافة دفعها إلى أودو، فتناولها هذا ورجع إلى كرسيّه فجلس عليه وفضّ اللفافة، فوجد بها منديلاً عليه كتابة، فأخذ في قراءتها حتى أتى على آخرها، ثم عاود قراءتها ثانية والبغتة ظاهرة في وجهه!.

وكانت سالمة تتغافل عن ملاحظات حركات أودو وتسترق النظر إلى الرسول فإذا هو يسترق النظر إليها وكأنه عرفها. وأما هي فعرفت أنه من البربر، ورأت في عينيه حوَلاً شديداً فتذكرت أنها رأته

في معسكر عبد الرحمن، فأدركت أن الرسالة من ميمونة، وودت لو يُتاح لها التخلص من ذلك الأسر لعلها تستطيع القيام بخدمة العرب.

ولما فرغ الدوق أودو من تلاوة الرسالة تظاهر بالإطراق والتفكير وأخذ يختلس النظر إلى سالمة ليراقب حركاتها وما قد يبدو في وجهها فرآها ساكتة، وأحب أن يعود إلى البحث في شأنها، لكنه رأى في ذلك الكتاب ما يدعو إلى سرعة العمل، فأومأ إلى الرسول فخرج، ثم صفق فدخل إليه أحد غلمانه وبيده حربة ووقف متأدباً، فأشار إليه أن يأخذ سالمة إلى غرفة منفردة من غرف القصر يحبسها فيها، ثم التفت إليها قائلاً: «ما دمت مصرّة على تجاهلك، فاذهبي إلى حيث يقودك هذا الحارس، وسننظر في شأنك!».

فنهضت سالمة ومشت ولم تبد جواباً، فسار بها الحارس حتى خرج من باحة القصر إلى دهليز سارا فيه إلى باب أدخلها فيه إلى غرفة ليس فيها إلا حصير وطنفسة، ولها نافذة تطل على معسكر الافرنج ثم تركها وأغلق الباب عليها، فظلت واقفة تطل من النافذة على الخيام المنصوبة وبينها الرجال في ذهاب وإياب، حتى إذا تعبت من الوقوف جلست على الطنفسة، وقد أهمها حبسها وما يترتب عليه من عرقلة مساعيها، وودت لو تطلع على تلك الرسالة لتعلم ما دبروه لها ولجند العرب، ولكنها قالت في نفسها: «إذا لم يكن من سبيل إلى خروجي من هذا المعسكر فما الفائدة من الاطلاع؟».

وظلت على تلك الحال إلى الغروب، دون أن تذوق طعاماً، وكانت لفرط اضطرابها لا تشعر بمرور الوقت، فلما غابت الشمس اسودت الدنيا في عينيها وتذكرت ابنتها وميمونة وعبد الرحمن، ثم تذكرت الحافظة التي بها سرها فتفقدتها تحت ثيابها، ولكنها لم تجد فائدة من بقائها وهي في تلك الحال بعيدة عن كل نصير، ولا سيما

خادمها الذي تركته بين الحياة والموت، وغلب على ظنها أنه لم ينج من الحمى. والإنسان إذا أصابته نائبة توقع استهدافه لسواها، وإذا صادف توفيقاً في عمل خيّل إليه أن الأقدار لن تأتيه بغير ما يرضاه!

وشغلتها هذه الهواجس عما في القصر من ضوضاء الجند بين خارج وداخل، وعن ضجيج الناس في المضارب، ولا سيما الغروب وقد نفخ في البوق يدعوهم إلى الطعام.

وفيما هي في ذلك سمعت قلقلة قفل الباب فأجفلت، ونظرت إلى الباب فرأت من ثقبه نوراً في الخارج، ثم فتح الباب ودخل منه شاب بلباس الافرنج في إحدى يديه شمعة مضيئة وبالأخرى قصعة مغطاة بشيء كالخبز فعلمت أنهم جاؤوها بالطعام، فأحست بالجوع، ولكنها لم تتمالك أن صاحت: «مَن أنت؟».

فأجابها الشاب بصوت هادىء: «قد جئتك يا سيدتي بطعام، بأمر سيدي الدوق، وقد أوصاني بأن ألح عليك لتأكلي من هذا الطعام فإنه من طعامه الخاص».

فاستغربت سالمة هذا الإكرام من أودو بعد ما دار بينهما وبينه، ولكنها سكتت منتظرة ما يفعله الشاب، فوضع القصعة على الطنفسة ورفع الخبز فرأت تحته شيئاً كالطيور المطبوخة وقد فاحت منه رائحة يشتهيها الشبعان فكيف بالجائع، ولكنها أمسكت رغم جوعها مخافة أن يكون في الطعام سم!. وتفرست في وجه الغلام لعلها تقرأ فيه ما يشجعها أو يرجعها، وكانت الشمعة ما زالت في يده وقد وقعت أشعتها على وجهه، فلاحظت اختلافه في سحنته ولون بشرته عن أهل البلاد مع أن كلامه افرنجي ورأته أسود العينين براقهما، خفيف العضل، أسمر البشرة، خفيف اللحية، صغير العارضين لحداثته، وملامحه كلها تنطق بأنه ليس افرنجياً، فلم تستغرب ذلك لعلمها

باستخدام الأسرى والمماليك من أمم مختلفة في أكثر القصور، على أنها لم تجد في وجه الغلام ما يدعو إلى الخوف، وأرادت أن تتحقق ذلك من سماع كلامه فسألته: «ما اسمك أيها الشاب؟».

قال: «اسمي رودريك يا سيدتي».

فلما سمعت الاسم خفق قلبها وأجفلت، وصعد الدم إلى محياها بغتة، لكنها تمالكت نفسها وحولت نظرها إلى القصعة، ومدت يدها إلى الخبز وتشاغلت بتقطيعه في هدوء وسكينة، والغلام واقف وقد لحظ منها ذلك الاضطراب فلم يفهم له سبباً سوى أنها تحتاج إلى أمر منعها الحياء من طلبه، وتنبّه إلى أنه لم يأتها بماء للشرب فابتدرها قائلاً: «أظنك تحتاجين إلى الماء».

ثم وضع الشمعة على البساط وخرج وترك الباب مفتوحاً، ففهمت سالمة أن مكان الماء قريب، ولم تمض هنيهة حتى سمعت خفق نعاله عائداً مسرعاً، ثم دخل وفي يده كوبة فيها ماء وضعها أمامها وهو يبتسم، وكانت قد سكن اضطرابها، فلما أعادت النظر إليه أحست بارتياح لرؤيته واستأنست به فشكرت عنايته، وودت لو يتولى أمرها دائماً.

أما هو فوضع الكوبة وخرج، وأغلق الباب وراءه إغلاقاً خفيفاً كأنه عائد بعد برهة وجيزة. فتناولت سالمة الطعام، وشربت الماء، ولم تنقطع عن التفكير فيما آنسته من ذلك الغلام من البراءة وخفة الروح. ولبثت بعد فراغها من الطعام تنتظر رجوعه، ثم سمعت خفق نعاله، وما لبث أن دخل يحمل غطاءً ثقيلاً ووسادة فألقاهما على الأرض وهو يقول: «هذا غطاء ووسادة للرقاد أوصى لك بهما مولاي الدوق".

فتناولتهما وقالت له: «أشكر عنايتك أيها الشاب وأرجو أن

أستطيع مكافأتك، وإني لأرجو ألا يتولى أمري هنا أحد سواك، إن كان هذا مما يُستطاع».

فأجابها رودريك وهو يبتسم: «وأنا أرجو ذلك أيضاً، فإني لا أحب أن يتولى أمرك مَن لا يعرف قدرك فلا يُحسن خدمتك».

فخيّل إلى سالمة أنه عارف ببعض شأنها فتجاهلت وسكتت. أما هو فإنه أخذ القصعة والكوبة وتحوّل نحو الباب وهو يقول: «وستريننني رهن إشارتك وسأبذل جهدي في خدمتك، فليطمئن قلبك». ثم أغلق الباب وخرج.

وشعرت سالمة بارتياح أنساها بعض اضطرابها، فافترشت بعض الغطاء وتغطت بباقيه، وتوسدت تلتمس الرقاد، وكانت قد أحست بالتعب على أثر ما قاسته في ذلك اليوم وما قبله، فغلب عليها النعاس فنامت نوماً عميقاً.

ولما أفاقت جاءها رودريك بطعام الصباح وتولى خدمتها في كل ما تحتاج إليه، وتفرست فيه على ضوء النهار فتحققت أن ملامحه أقرب إلى العرب منها إلى الافرنج. ولكنها رأته يتكلم الافرنجية مثل أهلها كما أن اسمه افرنجي، فاعتزمت أن تستطلع منه حقيقة أمره حينما تحين فرصة لذلك.

قضت سالمة في الأسر أياماً وهي تستطلع موقف أهل القصر منها، لعلها تجد سبيلاً إلى الفرار، فلاحظت العناية بحراستها إلى حد التضييق عليها، ومراقبة حركاتها. ولم يفتها أن أودو شديد الحرص على إبقائها في السجن. فلما طال مكثها على تلك الحال ملت الإقامة وزاد قلقها على جند العرب لعلمها أنهم في انتظارها على مثل الجمر، لكنها واثقة من فوزهم، ومن أنهم سيدخلون بواتيه فاتحين. ولم تكن تخاف عليهم أودو وجنده، فقد غلبوه غير مرة. ولكنها كانت تخاف

على مريم غدر ميمونة، ورجحت أن الكتاب الذي جاء به ذلك الأحول إنما هو منها، واعتزمت أن يكون هذا مما تستطلع فيه رودريك.

وأصبحت ذات يوم فسمعت ضوضاء الجند على غير المعتاد فأطلت من النافذة فرأتهم يقوضون الخيام تأهباً للسفر، فقلقت وأوجست خيفة من ذلك الانتقال، لكنها رأت في ذلك وسيلة إلى محادثة رودريك عساه أن يكشف لها شيئاً من ذلك السر. فلما جاءها بطعام الصباح ابتدرته قائلة: «ما لي أراكم تتأهبون للرحيل، أمسافرون جميعاً أم بعضكم باقون هنا؟».

قال: «إننا مسافرون جميعاً وقد أمر الدوق أن تسيري معنا».

قالت: «وإلى أين؟».

قال: «إلى توروس على نهر لوار».

فلما سمعت قوله استغربت ذلك الانتقال لعلمها أن النهر المذكور هو آخر حدود اكيتانيا وإن البلاد التي وراءه تحت سلطة شارل دوق أوستراسيا، الذي كانت تعرف أن بينه وبين أودو منافسة ومزاحمة على النفوذ وربما كان شارل أكثر حرصاً على صد أودو عن بلاده، من حرص العرب على فتح اكيتانيا فقالت: «أأنت على يقين من ذهابهم إلى توروس؟».

قال: «نعم يا سيدتي وقد سمعت الأوامر الصادرة لنا بالذهاب».

قالت: «ألا تعلم بما بين الدوقين من المنافسة؟».

قال: «بلى.. ومَن يجهل ذلك؟».

قالت: «فما الذي يفعله الدوق أودو في تورس إذن؟ ألا يخاف

عدوه شارل؟».

فلما سمع رودريك سؤالها تلفت إلى الباب كأنه يحاذر أن يراه أحد، ثم نظر إلى سالمة وهو يقول بصوت منخفض: «إن لذلك سراً لم يطلع عليه إلا نفر قليلون من هذا الجند، وأخاف إن بحت به أن يلحقني أذى».

فتوسمت في وجه الغلام خبراً مهماً فتاقت نفسها لسماعه، فشجعته وقالت: «وما الذي تخافه من أسيرة سجينة لا يهمها من أمر هذا الخبر أكثر من الاطلاع على شيء طريف، وقد جرأني على سؤالك ما آنسته منك من الرقة واللطف، ومع ذلك ما أظنك أحرص على مصلحة هذا الجند مني لأنك على ما يلوح لي لست منهم».

وتفرست في وجهه لترى أثر كلامها فيه، فرأته بغت وتغيرت سحنته ثم تنهد وقال: «لقد أدهشتني فراستك، فإنك اطلعت في أيام على ما لم يستطع كشفه أحد من أهل المعسكر في أعوام».

فاستبشرت سالمة بذلك التلميح وقالت: «يلوح لي أن فراستي قد صحت. وإذن فنحن معاً نرمي إلى غرض واحد. فأخبرني عما حمل أودو على الذهاب إلى تورس ولا تخف، وأرجو أن يكون لك من وراء ذلك خير».

فقال: «أما السبب في الانتقال، فهو أن العرب حاربونا ونحن بالقرب من بوردو فغلبونا، وقد بلغنا الآن أنهم يتبعوننا إلى هنا».

فقطعت كلامه وقد سرها أن غيابها لم يؤخر العرب عن التقدم في الفتح، وأيقنت أنهم لم يلاقوا في طريقهم مقاومة كبيرة من أهل البلاد، فقالت: «فالافرنج إذن يطلبون تورس فراراً من العرب!».

قال: «قد يكون الأمر كما ذكرت، ولكنهم يطلبون تورس

للدفاع وليس للفرار».

قالت: «وبماذا يدافعون، وعدوهم هناك أشد وطأة عليهم من العرب؟».

قال: «كان الأمر كذلك من قبل، ولكنه أصبح الآن ظهيراً لهم».

فقالت: «وكيف ذلك والمنافسة شديدة بين الدوقين، فكل منهما يطلب السيادة على الآخر بعد أن انجلت الدولة المرونجية التي كانت تجمعهما وتسيطر عليهما؟ وستكون السلطة للفائز منهما على الدوقيات كلها».

قال: «هذا هو الواقع فعلاً، وهذا الانقسام هو الذي مكّن للمسلمين في اكيتانيا حتى وصلوا إلى هنا، وإذا قطعوا نهر لوار أصبحت بلاد أوستراسيا في قبضتهم على أيسر سبيل لأن أساقفتها ناقمون على الدوق شارل نقمة شديدة، وقد يحرضون الشعب على خلعه، فإذا جاءهم العرب وهم على هذه الحال أعانوهم على الفتح».

فلما سمعت سالمة ذلك خفق قلبها سروراً بما ترجوه من فوز العرب، ولكنها لم تثق بصدق تلك الروايات فقالت: «وما سبب نقمة الأكليروس على شارل وهو قائد عظيم».

قال: «السبب يا سيدتي أنه اغتصب أموالهم واستولى على أملاك الأديرة وفرقها على جنده، وأهان الأساقفة بالقصاص، وفضّل بعض صغار الكهنة على كبارهم، ولا يُخفى عليك ما يجر إليه ذلك!».

فلما تحققت غضب الأساقفة على شارل عادت إلى الاستفهام عما دعا إلى نصرة شارل لأودو فقالت: «ولكنني لم أفهم كيف صار

شارل ظهيراً للدوق أودو؟ فهل فعل شارل ذلك من تلقاء نفسه خوفاً من الأساقفة؟».

فقال رودريك: «كلا يا سيدتي، ولكن الدوق أودو لما أيقن بعجزه عن دفع العرب عن بلاده لم يرَ بداً من استنصار عدوه شارل».

فقالت: «وكيف استنصره، وفي استنصاره خروج هذه البلاد من يده لا محالة؟».

قال: «ما أظنه يجهل ذلك، ولكنه فعله مضطراً، فآثر أن يحكم البلاد أمير مسيحي بدل أن يحكمها غرباء عنه ديناً ووطناً. ثم إني لا أظنه استنصره إلا مدفوعاً بمشورة بعض ثقاته».

قالت: «ومَن يجرؤ على هذه المشورة من رجاله؟».

قال: «لم تأته المشورة من هذا العسكر، ولكنني علمت بكتاب جاءه يوم سجنك وفيه تحريض على استنجاد شارل، والظاهر أنه أثر فيه كثيراً لأنه حالما قرأه بعث وفداً إلى شارل يستنجده فأتاه الجواب بالإيجاب».

— ١٢ —

مَن هو رودريك؟

لما سمعت سالمة قول رودريك تحققت أن ميمونة هي صاحبة الكتاب فاستعاذت بالله، وكظمت وتجلدت حتى لا يبدو ذلك في وجهها. ورأت أن تستطلع حقيقة رودريك، فقالت له والاهتمام ظاهر في وجهها: «أراك يا رودريك قد كاشفتني بأمور ذات بال مما يدل على ثقتك بي، فاعلم أن ثقتك في محلها. وإذا كنت تعتقد إخلاصي، فكن على يقين بأني سأبذل جهدي في مكافأتك، على أني لا أزال أعلل نفسي بالاطلاع على حقيقة أمرك فإني لا أراك من أهل هذا المعسكر».

قال: «لا ريب عندي في إخلاصك، ولولا ذلك ما أطلعتك على شيء، والأمير الذي تتمنينه في قرارة نفسك هو الذي أتمناه أنا أيضاً، وذلك ما جرأني على اطلاعك على تلك الأنباء».

فأدركت سالمة أنه من شيعتها، فازدادت ميلاً إلى استطلاع حقيقته، فقالت: «فأطلعني على حكايتك لتتعاون على النجاة بإذن الله».

قال: «ولكني أطلب إليك أن تخبريني عن أمر لاحظته منك أول ما خاطبتك. هل أسألك عنه؟».

قالت: «وما هو؟».

قال: «لما سألتني عن اسمي وعلمت أنه رودريك رأيت في وجهك اثر البغتة، فهل كان ذلك بسبب اسمي أم لأمر غيره؟».

فتظاهرت سالمة بعدم الاكتراث وقالت: «لا أذكر أني بغت لشيء من هذا القبيل!».

فصدقها وسكت.. ولبثت هي تنتظر إجابته عن سؤالها الأول فرأته يلتفت إلى النافذة كأنه يراقب حركة أو يتوقع قادماً، فالتفتت فلم ترَ غير الجند وهم لا يزالون في اهتمامهم بحزم أمتعتهم والاستعداد للرحيل، فحولت بصرها إلى رودريك فرأته يهم بالجواب ويتردد فقالت: «لعلك تحاذر شيئاً؟».

قال: «كلا يا سيدتي ولكنني أخاف أن يقضي الوقت وأدعى إلى السفر قبل الفراغ من حكايتي لأنها طويلة!».

قالت: «أذكرها باختصار، هل تعرف العربية؟».

قال: «كلا».

ودهشت سالمة لأنها كانت قد توسمت من ملامحه أنه عربي

فقالت: «هل تتكلم لغة غير الافرنجية؟».

قال: «اعرف اللغة البلغارية وهي لغة حداثتي».

قالت: «أأنت بلغاري الأصل؟ ولكن ملامحك لا تدل على ذلك».

قال: «لست من بلغاريا ولكني ربيت في بيت رجل من البلغار».

قالت: «وكيف تعلمت لغة الافرنج التي تتقنها كأنك تعلمتها منذ حداثتك؟».

قال: «تعلمتها بطول المران، لأن الرجل البلغاري الذي رباني باعني لبعض الافرنج، ثم صرت إلى الدوق أودو بالبدل».

فاستغربت ما سمعته ورأت أن أسئلتها لم تجد نفعاً، فعمدت إلى الاختصار والتصريح فقالت: «قل لي أين ولدت؟».

قال: «ولدت في إشبيلية».

قالت: «فأنت إسباني إذن؟».

قال: «كلا».

قالت: «فأنت عربي؟».

فسكت، وقد ظهر على وجهه دلائل الخوف.

فأدركت أنه يخاف التصريح لقلة ثقته بها لأن ملامحها بعيدة جداً عن ملامح العرب، فقالت: «لا تخف أيها الشاب فإنك تخاطب امرأة لا تحب غير العرب، ولكن حديثك أدهشني، فكيف تقول إنك رُبيت في بلاد البلغار، ثم تقول إنك وُلدت في إشبيلية والمسافة بين البلدين بعيدة جداً؟ أظنك واهماً فيما تقول، أو لعل الذي أنبأك

بمولدك قد خدعك أو كذب عليك؟».

فقال: «إني على ثقة من ذلك، لأني عشت في اشبيلية بضع سنوات، ولا أزال أذكر بعض مناظرها».

قالت بلهفة: «أتذكر مناظر إشبيلية؟ ما الذي تذكره منها؟».

قال: «أذكر قصرها الكبير وحوله الحدائق، وأذكر حديقة ذلك القصر لأني كثيراً ما كنت ألعب فيها مع بعض الرفاق».

قالت، وفي وجهها معنى لو رآه لعلم أنها بغتت لذكر إشبيلية وقصرها وإنها كانت تغالب عواطفها لئلا يظهر ذلك في وجهها: «فأنت إذن من أبناء ذلك القصر؟ وما الذي تذكره أيضاً؟».

قال: «لا أذكر غير ذلك القصر لأني أخرجت من إشبيلية وأنا طفل، ولولا ما شاهدته من الأمور المخيفة لم تبق صورته في ذهني!».

قالت: «وما الذي شاهدته وأخافك؟».

قال: «شهدت مقتل أمير الأندلس».

قالت: «ألا تتذكر اسمه؟».

قال: «لم أكن أعرف اسمه يوم مقتله، ولكنني علمت بعد ذلك أنه عبد العزيز بن موسى بن نصير الذي فتح بلاد الأندلس للعرب».

فلما قال ذلك، كادت الدهشة تظهر على سالمة لو لم تتجلد وتشغل رودريك بسؤاله: «وما الذي تذكره من أمر مقتله؟».

قال: «أذكر أني كنت ذات يوم من سنة ٩٧ للهجرة ألعب في حديقة القصر وأنا في نحو الخامسة من عمري، ومعي طفلة أصغر مني كنت ألاعبها، وهي ابنة الأمير عبد العزيز وقد ربينا معاً، وفيما نحن في لعبنا رأيت الخدم في هرج ومرج، ثم وقفوا وقفة الاحترام،

فأسرعت للفرجة وبجانبي ابنة الأمير، وإذا بالأمير عبد العزيز قد خرج من القصر ومر بالحديقة وعليه القباء والعباءة ووراءه جماعة من أرباب العمائم، فلما دنا منا مد يده ولمس رأسي مداعباً وقال كلمة لا أذكرها، فتأثرت لأني لم أكن قد رأيته في مثل ذلك الموكب، وعلمت على أثر ذلك أنه ذاهب للصلاة. فعدت إلى اللعب غير مكترث للأمر، وما لبثت أن سمعت ضوضاء الناس، وجاء بعض الغلمان وحملوا ابنة الأمير بسرعة وتركوني. فخفت لأن الحديقة أصبحت خالية وليس فيها سواي فأخذت في البكاء، ثم رأيت الناس يعدون من جهة المسجد، وأخيراً رأيت منظراً أثر في حافظتي تأثيراً لا يمحوه كر الأيام ولا أذكره إلا اقشعر بدني، وذلك أني رأيت جماعة يعدون نحو القصر وفي مقدمتهم رجل يحمل رأس إنسان وقد قبض عليه من شعره والدم يقطر منه، ويد الرجل وثيابه قد تلطخت بالدم، فلما نظرت في ذلك الرأس عرفت أنه رأس الأمير عبد العزيز، فأوغلت في البكاء وليس من ينتبه لبكائي لاشتغال الناس عني، وأذكر أني بقيت في مكاني ذاك حتى الغروب ولم ينتبه أحد إليَّ. ثم جاء جدي فأخذني مسرعاً وصعد بي إلى القصر وأسلمني إلى أمي، على أننا لم نبقَ في إشبيلية بعد ذلك الحادث إلا بضعة أيام، ثم انتقلت مع أبي وأمي إلى الشام. .».

وكان رودريك يتكلم وسالمة شاخصة وعيناها تكادان تجمدان، وقد بدت على وجهها أمارات الاضطراب والدهشة وانقباض الحزن والألم، ورودريك ماضٍ في وصف هول ما شاهده. فلما فرغ من حديثه رأى دمعتين قدّ انحدرتا من عينيها، فحمل ذلك على محمل التأثر من الحديث!

أما هي فجاش في خاطرها أمور قضت بضع عشرة سنة في

الصبر على كتمانها، وكادت تحدثها نفسها بالتصريح لو لم يغلب عليها التعقل والصبر. فأمسكت نفسها، وعادت إلى استتمام حديث رودريك فقالت: «إن حديثك غريب وقد أزعجني، فأخبرني بما حدث لك بعد ذهابكم إلى الشام، وكيف وصلت إلى بلاد البلغار؟».

فقال: «أظنك سمعت بمسير العرب لفتح القسطنطينية منذ بضعة عشر عاماً، وإني لأستغرب الآن بعد ما شاهدت تلك المدينة وعرفت حصونها وقلاعها كيف أقدم العرب على فتحها؟».

فقطعت سالمة كلامه قائلة: «إن الغرض من الذهاب لفتحها هو الوصول إلى هذه الأرض من ذاك الطريق، فيلتقي فاتحو القسطنطينية بفاتحي الأندلس هنا، ويتم للمسلمين فتح هذه الأرض الكبيرة، وبفتحها يتم للعرب امتلاك العالم كله، ألا تراهم لما أعجزهم فتح القسطنطينية كيف أعادوا الكرة عساهم يفتحون هذه البلاد من هذا الطريق؟».

فعجب الشاب لسعة اطلاع سالمة وزاد استئناساً بها، فأتم حديثه قائلاً: «سأقص عليك خبري ولكن لا كما أدركته أول الأمر، فقد كنت طفلاً لا أكاد أدرك الحقائق، ولكني أقصه كما تفهمته بعد ذلك، وهو أننا وصلنا الشام فلم نجد الخليفة فيها ولم أكن أعرف اسمه».

فقطعت سالمة كلامه قائلة: «هو سليمان بن عبد الملك، ذلك الأعرج الأكول الذي أكل سبعين رمانة وجدياً وست دجاجات في أكلة واحدة، وختم الطعام بأرطال من الزبيب! وقد كان الأولى به أن يقيم نفسه خليفة على المطابخ وليس على الناس فيقتل الأمراء ويسفك الدماء!».

قالت ذلك وهي لا تتمالك عن إظهار الغضب. أما رودريك

فعاد إلى حديثه وهو يختصر فيه خوفاً من أن يدهمه أحد قبل الفراغ منه فقال: «وسألنا عن الخليفة فعلمنا أنه خرج بحملة من الرجال إلى قنسرين، وأعدّ جيشاً كبيراً ليسير إلى القسطنطينية بقيادة أخيه مسلمة، وكان الناس قد عقدوا على ذلك الفتح آمالهم والكل واثقون بالفوز، ولا أدري ما الذي أوجب ذلك الوثوق؟!».

فقالت: «سببه اعتزاز العرب بما فتحوه من الممالك، واعتقادهم أن العالم سيكون كله لهم، وقد ساعدهم على ذلك وثوقهم بمسلمة لأنه من كبار القواد وقد تمت على يده فتوح كثيرة.

مضى رودريك في حديثه فقال: «وكان أبي من أكثر الناس إيماناً بذلك، فلما دعوه إلى الخروج في تلك الحملة لم يرض إلا أن يأخذ أمي ويأخذني معه، لاعتقاده أنهم فاتحو القسطنطينية، وأنه باقٍ هناك أو فيما وراءها من البلاد، وكان أبي من المقربين إلى مسلمة لأنه كان يعرف اللغة اليونانية وقد تعلمها في أسفاره إلى بلاد الروم وهو شاب، فكان مسلمة إذا نزلت الحملة أنزل أبي في فسطاطه، ونزلت أنا وأمي في خباء نسائه، وكانت تلك الحملة الهائلة تتألف من حملتين، إحداهما برية والأخرى بحرية. وكان عدد جند البر الذي نحن فيه ١٢ر٥٠٠ مقاتل، وفيهم العرب والفرس وغيرهم وأكثرهم على الخيل أو الجِمال. وكانت الحملة البحرية على ما علمت بعد ذلك مؤلفة من ١ر٨٠٠ سفينة استقدمها مسلمة من سواحل مصر والشام والأندلس، وفيها المؤونة والذخيرة. فمشى الجند البري كأنه غابة من الناس والدواب، فمررنا بتيانة وعمورية وبرغاموس ففتحناها واستسلم مَن كانوا فيها من الروم أو فروا، واستولى المسلمون على أسلابهم وأموالهم. وكانت الحملة تزداد حماسة وتتسع آمال رجالها كلما تقدمت، لأنهم لم يعرفوا ببلد إلا فتحوه حتى وصلنا إلى حدود

آسيا من جهة خليج القسطنطينية وهو الفاصل بيننا وبينها. وكانت الحملة البحرية قد سبقتنا إلى هناك، فاستخدمنا بعض سفنها في نقل الرجال والأحمال من بر آسيا إلى برّ القسطنطينية عند مكان يسمونه (أبيدوس)، وهي أول مرة قطع فيها جند المسلمين فيها ذلك الخليج، على أننا قاسينا في ذلك مشقة كبرى وكدت أغرق مع أمي ولكن العناية أرادت بقائي لزيادة شقائي!».

فقالت سالمة بصوت منخفض: «لا بل أرادت العناية بك خيراً يتم على يدك لأناس أنت تحبهم». فاستمر رودريك في الحديث وقال: «وبعد أن قطعنا ذلك الخليج بخيلنا وجمالنا وأحمالنا نزلنا إلى البر ودرنا حتى أقبلنا على القسطنطينية من جهة الغرب، فعسكرنا هناك في سهل واسع، وحفرنا حولنا خندقاً وبنينا سوراً من التراب، ومكثنا للحصار وكنا في بلدة كبيرة فيها كل ما نحتاج إليه من المؤن والذخائر، وكانت هذه أول مرة أشرفت فيها على تلك المدينة الهائلة، وكنت لصغر سني لا أفقه معنى العظمة، ومع ذلك فقد هالني علو أسوارها وما على تلك الأسوار من عدد الحرب، وقد أدركت ذلك مما كانوا يرشقوننا به فيما بعد من النبال والحجارة بالمجانيق. وهناك شاهدت أهوال الحرب لأول مرة، فقد كنت أصعد إلى سورنا حتى أشرف على أسوار المدينة فأرى النبال مغروسة في جدار سورنا كريش القنفذ، وبعضها ملقى في السهل بيننا وبينهم، حتى كثيراً ما كنت وأنا ألعب أمام خيمة مسلمة أرى النبال تتساقط حولي فألتقطها ولم تكن تهمني، وكنت لا أزال أحسب الحرب لعبة حتى شاهدت ذات يوم أمراً لم أجسر بعده على الخروج من خباء أمي! وذلك أنني صعدت مرة إلى سور معسكرنا لأتفرج، فرأيت شيئاً تطاير من سور القسطنطينية نحونا أشبه بشعلة متقدمة كأنها كوكب مذنّب حتى

وقعت خارج السور. فتبعثرت وأشعلت مساحة كبيرة من العشب اليابس هناك وتطايرت منها رائحة حادة، فذعرت وأسرعت إلى أمي وأنا في تلك الحال، وسألتها فأخبرتني أنهم كثيراً ما يطلقون النار فتحرق ما تصيبه، فلم أعد أجرؤ على الاقتراب من السور، ثم علمت بعد ذلك أنها ما يسمونه (النار اليونانية) وأظنهم غلبونا بتلك النار، لأنهم أحرقوا بها أسطولنا من جهة البحر بعد أن ساعدته الريح ودخل الخليج حتى رسا تجاه المدينة من جهة الشرق فهلع الروم لرؤيته. وقد أخبرني بعض الذين كانوا داخل المدينة أثناء الحصار بأنهم كانوا إذا اطلوا على البحر رأوا أسطولنا كأنه غابة أشجارها الأشرعة والسواري، لا يقف البصر على آخرها، وإذا نظروا من جهة البر رأوا معسكرنا كأنه بحر أمواجه الناس والدواب وسفنه الخيام والأعلام!

«وقد ساعدنا الحظ إذ أن السلسلة التي تعود قياصرة الروم قطع مدخل القسطنطينية بها عند قرن الذهب في مثل هذه الحال كانت محلولة. وتحدث الأمراء باغتنام الفرصة ودخول الخليج، فأشار عليهم بعض العارفين بالتوقف برهة لئلا يكون في الأمر دسيسة. ولكنهم مع ذلك اقتربوا من الشاطىء كثيراً، فما شعروا إلا والأسطول اليوناني يقترب منهم، فتهيأوا للدفاع، وإذا بهؤلاء يطلقون عليهم النار كأنها خارجة من نوافذ جهنم فأحرقت معظم السفن، والذين نجوا منها جاؤونا وهم ينادون بالويل والثبور وقد مات منهم كثيرون!

«وأصبح أسطولنا بعد ذلك لا نفع منه فتحولت الأنظار إلى قوة البر وكان مسلمة يتوقع أن يمل أهل القسطنطينية طول الحصار، وتقل عندهم المؤونة فيضطروا إلى التسليم. وقد أطمعنا في ذلك أننا بعد حصار دام بضعة أشهر بعث الروم إلى مسلمة يعرضون عليه أن يعطوه

عن كل رأس ديناراً وينصرف فطمع وأبى إلا أن يفتحها عنوة أو يهلك أهلها جوعاً. وأما نحن فكان مسلمة قد أعد كل ما نحتاج إليه الزرع والحصاد، فقضينا الشتاء والصيف نزرع ونرعى الماشية ونحن نتوقع ملل أهل القسطنطينية فما رأيناهم ملوا وقد حاصرناهم سنة وبعض السنة، وعلمت بعد ذلك أن ملك القسطنطينية يومئذ واسمه (أناستاسيوس) أو (أرتيموس) قبض على أزمة الملك ولم يكن من أسرة القياصرة ولكنه كان حكيماً عاقلاً، فلما عاد إليه سفيره من دمشق بخبر الحرب وقدوم العرب عليه براً وبحراً علم أن العرب سيحاصرونه. فأعلن أهل القسطنطينية أن كل مَن لا يستطيع اختزان مؤونة تكفيه ثلاث سنوات فليخرج من المدينة، فاشتغل الناس باختزان الحنطة والحبوب ورمموا الأسوار واستعدوا للدفاع والحصار، ولذلك فقد مللنا نحن قبلهم لأننا كنا نتوقع نجدة من الخليفة في مرج دابق فمات وانقطعت الميرة عنا..».

فقطعت سالمة كلامه قائلة: «أتعرف سبب موته؟».

قال: «كلا».

قالت: «لقد مات شهيد الشره. مات من التخمة! وذلك أن أحد نصارى دابق أتاه بزنبيلين مملوءين تيناً وبيضاً فأمر مَن يقشر له البيض وجعل يأكل بيضة وتينة حتى أتى على الزنبيلين، ثم أتوه بمخ ومقدار كبير من السكر فأكله، فأتخم ومرض ومات!».

وأتم رودريك كلامه فقال: «رغم وفاة الخليفة كان يمكننا الصبر على الحصار سنة أخرى، فقد تعودنا الزرع وألفنا الإقليم، ولكن جاءنا شتاء قاس لم نستطع معه الزرع ولا العمل، فقلّت مؤونتنا حتى أكلنا الدواب والجلود وأصول الأشجار والورق. ومما زاد الطنبور نغمة أن ملك القسطنطينية لما طال عليه الحصار ورأى العرب

مقيمين عمل على مضايقتنا، فبعث إلى البلغاريين المقيمين على ضفاف الطونة (الدانوب) واستحثهم للدفاع عن عاصمته بالأموال والهدايا، فجاؤوا من البر وأحاطوا بمعسكرنا وضيّقوا علينا حتى أصبح الرجل منا لا يستطيع الخروج من المعسكر وحده لئلا يصطاده أولئك البرابرة.

«وأذاع ملك القسطنطينية في أهل بلده من أن الافرنج قادمون إلى القسطنطينية بالأساطيل الهائلة للدفاع عن النصرانية، فلما وصل ذلك الخبر إلى مسلمة لم يعد يستطيع صبراً على البقاء فأزمع الانسحاب واستقدم ما بقي من أسطوله وأمر بالإقلاع والتقويض لركوب البحر والرجوع إلى شواطىء آسيا. فجاءت السفن وأخذوا ينقلون إليها الخيام وما بقي من الخيول والجِمال، وكنت أنا كما أخبرتك مقيماً مع أمي في الخباء فلما أخذوا في تقويضه اشتغل كل بمهام نفسه، وشغلت أمي عني فخرجت لالتقاط بعض النبال المبعثرة هناك فبعدت عن المعسكر وأنا لا أدري. ثم فوجئت بإثنين من البلغاريين انقضا عليَّ انقضاض الذئاب الكاسرة، فصحت وناديت يا أبتاه يا أماه وما من مجيب! على أني التفت نحو معسكر العرب وأنا بين ذراعي أحدهما فرأيت أمي المسكينة تنظر إليَّ من فوق السور وهي تلطم وجهها وتصيح وتستغيث، ثم توارى بي الرجل بين الأشجار فلم أعد أرى أحداً فأخذت في البكاء وهم تارة يهددوني وطوراً يسترضونني!».

فلما بلغ رودريك إلى هنا لم تتمالك سالمة عن إرسال دمعتين سالتا على خديها وضاعتا في أهداب خمارها، وبقيت تنظر إلى رودريك والأسف والدهشة باديان على وجهها، فحسب أن هذا لتأثرها بحكايته، وهَمّ بإتمام حديثه ولكنها قاطعته قائلة: «هل علمت بعد ذلك شيئاً عن أبويك؟».

قال: «كلا يا سيدتي، لم أرهما ولا سمعت خبراً عنهما، ولا رأيت أحداً أعرفه من ذلك الحين، لأني رُبيت في بلاد البلغار في أشقى حال، أعمل في رعاية الماشية وجمع العيدان والأخشاب للوقود. وكنت أطوف التلال والأودية مع رفاقي من أولاد البلغار أو خدمهم نلتقط ما نعثر عليه من قطع الخشب ونحوها ونأتي بها إلى المنازل، فإذا أظلم الليل اجتمع أهل المنزل في غرفة وأوقدوا النار واصطفوا حولها يستدفئون، وفيهم الرجال والنساء والأطفال وكلهم أحسن كساء مني، فقد كان على بعضهم أردية من الفرو أو الصوف، بينما أنا ليس عليَّ سوى رداء وقميص، ولولا إشفاق ربة ذلك المنزل عليَّ لمت من شدة البرد، فإنها نفحتني بقية خمار مبطن بالجلد كان لبعض أولادها فخمرتني به، وأعطتني شبه جبة من جلد الماعز كانت لزوجها وقد تهرأت فلبستها، فغطتني إلى أسفل قدمي، ولا أظنهم فعلوا ذلك شفقة، وإنما ساءهم أن أموت فيخسروا ثمني!

«قضيت في ذلك بضعة أعوام تعلمت خلالها لغتهم وأخذت عاداتهم في الطعام والشراب والصلاة وما إلى ذلك، ونسيت لغة أمي وديانتها. فلما بلغت الثانية عشرة حملوني في جملة أحداث من الذكور والإناث كانوا قد جمعوهم من أعالي بلاد الصقالبة وساقوهم ولا كساء عليهم غير الجلود وشعورهم مسترسلة، فجمعونا معاً وشدوا أيدينا بعضها إلى بعض بأمراس وساقونا كالأنعام بضعة أيام على تلك الحال حتى أتينا بقعة قد ازدحمت بالناس والخيول والماشية والأحمال، علمنا أنها سوق يجتمع إليها الناس من أقاصي البلاد للبيع والشراء والمبادلة والمقايضة. وساقونا جميعاً إلى شبه حظيرة حولها سور بعضه من الخشب وبعضه من الأحجار، وأقفلوا بابه علينا بعد أن حلوا أيدينا. وعند وصولي إلى السوق نسيت همومي ومصائبي لاشتغال خاطري بما

شاهدته هناك من أصناف الناس وأشكال السلع على غير المألوف عندي. وكنا قد وصلنا إلى ذلك المكان قبيل الغروب فبتنا في الظلام والبرد، وأنا لا أكلم أحداً من رفاقي لأني أجهل لغتهم.

«ولما أصبح الصباح وأشرقت الشمس شعرنا بالدفء، ثم رأينا الناس يتبايعون ويتقايضون فلبثنا نتوقع ساعة بيعنا، وإذا برجلين أحدهما طويل القامة والآخر قصيرها، وقد ارتديا جبتين مبطنتين بالفرو السميك وتلثما بخمارين من صوف وبرزت لحيتاهما من بين جناحي الخمار واحمرت عيناهما من كثرة الدفء أو من شرب الخمر، يدخلان الحظيرة، وأصحابنا البلغاريون يسيرون أمامهما باحترام وفي أثرهما جماعة من الخدم، فلما دخلا ظل الطويل واقفاً مع أصحابنا وتقدم القصير إلينا وجعل يتفحصنا واحداً واحداً وينتقي مَن يقع عليه اختياره منا، حتى إذا وصل إليَّ تفرس في وجهي وتكلم بلسان لا أفهمه، وأظنه قوطياً أو عبرانياً لأني علمت بعد ذلك أن الرجل من تجار اليهود، فمد يده وأمسك يدي وجذبني إليه، ثم أمرني أن أفتح فمي فتفحص أسناني ولساني، وجسّ كتفي وهزهما، ونظر في عيني وأذني ويدي ورجلي، ثم أشار إليَّ فانضممت إلى المختارين، وبعد الفراغ من الانتقاء تساوموا فلما تمت صفقة البيع ساقنا أصحابنا الجدد إلى حظيرتهم بعد أن دفعوا الثمن بخساً جداً، ثم وزعوا علينا خبزاً يابساً وألبسونا أكسية سميكة من الخيش والجلد، وقصوا شعورنا وأصلحوا من شأننا بعض الشيء، فسررت للشبع والدفء.

«وحملنا أولئك التجار بعد أيام على الدواب مناوبة ونحن نحو المائة، حتى أتوا بنا بلاد الافرنج فأنزلونا في خان حبسونا فيه أياماً، ثم أفردوا جماعة منا انتقوهم من بيننا لصغر سنهم وجمالهم وأرسلوهم إلى مكان يخصى فيه الصبيان. وبلغني بعد ذلك أنهم أغضوا عني لأني

كبرت على تلك الجراحة».

ولما وصل في حديثه إلى هنا سمعا النفير يدعو الجند إلى الاجتماع فقال: «أظنني أطلت الشرح فأقول باختصار إني انتقلت بالبيع إلى بعض الأعيان من الافرنج، ثم بالمقايضة إلى الدوق أودو، وكنت في أثناء إقامتي بهذه البلاد قد سمعت بقدوم العرب لفتحها فكانت نفسي تحدثني بالفرار إليهم لأبحث عن أبوي لأني لم أعد أسمع عنهما شيئاً منذ خطفت، ولكنني لم أتمكن من ذلك لأسباب يطول شرحها».

قالت: «لقد سرني صدق فراستي فيك، فأنت عربي وأنا أعمل في سبيل العرب، ولا يسمح لنا الوقت الآن بالتفصيل فلنترك ذلك لفرصة أخرى. وعندي أمور تتعلق بوالديك وجدّيك، سأقصها عليك. أما الآن فامض في عملك واجتهد إذا حملتموني معكم في هذا السفر أن أكون في رعايتك لتتخابر بشأن النجاة».

قال: «سمعاً وطاعة». وغادر الغرفة وأغلق الباب وراءه، فإذا هو يكاد يعثر برجل عليه لباس مخالف لزي الجند كان قاعداً القرفصاء في الدهليز بقرب الباب، وقد أدار كوعه حول ركبته ودفن رأسه في حجره، فلما رآه رودريك أجفل وخاف أن يكون قد سمع ما دار بينه وبين سالمة، فرفسه برجله كأنه يوقظه من النوم فلم يتحرك، فرفسه ثانية وهزه، فتظاهر بالكسل الشديد ورفع رأسه وهو يتثاءب ويتمطى. وجعل يفرك عينيه ويلتفت حوله كأنه أفاق من سباب عميق، فسرى عن رودريك وظن أن الرجل كان نائماً هناك من كسل أو تعب، فانتهره وأمره أن ينصرف فتظاهر بالخوف ووقف مسرعاً وخرج يهرول!.

أما سالمة فإنها فرحت برودريك واستبشرت بالنجاة على يده لما

ظهر لها من ثقة الدوق أودو به، فإذا كان هو حارسها في ذلك المعسكر سهّلت النجاة عليهما فتلجأ إلى معسكر العرب وتخبر عبد الرحمن بما علمته من استنجاد أودو بشارل (قارله) لئلا ينخدع بقلة جند الافرنج فيأتيه شارل على غرة فيغلبه، وإذا غلب العرب هناك في موقعة واحدة حبطت مساعيهم كلها. . ثم تذكرت حساناً وكيف تركته في الدير وتمنت أن يكون على قيد الحياة حتى يرى رودريك ويعرف من هو لأمر يهمه. وكانت الشمس قد مالت عن الهاجرة فوقفت سالمة إلى النافذة تتشاغل بما يبدو من اهتمام الجند بالتقويض والتحميل ريثما يأتيها النبأ في شأنها لترى إلى أين مصيرها.

قضت ساعة وهي في تلك الحال حتى رأت موكب الدوق أودو وحوله الفرسان على جياد سروجها مفضضة، وعليهم الألبسة البراقة بالألوان الباهرة كالأزرق والأرجواني، والدوق أودو في الوسط على جواد من كرام الخيل، وعلى رأسه قبعة مرصعة تتلألأ حجارتها في أشعة الشمس كأنها مصابيح، وعلى كتفيه طيلسان أو رداء سنجابي اللون كالطيلسان، مزركش بالقصب إلى أردانه، وفي عنقه قلادة من الذهب يتدلى منها على صدره صليب من الذهب مرصع بالحجارة الكريمة من الألماس والياقوت. . ونظرت سالمة إلى سرج الجواد ولجامه فإذا هما أيضاً مرصعان، والجواد تحته يتلاعب كأنه يرقص وهو أكثر تيهاً من فارسه الدوق الذي كان قد أصلح من شأنه، ولكن الاضطراب ما زال بادياً في خلال تلك العظمة، وربما كان ذلك لندمه على استنجاده عدوه شارل. ولعله كان لشدة ندمه يفضل أن لا يجيب شارل دعوته، أو يحدث ما يثنيه عن عزمه فيبقى هو وحده أمام العرب، فإما أن يغلبهم فيبقى سيد اكيتانيا وحده، أو إذا خاف أن يغلبون صالحهم فيملكوه أرضه تحت حمايتهم، وأما شارل،

إذا تم النصر على يده فلا يقنعه غير السيادة على الافرنج كافة ويصبح هو نسياً منسياً، إذا لم يقتله بعض المتزلفين لشارل! ونظنه لو تحقق أنه سيكون مع الافرنج مثله مع العرب لفضل العرب على الافرنج لما في فطرة البشر من التحاسد بين الأقرباء أكثر مما بين الغرباء. فالإنسان إذا ترك لفطرته وخيّر بين أن يخضع لبعض ذوي قرابته أو لأحد الغرباء، يؤثر الخضوع للغريب، ولهذا السبب ترى الشعوب التي يحكمها الفاتحون من الغرباء أسهل قياداً وأقرب خضوعاً لقوانين الدولة ممن يحكمهم أناس من أبناء جلدتهم، ناهيك بالتحاسد بين الرئيس والمرؤوس في أبناء الوطن الواحد، إذ يشتد الحسد بين اثنين على نعمة كلما تقارب اقتدارهما على نيلها أو تشابهت أسبابهما إليها، ولذلك كان التحاسد على أشده بين أصحاب المهنة الواحدة.

فلا غرو بعد ذلك إذا تخيلنا في أودو الندم على استنجاد شارل، على أنه لما اقترب بموكبه من نافذة سالمة التفت نحوها ووقع نظره عليها فرَنَا إليها قليلاً ولم يبدِ إشارة، ثم توارى الموكب عن سالمة ورأت الجنود تسير على الأقدام في أثره جماعات بحسب قبائلهم، وبينهم الأمراء والقواد والأدرع والخوذ على الخيل، وبين أيديهم حملَة الأعلام وهي كثيرة الأشكال والألوان.. على بعضها رسم الصليب، وعلى البعض الآخر صورة العذراء تحمل طفلها، أو صور ملائكة أو طيور أو غير ذلك من الشارات المسيحية أو الرومانية. وكانت جوقة الموسيقى قد مشت بين يدي الدوق صامتة، فلما تم تحرك الجند سمعت سالمة قرع الطبول والصنوج والأبواق وما إليها فتحركت عواطفها وتصورت قرب نشوب الحرب بين العرب والافرنج بعد وصول النجدة لهؤلاء، وكلما تصورت العاقبة لو قدرت الغلبة للإفرنج وعاد العرب مدحورين اضطربت وصعد الدم إلى وجهها!

سار الجند حتى كاد يتوارى عن بصر سالمة، ولم يبقَ في المعسكر إلا شرذمة قليلة من الخدم والأعوان، فازداد قلقها ولا سيما أن رودريك لم يأت إليها بطعام ولا كلام، وأوجست من تأخره شراً فاتجهت إلى الباب لعلها ترى أحداً قادماً فإذا هي تسمع وقع أقدام بلا خفق نعال، ومشية غير مشية رودريك، فقالت في نفسها مَن عساه يكون القادم، وما عتم أن فتح الباب ودخل منه رجل بلباس أشبه بألبسة العرب. وحالما وقع بصرها عليه رأت فيه شبهاً بالرسول الذي جاء بالكتاب إلى أودو وهي عنده، فاستعاذت بالله، وتجلدت وابتدرت الرجل قائلة: «ما الذي تريده؟!».

فنظر إليها وعيناه تتباعدان من شدة الحوَل وتتراقصان وقال: «لا أريد شيئاً، ولكن الدوق أمرني أن أكون في خدمتك!». قال ذلك وهو يصلح رداءه على كتفيه وقد بانَ السيف من تحته. فانقبضت نفسها وخافت سوء العاقبة لعلمها بأن هذا الأحوَل من أكبر جواسيس ميمونة، واعتقدت أن كل ما نالها من الشر إنما كان على يده. ولكنها لم تكن تجسر على التصريح بذلك، فلم ترَ خيراً من التجاهل والتجلد فقالت: «بورك فيك لعلك من أهل هذا المعسكر؟».

فابتسم كأنه يهزأ من جهلها، وقال: «لا.. ولكنني من معسكر آخر..!». وضحك ثم قال: «هل تحتاجين إلى خدمة أقدمها لك؟».

فظلت سالمة على تجاهلها ولم تكترث بما بدا منه فقالت: «لا غنى لي عن خدمتك. ولكن أين هو الشاب الذي كان يخدمني قبلك؟».

قال وهو يقلب شفته السفلى استخفافاً: «لا أدري. ولعله ذهب في مهمة إلى طليطلة أو بلغاريا، أو ربما اشتد حنينه إلى أجداده فطار إليهم!!..».

فلما سمعت تعريضه بما دار بينها وبين رودريك سراً خفق قلبها وكاد ذلك يظهر على وجهها، ولكنها تجاهلت وقالت: «أشكرك إني لا أحتاج إلى شيء الآن». وأرادت أن ينصرف فتخلو بنفسها وتفكر في أمرها فقال لها: «لا تحتاجين إلى شيء أبداً؟ ألا تتوق نفسك إلى أحد في بوردو أو نهر لوار؟!».

ففهمت أنه يسخر منها، وأنه مطلع على أسرارها، ولو أجابته لسمعت من سخريته ما يؤلمها، فظلت على تجاهلها وقالت: «لا.. لا أحتاج إلى شيء!».

فقال: «إذا كنت لا تحتاجين إلى شيء فأنا أحتاج إلى أشياء!».

فالتفتت إليه لتستطلع غرضه فإذا هو يضحك ويستخف بها ثم قال: «إني أحتاج إلى حضرتك..!».

فقطبت حاجبيها وبدا الغضب في وجهها وغلبت عليها الأنفة وعزة النفس وقالت: «وما هي حاجتك يا غلام؟».

قال وقد هاب منظرها: «لا تغضبي يا سيدتي فإني لا أطلب إلا ما يأمرني به حضرة الدوق».

قالت: «وماذا يطلب؟».

قال: «أن تتأهبي للمسير في أثر هذه الحملة فننزل حيث ينزلون».

ففهمت من صيغة الجمع في كلامه أنه سائر معها فقالت: «وهل نسير الآن؟».

قال: «نعم، وقد أعددنا لك جواد تركبينه..».

قالت: «إني مستعدة إذ ليس عندي أثاث أحمله معي».

قال: «هيا إذن». قال ذلك وأشار بيده نحو الباب.

قالت: «أخرج وأنا خارجة في أثرك». فخرج.

فالتفت بردائها فوق الخمار وتفقدت الحافظة وبقية ما معها، وخرجت إلى الممر ومنه إلى الباحة حتى أطلت على صحن الدار، فرأت هناك جواداً مسرجاً وحوله فرسان مدججون بالسلاح وفي أيديهم الحراب وعليهم الأدرع، فلم تعبأ بهذا المنظر بل تقدمت إلى جوادها فركبته وساقته، فمشى الفرسان حولها، وركب الأحوَل حماراً كان هناك وسار في أثرهم.

سارت سالمة في ذلك الموكب وهي غارقة في بحار الهواجس تفكر فيما داهمها على غير انتظار بعد أن كادت تنجو من الخطر. وفكرت في رودريك فغلب على ظنها أنهم حبسوه أو قتلوه وأنها صائرة إلى مثل ما صار إليه، ولم يكن الموت ليخيفها لولا خوفها ضياع أمور تود إنجازها قبل الموت. ومن الناس من تتسلط عليه معرفة الواجب حتى تنسيه حاجات نفسه فلا يطلب البقاء إلا لواجب يقوم به، فإذا أداه تساوى الموت عنده والحياة.

قضت برهة في هذه الهواجس حتى تعبت، وظلت سائرة إلى حيث لا تعلم، وهي ترى الحملة تارة أمامها وطوراً إلى جانبها، ثم تبينت من مسير الحملة نحو الشمال أنهم يقصدون طورس على نهر لوار، فلما تذكرت ذلك النهر اختلج قلبها في صدرها وتصورت ما عليها من العهود والمواثيق المتعلقة بذلك النهر، وتذكرت أشياء كثيرة زادتها انقباضاً وقلقاً حتى كادت تبكي.

وفي الغروب وصلت الحملة إلى سهل حطوا أحمالهم فيه للمبيت مؤقتاً، ثم نهضوا في الصباح لمواصلة السير وسالمة لا يخاطبها أحد في شيء غير ما لا بد منه مما يتعلق بالطعام وما إليه. وكانت في أثناء الطريق تتأمل فيما يقع عليه بصرها من الدروب أو التلال،

وتتفهم ما يدور بين الجند من الحديث لعلها تطلع على خبر جند العرب وأين هم. وكانت تتفحص الطريق الذي هم سائرون فيه عساها أن ترى أثراً يدل على اجتيازهم ذلك المكان فلم ترَ شيئاً يدل على ذلك، فترجح عندها أنهم لم يصلوا إليه بعد، مع أنها سمعت بقيامهم من بوردو قاصدين إلى بواتيه فنهر لوار. وكانت على يقين من أنهم لا يلقون في طريقهم مقاومة جدية. وأما المعركة الكبرى فستكون على ذلك النهر، فمن غلب هناك ملك!

وقضت الحملة ليلتها الثالثة، ثم الرابعة في الطريق، وسالمة في أثرها بين حراسها، وكانوا تارة ينحدرون في وادٍ وآونة يصعدون على جبل وحيناً يمرون في سهل، حتى وصلوا في أصيل اليوم الرابع إلى نهر صغير يُقال له نهر «شير» تحفّ به التلال من الضفتين فضلاً عن الغياض والبساتين، فقطعوه من ضفته اليسرى إلى اليمنى، ثم صعدوا على أكمات أطلوا منها على سهل واسع ينتهي بمدينة تورس الكبرى ووراءها نهر لوار لأنها واقعة على ضفته اليسرى. وكان الليل قد أسدل ستاره فلم تشاهد سالمة شيئاً لبُعد المدينة عنهم.

وبعد مسير بضعة أميال من شير، اختاروا مكاناً عسكروا فيه بقصد نية الإقامة هناك فعلمت سالمة أنهم قد حطوا عصا التسيار، فلبثت تنتظر ما يفعلونه بها. فإذا بالأحوَل المعهود قد جاء ومعه بعض الخدم فنصبوا خيمة خاصة على مقربة من فسطاط الدوق أودو، وقد عرفته بما فيه من دلائل البذخ والترف. فلم يهمها الأمر وقد كادت تيأس، فقضوا معظم ذلك الليل في نصب الخيام وإعداد أسباب الإقامة.

أما سالمة فدخلت خيمتها فرأت الخادم قد أحضر لها الطعام فتناولته، والتمست الراحة فنامت وهي تفكر في رودريك لأنها لم

تشاهده في أثناء الطريق ولم تسمع عنه شيئاً، ولكنها لم تجرؤ على ذكر اسمه خوفاً من إلقاء الشبهة عليه.

وأفاقت في صباح اليوم التالي على صوت البوق بما لم تعهده من قبل فنهضت وسألت الحارس عن السبب فقال لها: «إن الدوق أمر الجند إلى الاجتماع في الساحة الكبرى أمام فسطاطه، للصلاة قداساً كاملاً لاسم القديس «مَرْتين» حامي حمى الافرنج لأنه مدفون في هذه الجهات، وقبره كعبة يحج إليها النصارى في أنحاء اكيتانيا واستراسيا».

وكانت سالمة تعرف أن القديس «مَرْتين» كان رسول النصرانية إلى الغاليين في القرن الرابع للميلاد، وكان أسقفاً على تورس، ولما توفي دفنوه في ضاحية من ضواحيها وبنوا بجانب قبره كنيسة وديراً، وأصبح المكان محلة تُعرف باسمه، يحجون إليه وينسبون له المعجزات. فلما رأت اجتماع الجند وكهنتهم في الساحة للصلاة وقفت بباب خيمتها لتشاركهم في صلواتهم فإذا بالدوق قد خرج من فسطاطه في حاشيته وأعوانه وكلهم بالملابس الرسمية، يتقدمهم القسوس بالثياب الكهنوتية وهم يرنمون وبأيديهم الصلبان، وأمامهم بعض الشمامسة يحملون صليباً على عصا طويلة حتى وقفوا في الساحة على شبه منبر فولوا وجوههم شطر كنيسة القديس مَرْتين والجند وقوف، فأقاموا قداساً طويلاً وقلوبهم متخشعة، ملؤها الأمل بالنصر على الأعداء ببركة الصلاة.

وكانت سالمة، رغم اشتراكها في الصلاة، تفكر في غرائب مطامع البشر وضعف طبيعتهم، إذ يسنون الشرائع بتحريم القتل، ويشددون النكير على القاتلين، ثم يرفعون أكفّ الضراعة إلى موحي تلك الشرائع لكي يساعدهم في قتل أبناء جلدتهم، ويتوقعون إجابة

سؤلهم لاعتقادهم أنهم إنما يلتمسون نصرة الحق وتأييد العدالة! ولو تعقلوا وأدركوا معنى التدين لعملوا على حقن الدماء وتكاتفوا على حفظ السلام، ولكنهم لا يفعلون كأنهم أدركوا بالسليقة أن الحرب ضرورية للبقاء، وأنهم لو لم يقتل بعضهم بعضاً لضاقت بهم الأرض، ولقتلهم الجوع والوباء! ومهما يكن من الأمر فالحرب باقية ما بقي حب الذات، وهو باقٍ ما بقي الإنسان.

وأفاقت سالمة من تأملاتها على أصوات المرتلين، ورائحة البخور فتخشعت، وتذكرت تاريخ حياتها وما مرّ بها من الأهوال. وتذكرت عبد الرحمن وابنتها التي خلفتها في معسكره، وما عسى أن يكون من أمرها بعد انتقال العرب في طريقهم إلى تورس، كما تذكرت ميمونة، فاختلج قلبها لذكراها خوفاً على مريم من دسائسها، وأصبحت شديدة الرغبة في اطلاع العرب على ما عرفته عسى أن تنقذهم من مكائدها. ولما بلغت بها تصوراتها إلى هذا الحد تذكرت حساناً لأنه لو كان معها لكلفته بقضاء هذه المهمة. وبقيت في هذه الهواجس والناس يضجون بالصلاة، والقسوس يرفعون أصواتهم بالترتيل، على أنها لم تتمالك عن إرسال بصرها إلى أطراف المعسكر وما وراءه من السهول حتى نهر لوار، ومدينة تورس على ضفته، وبإزائها محلة دير القديس مَرْتين، فلم تكن ترى من تلك الأماكن إلا رؤوس الأبنية الشامخة لبعد المسافة. وفيما هي كذلك لاحَ لها إلى يسار المعسكر شبحان ظهرا من وراء الأفق عن بُعد. وقد ظهر رأساهما أولاً ثم ظهر بدناهما بالتدريج فإذا هما فارسان، فظل بصرها عالقاً بهما وشعرت برغبة في استطلاع حالهما. ثم ما لبثت أن رأت عليهما لباس الرهبان الأسود وعلى رأسيهما القبعة، فخفت رغبتها في الاطلاع لكثرة الرهبان في تلك الأصقاع، وكثرة ترددهم إلى المدن

لابتياع حاجات الأديرة، وبعد قليل رأت الراهبين قد اختلطا بالجند ووقفا معهم للصلاة فحولت وجهها عنهما وعادت إلى هواجسها، فتذكرت الشاب رودريك وودت لو تيسّر لها الاجتماع به.

ثم قُرعت الأجراس إيذاناً بانتهاء الصلاة، وتفرق الجند إلى مضاربهم وعاد أودو إلى فسطاطه وحوله الحاشية والأعوان، ودخلت هي خيمتها وحول الخيمة ثلاثة من رجال أودو بالحراب يحرسونها، ولكنها لم ترَ الأحوَل بينهم، ولم تكن قد رأته منذ الصباح، وقضت بقية ذلك اليوم في الخيمة وقلبها يحدثها بأمر سيحدث ويكون فيه الفرج، وإن كانت لا ترى باعثاً على هذا الأمل، بل كانت ترى كل ما حولها ينذرها بضد ذلك ـ ولكن في صواحب الإحساس الدقيق من النساء نوعاً من الشعور كالإلهام. فقد تشعر المرأة بالحادث قبل وقوعه وتنذر رجلها به، ولو أن أحداً طالبها بالدليل لما وجدته، ثم لا يلبث أن يتحقق الحادث! وأما الرجل فإنه لا يرى إلا ما يرشده إليه عقله بالقياس أو البرهان.

فلما أحسّت سالمة بانتعاش آمالها سرى عنها، ولكنها كانت لتعقلها ترجع ذلك الشعور إلى الوهم وإحداق المصائب بها في كل ناحية.

ولما أمسى المساء جلست على بساط مفروش في خيمتها وهي مضطربة مترددة، فلجأت إلى الصلاة متأثرة بصلاة الصباح، فارتاحت، ثم توسدت لتنام، ولم يكن في خيمتها مصباح فاستغرقت في التفكير، ولم يكن يعترض تفكيرها غير ضجيج الخدم في ذهابهم وإيابهم وصوت النفير أحياناً. وبينما هي كذلك سمعت كلاماً قريباً من خيمتها، فرفعت رأسها وحدقت ببصرها فرأت بصيص نور يتراءى في الخارج وراء جدار الخيمة، وسمعت لغطاً لم تستطلع

فهمه، فجلست وأصاخت بسمعها فانجلى لها الصوت، فسمعت الحديث الآتي بلغة البلاد:

ـ إنك لا تستطيع منعي!

ـ بل أمنعك أو يأمرني الدوق.

ـ ليس في الأمر ما يدعو إلى أمر من الدوق.

ـ بل لا بد من أمره، لأن لهذه السجينة شأناً خاصاً، وقد أمرنا الدوق بمنع مقابلتها أو تحدثها مع أي إنسان.

ـ يا للعجب! أبلغت بك القحّة أن تقف في سبيل الفروض الدينية؟.

ـ لا أبالي. وما ضرّ لو استأذنت الدوق في ذلك؟

ولكنكم تعلمون أننا كرّسنا حياتنا لاستتابة المجرمين ذوي الذنوب، فنطوف السجن ونزور المسجونين ونعظهم ونشجعهم على التوبة.

ـ ربما كان ذلك صحيحاً، ولكننا محظور علينا الإذن لأحد في الدخول. ولو كان القيّم هنا لأغنانا عن استئذان الدوق، لأنه وكيله.

ـ أين هو القيّم؟

ـ لا ندري، فقد ذهب في هذا الصباح وأوصانا مشدداً بمنع الدخول.

ـ أرسلوا أحداً يستأذن الدوق.

ـ نخشى أن يكون في فراشه.. فأجلوا الأمر إلى الغد.

ـ الوقت ضيق لا يأذن بالتأجيل لأننا ذاهبون في صباح الغد إلى دير القديس مَرْتين.. اذهب فاستأذن الدوق ولا تطل الجدال.. إنني

لم أصادف وقحاً مثلك طول حياتي. فإذا لم توافق على الذهاب، فإني سأدخل الخيمة رغم إرادتك وستلاقي جزاء قحتك في الغد!

ـ (صوت آخر) لا تغضب أيها الأب المحترم إن رفيقي شاب لا يعرف حقوق السادة الرهبان والقسيسين.. أدخلا ولا حاجة إلى الاستئذان.. ونرجو منكما أن تذكرانا في صلاتكما.

ـ بورك فيك يا بني، هكذا يكون أبناء الخلاص. على أنني أرغب إليكم أن تتباعدوا قليلاً عن جوانب الخمية لئلا يصل إليكم حديث الاعتراف، ولا يُخفى عليكم أن الاعتراف سر من الأسرار المقدسة.

ـ طبعاً، لا شك في ذلك، وسنبعد عنكم. ولكن أرجو من قدسك أن تختصر بقدر الإمكان لئلا يبلغ الأمر إلى حضرة الدوق فيلومنا على إدخالك بغير إذنه.

وكانت سالمة تسمع ذلك وقلبها يخفق خفقاناً سريعاً لدهشتها واستغرابها. وبذلت جهدها في معرفة ذلك الصوت فلم تعرفه، ولكنه ذكرها بالراهب الذي صحبها من الدير إلى قرب بواتيه.

فلبثت صامتة لترى ما ينتهي إليه الجدال، فلما انتهى على تلك الصورة تطاولت بعنقها لترى الداخل فإذا بيده مصباح على شكل طائر ملتفت إلى أعلى والنور ينبعث من فتيلة مضيئة بارزة من منقاره، وقد أمسك الراهب المصباح بإحدى يديه من مقبض في أسفله بشكل الصليب. وتوكأ باليد الأخرى على عكازه. فلما رأته سالمة نهضت وتفرست في وجهه فإذا هو ذلك الراهب بعينه فرحبت به وهمّت بتقبيل يديه والصليب الذي بيده. وبينما هي تفعل ذلك إذ رأت راهباً آخر دخل وأسرع إلى يدها ليقبّلها فأجفلت وتراجعت خجلة، ولكنها ما لبثت أن تفرست في وجهه حتى عرفت أنه خادمها حسان، فبغتت

وكادت تنطق باسمه لو لم تنتبه لنفسها وتخاف الفضيحة، فتجلدت وأشارت إلى الراهب وحسان بالجلوس وجلست هي والدهشة لا تزال بادية في وجهها، وهي تتوقع أن تسمع من أحدهما ما يذهب دهشتها، فوضع الراهب المصباح على الأرض وجلس، وظل حسان واقفاً، فأشارت إليه أن يجلس، فجلس متأدباً وهو يقول بصوت منخفض: «أحمدُ الله على وصولي إليك يا مولاتي، وأرجو أن أكون قد جئتك بالفرج».

فهمّت سالمة بالجواب وهي تحاذر أن يبدو منها ما تؤاخذ عليه، لعلمها أن رئيس الدير شديد التعصب للافرنج ويكره العرب، فلم تكن تتوقع مجيء الراهب لنصرتها فقالت: «وما الذي جئتني به؟ أليس الأب من رهبان الدير الذي بتنا فيه وبقيت أنت هناك جريحاً؟».

فأجابها الراهب قائلاً: «وأنا أوصلتك إلى بواتيه حتى أخذوك مني، فرجعت وأخبرت الرئيس بما جرى ولولا ذلك لم يكن الاهتداء إليك ممكناً».

فلم يزدها قوله إيضاحاً للمهمة التي قدِما لأجلها، فالتفتت إلى حسان وتفرست في ثوبه فكاد يضحكها ما هو فيه من لباس الرهبان فقالت له: «يظهر أنك انتظمت في سلك الرهبنة».

قال: «لبست هذا الثوب يا مولاتي ذريعة للوصول إليك، وقد أشار الرئيس عليَّ بذلك وأنفذ معي الأب برسالة سيبلغك إياها».

فاشتاقت لمعرفة فحوى الرسالة والتفتت إلى الراهب ولسان حالها يقول: «تفضل».

ولما هَمّ الراهب بالكلام تذكرت سالمة ما أصابها في المرة الماضية مع رودريك، وكيف اطلع ذلك الأحوَل على حديثهما فطلبت إلى الراهب أن يتمهل وأشارت إلى حسان أن يتفقد الحرس وأماكنهم،

فأطل من باب الخيمة ومن ثقوب في بعض جوانبها فتحقق بعد الحراس على بضعة أمتار من الخيمة وهم جلوس يتحدثون فعاد وطمأنها وجلس. فأخذ الراهب يتحدث بصوت منخفض، وسالمة كلها آذان تستمع لكلامه فقال: «لا يُخفى على مولاتي أننا معشر الرهبان وسائر جماعة الأكليروس قد أوقفنا حياتنا لعبادة الله وخدمة بني الإنسان وخلاص النفوس، لا نبتغي على ذلك أجراً ولا شكوراً، ولذلك أكرم الملوك والأمراء وفادتنا وساعدونا في مشروعاتنا ونحن أيضاً ساعدناهم في حمل الشعوب على الطاعة، وكثيراً ما كنا سبباً في تنصيبهم وعزلهم، فأصبح الرهبان موضع ثقة أولي الأمر ومحل احترامهم، لا يحلون أمراً دونهم ونحن نحافظ على ولائهم ونخدمهم وسعنا. وكان الدوق أودو (وخفت صوته) من أنصارنا ونحن من أنصاره إلا في بعض الأحوال، ولكننا على الإجمال كنا نغضي عن بعض هفواته ونحملها منه محمل الضعف البشري، لعلمنا أننا في حال تدعو إلى جمع الكلمة أثناء الحرب. ولو انحرفنا عنه قليلاً وأظهرنا استياءنا منه أمام الشعب لقضي على دولته من زمان مديد، لأن الشعب الغالي أهل هذه البلاد الأصليين لا يحبون الافرنج وهم يرغبون في خلع نيرهم عند أول إشارة منا. ولكننا لم نفعل ذلك بل كنا نبذل الجهد في حفظ تلك السلطة لهم، وأظنك لحظت ذلك من رئيسنا المحترم في أثناء حديثك معه، أما الآن فقد ارتكب الدوق أودو أمراً دل على ضعفه وجبنه، لم يبقَ لنا معه صبر على هذه الحال، أظنك عرفت ذلك الأمر».

فأطرقت سالمة وأعملت فكرتها لمعرفة الأمر. فلم ينتظر الراهب جوابها وقال: «إن الأمر الذي أراده الدوق أودو إذا وفق إليه سيذهب بسلطانه ويضيع كرامتنا ويخرب أديرتنا، فيضيع الدين ويصبح الناس

فوضى"!.

ففهمت سالمة غرضه، وقالت: «أظنك تعني استنجاده الدوق شارل صاحب أوستراسيا؟».

قال: «نعم هذا ما أعنيه، لأن هذا الدوق من أشد الناس قسوة على رجال الله، وقد أذاق أكليروس أوستراسيا مر العذاب، فاستباح أملاك الأديرة ووزعها على جنده، وأهان الأساقفة وارتكب في ذلك كل معصية. وقد دعاه أودو لنصرته فإذا غلب العرب أصبحت اكيتانيا هذه في قبضته وأصبحت أديرتها نهباً لمطامعه. وكثيراً ما كان أودو يهم باستنجاد شارل ونحن نرجعه عن عزمه ونخوّفه على نفسه وعلينا، فلما خاف خيول العرب وسيوفها، استنجد ذلك الرجل، وقد وقع هذا الخبر وقعاً سيئاً عند أهل هذه البلاد كافة، كهنتها وشعبها، لعلمهم بسوء عاقبته».

وكان الراهب يتكلم وقلب سالمة يطفح سروراً، وتذكرت ما كانت تحدثها به نفسها في أثناء ذلك النهار، واعتقدت أنها ألهمت الصواب وأن الأمر ابتدأ ينقلب على الافرنج من تلك الساعة، ولكنها ظلت صامتة لتمسع بقية الحديث.

ولم يتوقف الراهب عن الكلام إلا ريثما سعل ومسح لحيته بمنديله ثم قال: «وكان من أشد الناس غضباً لذلك رئيسنا المحترم لأنه كان من أكثرهم ولاء لأودو ودفاعاً عن مصلحته، فلما علم بما ارتكبه أصبح شديد الرغبة في عرقلة مساعيه، لاعتقاده أنه إذا نجح في ذلك يكون قد خدم شعبه وحكومته وكنيسته. والظاهر أنه كان قد لحظ من كلامك نصرة العرب، أو ربما جاءه كتاب من أسقف بوردو في هذا الشأن، والذي أعلمه أنه بعث إليَّ ذات صباح وسألني عنك، مع أني كنت قد أنبأته يوم رجوعي بما جرى أمام باب بواتيه، ولكنه

دقق في البحث عنك وسألني عن الرجال الذين أخذوك مني، فأخبرته أنهم من رجال الدوق أودو فهز رأسه ومصّ شفته وأمرني أن أستقدم هذا الشيخ وكان قد أخذ في النقه من جرحه ولم أخبره بعد بخبرك لئلا أكدره. فلما أمرني الرئيس باستقدامه سرت إليه وقصصت عليه خبرك فتكدر، ثم أتيت به إلى الرئيس، فلما وقف بين يديه، أمرني فأقفلت الباب وأسر إلينا أمراً كلفني أن أبلغك إياه، ولا ريب أنه يسرك لأنه سيكون طبق الغرض الذي أنت ساعية فيه. هل أقوله؟».

فقالت: «أتسألني؟ قل».

قال: «قد أعطاني كتاباً كتبه بخط يده إلى رئيس دير القديس مَرْتين لا أدري فحواه، ولكنه ولا شك يتضمن تحريضه على مقاومة شارل وجنده حتى لا يفوزوا على العرب أو لكيلا يحاربوهم، لأن رئيسنا أصبح يفضل سلطان العرب عن سلطان شارل وزمرته، لما تحققه من رفق المسلمين برعاياهم المسيحيين فنأمن على أديرتنا وكرامتنا».

فابتسمت سالمة عند سماع تلك العبارة من شدة الفرح، ونسيت كل ما مر بها من المتاعب، وتحققت أن كل ما أصابها من الضر، إنما كان القصد منه الوصول إلى هذا الخير، وإن ذلك كله حدث بعناية مدبر هذه الكائنات وذلك هو اعتقاد أهل الأديان، والإنسان بفطرته ميال إليه، يحسب الدنيا وجدت لخدمته وحده! فإذا زرع وأمطرت السماء قال إنها تمطر إكراماً له، وإذا جفت فجفافها نكاية فيه. وإذا أصابته مصيبة ولو كان هو الجاني بها على نفسه شكا من فاعل آخر يتبع خطواته، فإذا لم يسمه الخالق سماه الدهر أو الزمان!.. فلما توسمت سالمة قرب نجاح مهمتها ابتسمت وقالت

للراهب: «وأين الكتاب؟».

فمد يده إلى كمه واستخرج لفافة دفعها إليها فتناولتها فإذا هي مختومة، فوضعتها في جيبها وهي تقول: «كيف السبيل إلى دير القديس مَرْتين، وحولي الحراس ساهرون ليلاً ونهاراً؟ ألا أحد يقوم بإبلاغ هذا الكتاب بالنيابة عني؟».

فقال الراهب: «لا يستطيع أحد سواك لأن الكتاب توصية بك، وقد ترك إقناع الرئيس لك، وأوصانا رئيسنا حفظه الله أن نبذل الجهد في إنقاذك من هذا السجن.. فما الذي ترينه؟».

قالت: «لا أدري. وأظن الرئيس قال ذلك وهو لا يعلم مقدار التضييق المحدق بي في هذا السجن، وقد شاهدتم ذلك بأنفسكم الآن وسمعتم أقوال الحراس، فهل ترون لي حلية؟!».

وكان حسان ما زال صامتاً، فلما رأى حيرتهما قال: «عليَّ تدبير هذا الأمر».

فالتفتا إليه معاً وهما يستبعدان مقدرته على ذلك، وسألته سالمة: «وما هو هذا التدبير؟ إن كانت عندك وسيلة فهذا وقتها!».

قال: «عليَّ تدبير ذلك الساعة».

قالت: «وكيف؟».

فوقف حسان وعمد إلى جبة الرهبة التي كانت عليه، فحل حبلها عن خصره وطوقها عن عنقه وأخذ في نزعها وهو يقول: «عليك بهذه الجبة فالبسيها فوق ثيابك، واجعلي هذه القبعة على رأسك وهي تسدل من الجانبين فتغطي الوجه، وإليك هذا العكاز واخرجي مع الراهب، فلا يشك أحد في أنكما الراهبان اللذان دخلا الآن، ومتى بعدتما عن المعسكر افعلا ما تريانه».

فأعجب الراهب بتلك الحيلة اللطيفة، واستغرب شهامة حسان وقد آثر أن يلقي بنفسه إلى التهلكة فداء مولاته، أما سالمة فلم تستغرب ذلك ولكنها لم تتمالك عن الثناء على حسان وقالت: «لا أستغرب هذه الشهامة يا حسان فقد رأيت منك مثلها مراراً، ولكني ضنينة بك لسابق تعبك، وقد دنا الوقت الذي آن لي فيه أن أكافئك على ما بذلته في خدمتي أعواماً عديدة، ولا سيما وإني كنت راغبة في لقائك لأبشرك بأمر يسرك كثيراً، ولا أقدر أن أخبرك به إلا إذا كنا معاً. وأخاف إذا افترقنا الآن ألا نلتقي».

فتوقف حسان عن خلع الجبة وتطاول بعنقه وقال: «أخبريني عن ذلك الآن قبل أن نفترق».

قالت: «عندي أمور كثيرة أقصّها عليك وأستطلع رأيك فيها، وسأحتاج إليك في تنفيذ بعض الشؤون».

قال: «وهل تظنين في بقائي هنا خطراً عليَّ؟ كوني مطمئنة وثقي أنكما لا تخرجان من هذا المعسكر حتى ألحق بكما!».

قالت: «أظنك إذا اطلعت على ما سأقصه عليك تفضل البقاء هنا بضعة أيام!».

فلم يعد حسان يستطيع صبراً على سماع ذلك الخبر فقال: «أخبريني يا مولاتي بما علمت مما يهمني سماعه، أو مريني بما تريدين ثم نتداول قبل ذهابك فيما تأمرين».

لكن سالمة تداركت موقفها.. ورأت أن تغض النظر عن اطلاع حسان على ما يشغله أو يؤخره في ذلك المعسكر، والحالة تدعو إلى سرعة إرساله إلى عبد الرحمن لتخبره بما علمته من شأن ميمونة، وما في معسكر الافرنج من المعدات، وما كان من استنجاد أودو بشارل، وغير ذلك مما يساعد العرب، فلما رأت قلق حسان ولهفته على

استطلاع الخبر قالت: «إن الوقت لا يساعدنا على ذلك يا حسان، وإني أفضل أن أبقى أنا وتذهب أنت برسالة مني إلى أمير العرب، فإن الحالة تدعو إلى الإسراع وإلا ضاعت الفرصة وذهب سعينا هباء منثوراً. فأطعني واذهب أنت ولا بأس عليَّ من البقاء هنا».

قال: «الأمر إليك يا مولاتي، ولكنني لا أرى شيئاً أدعى إلى العجلة من إطلاق سراحك لمقابلة رئيس دير القديس مَرْتين وعرقلة مساعي الدوق شارل القادم لنجدة هذا الجند، ومتى تم لنا ذلك نذهب كلنا بالبشائر إلى الأمير عبد الرحمن».

قالت: «ولكن الأمر الذي أريد إبلاغه إلى عبد الرحمن الآن أهم من خبر دوق أوستراسيا».

فاستغرب حسان ذلك وقال: «وهل هناك ما هو أهم من خبر هذا الدوق القادم لنجدة أودو بجيش جرار معه العدة والسلاح، فضلاً عن اشتهار شارل بالبسالة والقوة؟».

قالت: «إني إنما أخاف على جند العرب من عدو مقيم بقصر أميرهم وهم يحسبونه صديقاً. وقد اكتشفت سره أثناء إقامتي في هذا الاسر ولم يكن استنجاد شارل إلا برأيه. فإذا لم نبادر إلى كشف سره استفحل أمره!».

ـ ١٣ ـ
أول الأسرار

ذهل حسان لما سمعه من سالمة، ثم قال وهو يحدق بعينيه ويتطاول بعنقه: «مَن هو ذلك العدو يا مولاتي؟ قولي الآن ولا تخافي وجود حضرة الراهب فإنه صديق لنا مخلص في نصرتنا، أو تكلمي بالعربية فإنه لا يفهمها، قولي مَن هو ذلك العدو؟».

قالت: «هو ميمونة.. أو بالحري تلك المرأة الداهية التي سمت

نفسها ميمونة وما هي إلا ملعونة!».

قال: «ليس أمر هذه المرأة مجهولاً لدينا فقد شاهدناها غير مرة. فما الذي عرفته من أمرها هنا؟؟».

قالت: «لم أكن أجهل حقيقتها منذ رأيتها في معسكر عبد الرحمن للمرة الأولى، ولكني أجلت كشف أمرها ريثما أعود من مهمتي هذه، وخفت إذا أنا بحت بسرها أن يجر ذلك إلى تصريحها بحقيقة أمري، وأنت تعلم أننا لا نريد ذلك الآن، وإن كان اطلاع عبد الرحمن على أمري لا يزيده إلا إكراماً لي ولكنني آليت ألا أطلع أحداً على شيء قبل عبور هذا النهر (وأشارت إلى نهر لوار). ولو أنني علمت بما يترتب على سكوتي عنها لما صبرت على كتمان أمرها، وأما الآن فلا بد من كشف سرها لعبد الرحمن على عجل».

قال: «وما هو شأنها يا مولاتي؟ هل يجوز لي الاطلاع على هذا السر!». قال ذلك وجثا بين يدي سالمة وتطاول بعنقه وحملق بعينيه. فقالت: «وهل أخفي عليك سراً وأنت خزنة أسراري؟ بل أنت الرجل الوحيد المطلع على حقيقة حالي، بعد الكونت أودو الذي عرفني وهددني ثانية، ولكنه اشتغل عني بالحرب أو أرجأ النظر في شأني مطمئناً إلى أني سجينته، إن المرأة التي يسمونها ميمونة، ويحسبونها من نساء عبد الرحمن وتتقرب إليه بجمالها ومكرها، إنما هي لمباجة بنت الدوق أودو صاحب هذا الجند!».

فلما سمع حسان قولها ذُهِلَ ونهض واقفاً، وقال وقد بحّ صوته من محاولة تخفيضه وانفعاله: «بنت الدوق أودو هذا؟.. قائد هذا المعسكر؟!..».

قالت: «نعم هي بعينها، وأظنك تعرفها وقد رأيتها غير مرة مع زوجها المقتول. ألا تعرف المنيذر الافريقي الذي كان حاكماً في بلاد

البيرينه بين إسبانيا واكتانيا؟».

قال: «نعم أعرفه وأعرف أن الأمير عبد الرحمن الغافقي لما قام بجنده لفتح هذه البلاد، بلغه أن المنيذر هذا متواطىء مع الافرنج على العرب، فسار إليه وبغته وقتله، وأخذ أمواله ونساءه، وبعث بها إلى الخليفة في دمشق».

قالت: «أتعلم السبب الذي بعثه على مواطأة الافرنج على العرب؟».

قال: «كلا».

قالت: «إن الدوق أودو علم بما بين العرب والبربر من التحاسد لأسباب لا تُخفى عليك، وبلغه أن المنيذر صاحب نفوذ كبير في قبائل البربر وإنه إذا اكتسب ثقته واسترضاه يكون عوناً له على العرب، فاتصل به واتفق معه على أن يزوجه بلمباجة ابنته، وقد رضي أودو أن يزف ابنته إلى هذا البربري ليكون زمام هذا في يدها فتستخدم جمالها وما عهد فيها من الدهاء في حمله على الانتفاض على العرب. وقد أقامت لمباجة مع المنيذر مدة، وكاد أن يتم لها تنفيذ المكيدة التي دبرتها مع أبيها، لولا أن علم الأمير عبد الرحمن بالأمر، فسارع إلى إنقاذ العرب من ذلك الخطر الذي أحدق بهم، فقتل المنيذر، وحبطت مكيدة لمباجة وأبيها».

قال حسان: «نعم، لقد سمعت شيئاً من هذا من قبل، وسمعت أيضاً أن امرأة أخذت في جملة الغنائم إلى دمشق فيئاً للخليفة».

قالت: «لقد أشاعوا ذلك زوراً وبهتاناً، ويبدو أن لمباجة ألبست إحدى جواريها ثيابها وجعلتها تتسمى باسمها بينما تظاهرت هي بأنها إحدى الجواري، لتبقى في معسكر عبد الرحمن عيناً لأبيها على العرب

وحركاتهم. وقد تحققت أنها هي التي كتبت إلى أبيها لتستنجد شارل دوق اوستراسيا، ولم يكن ليقدم على ذلك من تلقاء نفسه حياء من رجاله ورعاياه، فأغرته هي بما لها من النفوذ عليه فاستنجده، ومما يخيفني من أمرها أن الأمير عبد الرحمن يثق بها ويستشيرها. فهل من خطر على جند العرب أعظم من هذا؟».

فقال حسان: «كلا يا مولاتي.. ينبغي أن أذهب بهذا الخبر إلى الأمير سريعاً فهل تكتبين كتاباً أحمله إليه».

قالت: «لا بدّ قبل كل شيء أن نخرج من هذا السجن، ومتى خرجنا سهل علينا كل عسير».

كان الراهب في أثناء حديث سالمة وحسان واقفاً يتشاغل بالمشي في أرض الخيمة والتطلع من بعض شقوقها وثقوبها إلى الخارج، ثم التفت إلى سالمة وقال لها: «أظننا أطلنا الكلام حتى قلق الحراس، فإني أراهم يتشاورون ويتهامسون، وأخاف أن يكون من ذلك خطر علينا!».

فقال حسان: «عليك بهذا الرداء يا مولاتي البسيه واخرجي مع الأب إلى خارج المعسكر، وسأتبعكما بعد قليل، والملتقى على ضفة نهر شير عند جوزة كبيرة قعدنا تحتها بالأمس أنا والأب». قال ذلك وألبس سالمة عباءة الرهبان، وجعل على رأسها القبعة، وأعطاها العصا، وأشار إليها بالخروج على عجل.

فتنحنح الراهب وقرع بعصاه عمود الخيمة وسعل وخرج من الخيمة وسالمة في أثره، فلما أطل على الحراس تظاهر باشتغاله بالصلاة، ثم رفع يده كأنه يباركهم فحنوا رؤوسهم جميعاً ونزعوا قبعاتهم إجلالاً واحتراماً، ولم يتجرأ أحد على الدنو منهما لما لاحظوه من اشتغالهما بالصلاة، وكانت سالمة تمشي وركبتاها ترتعدان، لا

خوفاً على حياتها، ولكنها استنكفت الفرار خلسة والتنكر بلباس الرهبان، وكانت تمشي وتتلفت يميناً وشمالاً وإلى ورائها، لعلها ترى حساناً قادماً، وقد ندمت على تركه في تلك الخيمة لأنه أقدر منها على إنفاذ ما تطلبه. وكان الظلام مخيماً لا يريان مما يحيط بهما غير الروابي أو الأشجار العالية.

وبعد مسير ساعة التفت الراهب إلى سالمة وقال: «قد أصبحنا على مقربة من الجوزة يا سيدتي، وهذه هي». وأشار بيده إلى الأمام فالتفتت فلم ترَ شجراً ولكنها رأت أغصاناً متفرقة تتراءى في الأفق فعلمت أن الشجرة في منخفض وأنها ترى رؤوس أغصانها، ثم رأت شبحاً يظهر بجوار الأغصان رويداً رويداً، كأنه قادم نحوهما من وراء أكمة فتفرست في ذلك الشبح حتى بدا ودنا منهما فإذا هو بلباس جند الافرنج، فاختلج قلبها إذ عرفت أنه عدلان الأحوَل فاستعاذت بالله منه وخافت على حسان من دهائه، أما هو فقد مرّ بهما دون تحية أو كلام فسُرّت سالمة بذلك.. وبعد قليل وصلا إلى قمة التل فشاهدت وراءه شجرة هائلة تظل سهلاً واسعاً، فانحدرا إليها وجلسا تحتها وبين يديهما عين ماء تصب في منحدر تحته واد يجري فيه نهر شير. وكانت سالمة قد تعبت من المسير والقلق فجلست على حجر هناك، وقالت للراهب: «إني خائفة على حسان، وما أظنه يستطيع الخروج من المعسكر».

قال: «لا خوف عليه، فإذا لم يخرج الآن، خرج بعد ساعة أو ساعتين، حينما ينام الحراس».

قالت: «لا أخاف عليه من الحراس، ولكنني أخاف عليه من هذا الرجل الذي رأيته ماراً بنا وهو الذي وشى بي حتى قبضوا عليَّ، ولو لم يكن غائباً الليلة عن المعسكر لما انطلت حيلتكم على الحرس!».

وفيما هما في مثل هذا الحديث، وسالمة تعد اللحظات وتحسب

الدقيقة يوماً من شدة القلق، سمعا وقع أقدام مسرعة فالتفتا فرأيا شبحاً يعدو نحوهما، فلم تشك سالمة في أنه حسان، فلما اقترب منهما ارتعدت فرائصها من منظره لأنه كان عاري الصدر والذراعين مكشوف الرأس، وقد نبش شعره وأرسله على وجهه حتى أصبح كأنه من الشياطين على ما كانوا يصفونهم في ذلك العصر، لكنها لم تلبث أن سمعته يقول: «لا تخافي يا مولاتي.. أنا حسان!»، فاطمأنت، فلما دنا منها صاحت فيه: «ويلك! ماذا صنعت؟».

قال: «لولا هذه السحنة ما نجوت من الأسر، فإني لما تحققت بعدكم عن المعسكر تعرّيت كما تريان، ونبشت شعري، وخرجت من خلف الخيمة أعدو على يديّ ورجليّ وأصيح صياح الشياطين، فأجفل الحراس من حولي وتفرقوا لاعتقادهم أني شيطان، ولم يرجع إليه رشدهم ويفطنوا إلى الحيلة حتى صرت خارج المعسكر. ولكنني التقيت هناك برجل أظنه عدلان البربري الأحوَل وقد رآني ولم يعرفني. هل شاهدكما هنا؟».

قالت: «رآنا ولم يعرفنا».

فقال: «لا بدّ لنا إذن من تغيير هذا المكان، أعطوني العباءة أولاً».

فأعطته سالمة العباءة فلبسها وهو يقول: «هلم بنا نذهب من هنا فإن هذا البربري الشرير لا يلبث أن يصل إلى المعسكر ويعلم بفرارك على يد الراهبين فيسارع إلى هنا بالجند، ولا طاقة لنا بالحرب!».

فقال الراهب: «هذا هو الصواب، فلنمض إذن إلى دير القديس مَرْتين، ولعلنا نبلغه قبل الصباح فنصير هناك في مأمن. وإذا شئت إرسال حسان بعد ذلك فافعلي، وربما أرسلنا معه مَن يدله على الطريق».

سارت سالمة قاصدة إلى الدير، والراهب أمامها، وحسان خلفها، فبلغوه عند الفجر وقد أخذ التعب منهم مأخذاً عظيماً، فأطلوا على حلة أشبه ببلد صغير يتوسطه بناء شامخ محاط بسور عالٍ مثل سائر الأديرة هناك ولكنه أفخمها جميعاً، ومحيط السور هائل يحسبه الناظر سور مدينة لسعته وارتفاعه. وكان دير القديس مَرْتين مشهوراً في اكتانيا وأوستراسيا وسائر أوروبا بالغنى والثروة لكثرة ما حواه من الآنية الذهبية والفضية، غير الأموال المدخرة في خزائنه من الهبات والنذور ونحوها، وكانت سالمة قد سمعت بذلك الدير ولم تدخله بعد، فلما أطلت عليه تركت للراهب أن يتصرف في كيفية الدخول، فإذا به تقدم إلى الباب وهو كبير خلافاً لأبواب سائر الأديرة، فأمسك بحبل مدلى هناك وشده فدق الجرس دقة خاصة. وبعد هنيهة أطل راهب من برج فوق الباب فكلمه الراهب رفيق سالمة باللاتينية، فأسرع إلى الباب وفتحه ورحّب بالقادمين، فدخل الراهب وسالمة من باب آخر وراءه، فأطلا على فناء واسع أشبه شيء بالحديقة، وفي وسط الفناء بناء كبير هو الدير، وبجانبه بناء آخر عرفا من قبته ومن الصليب الذي على قمتها أنه كنيسة القديس مَرْتين.

وكان حسان سائراً في أثرهما وهو ما زال في شكله الغريب، فأمره رفيقه الراهب أن يمكث عند الباب وأشار إلى البواب أن يبقيه عنده ريثما يطلبانه، فمكث هناك وظلت سالمة والراهب سائرين، والراهبان يتخاطبان باللاتينية، فلم تفهم سالمة من حديثهما إلا قليلاً. ثم تكلم راهبها بالافرنجية قائلاً: «إن السيدة قادمة بكتاب إلى الأب المحترم رئيس هذا الدير، فهل هو هنا؟».

قال: «أظنه لا يزال عبر النهر عند دوق اوستراسيا إلا إذا كان قد دخل الدير من بابه الآخر المشرف على النهر».

قال: «ومتى قطع النهر؟».

قال: «قطعه أمس الأول على حين غفلة منا».

قال: «وما الذي دعاه إلى ذلك؟».

وكان الراهب يتكلم وهو يمشي في الحديقة بين أشجارها ويتفرس في طرقها كأنه يفتش عن ضائع. فلما أفضى بهم الحديث إلى هنا كانوا قد وصلوا إلى مقعد من الحجر بجانب الكنيسة، فأشار الراهب إليهما بالجلوس فجلسا وقد أوشك الصباح أن يُشرق، فطارت العصافير وانطلق النسيم واختلط حفيف الأشجار بتغريد الأطيار، فكان لذلك تأثير شديد على سالمة بعد أن قاست ما قاسته من التعب والقلق طول الليل الغابر وأحست بالنعاس ولكنها أرهفت حواسها لسماع حديث الراهبين، لتقف على سر خروج الرئيس من الدير على غرة، فسمعت الراهب يقول: «إن الذي دعا إلى خروجه يا أخي أمر جديد كفانا الله شره».

فقال الراهب: «وما هو ذلك الأمر لا سمح الله به؟».

قال: «ألم تسمع بقدوم الدوق شارل صاحب أوستراسيا بجيشه الجرار؟».

قال: «سمعت أنه آت فهل وصل؟».

قال: «نعم يا أخي وصل منذ أيام وهو الآن على الضفة اليمنى فبعث حال وصوله إلى رئيس ديرنا أن يوافيه إلى هناك على عجل فلم يسعه إلا الامتثال».

قال: «وما الذي يبغيه منه؟ وليس عنده جند..».

قال: «يظهر أنك تجهل أمر هذا الدوق مع رجال الله والكنائس والأديرة..».

قال: «أعرف قليلاً..».

قال: «ألا تعرف طمعه في أموال الكنائس وأرزاقها.. وهل فاتك ما فعله بأكليروس أوستراسيا من المظالم».

قال: «سمعت بعض الشيء. وأخاف أن يفعل مثل ذلك في كنائسنا هنا».

قال: «وهذا الذي نخافه نحن..».

وعلى حين غرة سمعا قرع جرس فدُهش راهب الدير ووقف الباقون يحسبون الجرس يُقرع للصلاة، ولكنهم رأوا الكنيسة مقفلة وقد تقاطر الرهبان من كل ناحية نحو ممر من طرقات الحديقة يؤدي إلى سور الدير من جهة النهر، فظلت سالمة وراهبها واقفين بجوار المقعد ينتظران ما يكون. فما لبثا أن رأيا جماعة من الرهبان عائدين وفي مقدمتهم راهب بلباس خاص يمتاز عن الباقين وعلى رأسه قلنسوة خاصة فعرفت سالمة أنه الرئيس وقد عاد من المهمة التي ذهب من أجلها إلى شارل، فاستغربت منه رجوعه المبكر المفاجيء وتفرست فيه عن بُعد فرأته ماشياً وحوله الرهبان، والجميع سكوت تهيباً مما في وجهه من ملامح الغضب.

وكان الرئيس كهلاً ذا لحية كثيفة وخطها الشيب في أواسطها من مقدم الذقن ولا يزال الباقي غضاً حالكاً. وكذلك شارباه فإنهما كانا غليظين كثيفين وعيناه كبيرتان براقتان فوقهما حاجبان عريضان ومنظره على الإجمال وقور مهيب. وقد زاده الغضب هيبة ووقاراً حتى ألجم الرهبان كافة عن الكلام. فتوسمت سالمة في ذلك الغضب خيراً، ولما دنا من الدير أسرع رفيقها الراهب إلى يده فقبّلها وهو جاثٍ وقبعته بيده، ففعلت سالمة مثله، ثم تنحى الجميع ودخل الرئيس من باب الدير وتبعه جماعة الرهبان وعلى وجوههم الحيرة لا يجسرون على

الكلام إلا همساً.

فظلت سالمة وراهبها يتحينان فرصة ليدخلا إلى الرئيس، وكانت سالمة تؤثر الدخول عليه وحدها ومعها الكتاب. وبعد هنيهة جاء الراهب الذي استقبلهم على باب السور وقال: «ها هو الرئيس قد عاد، فما الذي تريدانه؟».

قالت سالمة: «أريد أن أحظى بتقبيل يده ومعي كتاب أريد تقديمه إليه».

قال: «وأين الكتاب؟».

فمدت يدها وأخرجته من جيبها ودفعته إليه مختوماً فتناوله ودخل ثم عاد ودعا سالمة للدخول وحدها، فسُرت لذلك ومشت وهي تعد في ذهنها ما تقوله للرئيس، لعلمها أن رئيس دير القديس مَرْتين يمتاز عن سائر رؤساء الأديرة بعلو منزلته وغنى ديره. فدخلت في دهليز انتهت منه إلى باحة رأت فيها الرهبان متزاحمين يذهبون ويجيئون كأنهم في شاغل عظيم وقد تسرّبوا أزواجاً وأثلاثاً. فلما رأوها افسحوا لها، فمشت والراهب يتقدمها حتى وصلت إلى غرفة الرئيس، وعلى بابها ستر شقه الراهب بيساره وأشار إلى سالمة بيمينه أن تدخل فدخلت قاعة مفروشة بالبسط وعلى جدرانها صور بديعة رائعة تمثل أهم حوادث النصرانية. وفي صدر القاعة صورة القديس مَرْتين بالحجم الطبيعي الكامل، ورأت الرئيس جالساً على مقعد في صدر القاعة تحت الصورة. فلما دنت منه جثت وهمَّت بتقبيل يده فأنهضها ودعا بكرسي أجلسها عليه وقد تبسم ترحيباً بها والغضب بادٍ في عينيه.

فجلست سالمة والخمار يجلل رأسها وثوبها الأسود يزيدها كمالاً ورزانة وظلت صامتة إحتراماً للرئيس. أما هو فأعاد نظره في الكتاب

وتفرس فيه كأنه يقرأه ثانية ثم قال: «ممن هذا الكتاب؟».

قالت: «إن علامة صاحبه فيه».

قال: «لا أرى علامة ولكنني عرفته من خطه.. هل أنت سالمة؟».

قالت: «نعم يا مولاي أنا أمتك سالمة».

قال: «العفو يا أختي كلنا عبيد الله. ماذا تريدين مني الآن؟».

قالت: «لا أريد إلا ما تريده أنت ولا رأي لي فأنت صاحب الرأي فاغتصب ابتسامة وقال: «لا حاجة لنا إلى المجاملة والمداهنة.. لقد جئتني لأمر، يقول أخي رئيس الدير أنه يهمني ويهمه إذ يتوقف عليه مستقبل الكنيسة في اكيتانيا فاشرحي أمرك».

قالت: «إني خاطئة لا أستحق هذه العناية، ولكنني كنت قد جادلت كاتب هذا الكتاب في أمر عارضني فيه وأنكره عليَّ فلما سمع بقدوم الدوق شارل إلى هذه البلاد استصوب رأيي.. فهل راقك مجيء الدوق؟ اصفح عن جرأتي في السؤال فعليه يتوقف مجرى حديثي».

قال: «صدقت يا ابنتي فإنه لا يجسر أحد من رهباني أن يسألني هذا السؤال ولكنك أتيت في وقت حرج. وفي كلام أخي الرئيس صاحب هذا الكتاب ما يحملني على الاطمئنان.. فأجيبك بأني أرى الدوق شارل خطراً على الكنيسة في اكيتانيا».

قالت: «وهذا الذي رآه الرئيس أيضاً، وقد أرادني أن أكون واسطة في عرض أمر أرجو أن يعود بالنفع على الكنيسة وأهلها..».

قال: «وماذا تعرضين؟».

قالت: «هل تعد الدوق شارل مسيحياً حقاً؟».

قال: «هو يزعم أنه مسيحي ولكن أنّى له ذلك وقد حلل ما حرمته الكنيسة.. كنا نسمع عنه أموراً لم نكن نصدقها لغرابتها حتى سمعناها من شفتيه». قال ذلك وقد تجدد غضبه، ثم قال: «كنا نسمع أنه أخذ مال الأديار وأساء إلى الأكليروس وكنا نستغرب ذلك عنه حتى دعاني بالأمس إليه، وبدلاً من أن أسمع كلاماً ليّناً لحاجته القصوى إلينا سمعت منه تهديداً ووعيداً».

فسرت سالمة لهذه الشكوى واستبشرت بنيل بغيتها، ثم أردفت: «تهديد ووعيد؟.. ولماذا؟ هل أنتم عصاة؟».

قال: «كلا يا ابنتي ولكنه كلفني أمراً لا طاقة بإطاعته فيه.. دعاني وطلب إليّ أن أؤدي ما في صندوق هذا الدير من الأموال عاجلاً لأنه يحتاج إليها في الحرب وتحدث عن فضله علينا في هذه الساعة الرهيبة لأنه سيدفع عنا العرب.. سامح الله الدوق أودو إنه سيجر علينا البلاء مضاعفاً باستنجاد هذا الرجل المستبد».

فأجابت: «حقاً إن الخطأ الأكبر جاء من الدوق أودو، فقد أضاع استقلاله وجرّ البلاء على الكنيسة.. وما الذي يظنه مولاي الرئيس في هؤلاء العرب».

قال: «أعداؤنا وأعداء ديننا؟».

فابتسمت بلطف وقالت: «اسمح لي أيها الرئيس المحترم أن أعترض على هذه التهمة.. هل عرفت العرب أو صاحبتهم؟».

قال: «كلا ولكنني سمعت عنهم شيئاً كثيراً.. سمعت أنهم يعبدون الأصنام وأنهم إذا نزلوا بلداً نهبوا كنائسه وسبوا نساءه وخربوا منازل أهله..».

قالت: «ألا تصدق امرأة عاشرتهم أعواماً؟».

قال: «هل عاشرتهم كثيراً؟.. وأين؟ وما هي علاقتك بهم؟ يلوح لي أنك من أهل هذه البلاد..».

قالت: «يسمح لي مولاي أن أجيب على أسئلته قدر الطاقة.. صاحبت هؤلاء العرب أعواماً فعلمت أنهم أهل دين مثل ديننا يعبدون الله مثلنا وأهل رفق وعدل يفون بالعهود وبالعقود. فتحوا بلاد الإسبان ومعظم اكيتانيا فلم يرَ منهم إلا العدل والرفق. فالنصارى في اسبانيا وفي بوردو وفي بواتيه وغيرها من البلاد التي فتحوها يتمتعون بحريتهم الدينية لا خوف على كنائسهم ولا على أموالهم ولا ما ملكت أيمانهم، ولا يخلو أن يطمع أحدهم فينهب أو يسلب فينال جزاءه من أميره. ثم قصّت عليه حكاية كنيسة بوردو وبذلت جهدها في تنميق العبارة وبسطها، لعلمها أنها إذا أقنعت رئيس دير القديس مَرْتين سهل عليها إقناع أسقف تورس، وإذا لم يساعدوا العرب فيكفيها ألا يساعدوا الافرنج.

وكان الرئيس يسمع كلامها ويحدق في وجهها ليستطلع حقيقتها فلم تسعفه الفراسة إلا قليلاً، وظل مستغرباً غيرة هذه المرأة على العرب وهي غير عربية ـ ولكنه استحسن ثناءها على العرب وهو في تلك الحال فخيّل إليه أن مجيء هذه المرأة عقب نفوره من شارل وخوفه منه لا يخلو من عناية روحانية، فمالَ إلى مجاراة سالمة في رأيها ولكنه استعظم أن ينصاع إليها تواً، وأراد مع هذا أن يحافظ على غيرته الدينية لعلمه أن انحيازه إلى العرب إذا لم يكونوا كما وصفت يغيّر مستقبل النصرانية في تلك البلاد ويقلب الأحوال رأساً على عقب. وكان من ناحية أخرى يرجو من شارل أن يقلع عن مطالبه فإذا فعل لم يبقَ ثمة داع لعدم نصرته، فظل مطرقاً وهو يعبث بأطراف لحيته ثم التفت إلى سالمة وقال لها: «إني شاكر سعيك وأرجو منكِ أن تمهليني

ريثما أفكر وأستخير الله وأعمل بإلهامه جلّت قدرته».

قالت: «فكر في الأمر يا مولاي كما تشاء، ولكنني أذكرك بما أنت مسؤول عنه أمام الله في مراعاة صالح الرعية، فهدفي أن يعود سعيك بالخير على الكنيسة وأهلها». قالت ذلك ووقفت، فابتدرها الرئيس قائلاً: «أما أنت فستمكثين عندنا حتى نرى ما يكون».

فأدركت أنه يريد استبقاءها عنده رهينة ليرى صدق قولها، فلم تبال لاعتمادها على وعود عبد الرحمن فقالت: «إني رهينة أمرك».

فصفق الرئيس فجاء أحد الرهبان فقال له: «انزل هذه الضيفة في حجرة خاصة بها وأكرموها».

فمضت مع الراهب إلى علية أعدوها في طرف الدير من جهة نهر لوار، ولها نافذة مطلة على النهر. فاتكأت على السرير وقد أخذ التعب منها مأخذاً عظيماً فاستلقت ونامت نوماً عميقاً. ولم تفق إلا على قرع الجرس يدعو الرهبان للغداء فنهضت والتفت بثيابها وأطلت على النهر فدُهشت لما شاهدته عن بُعد من السفن الصغيرة المتراصة صفوفاً كالجسور، وقد أخذ الناس في العبور عليها إلى هذه الضفة ومعهم الأعلام أشكالاً وألواناً.

فعلمت أنهم جنود شارل، ووقفت تنظر إلى مجرى النهر، فسبحت أفكارها معه إلى مريم والعهود التي تربطها بذلك النهر وما يتوقف على تصادم الجيشين هناك من الأمر الهام. وكانت كثيرة الاطلاع على أحوال الافرنج وتعلم أنه لم يبق عندهم رجل قوي سوى شارل هذا. فإذا دارت الدائرة عليه فالغلبة لا شك للمسلمين على كل أوروبا إذ لا يقف في طريقهم بعد ذلك عائق. أما إذا كانت الغلبة للافرنج فلا مقام للمسلمين هناك أبد الدهر ـ وأشد من ذلك وطأة عليها أن العرب إذا عجزوا عن عبور نهر لوار لم يبقَ لها ولا لابنتها

عيش.. فلما خطر لها ذلك الخاطر، مدت يدها إلى جيبها وافتقدت المحفظة وفيها كل سرها. ثم أخرجتها وقبّلتها، فدمعت عيناها وأحست بشوق شديد إلى مريم بعد الغياب الطويل وهي لا تدري ماذا أصابها على أنها لم تكن تخاف عليها أحداً لعلمها بتعقلها وبعناية عبد الرحمن بها ـ وظلت تنظر إلى عبور الجند وقد راعتها كثرتهم على الضفتين وصوت الطبول يقرع سمعها رغم بُعد المسافة، لأن الهواء كان يهب من الشمال والشرق والصوت يأتي معه. قضت سالمة في ذلك ساعة ولو تركت لنفسها لانقضى النهار عليها ولكنها ما لبثت أن سمعت قرع الباب فقامت وفتحته وإذا براهب ومعه خادم يحمل خواناً عليه الأطعمة فقدماها لها وخرجا، فأحست بالجوع فجلست، ولم تزدرد اللقمة الأولى حتى تذكرت حساناً ورفيقها الراهب فصفقت فجاءها خادم فطلبت إليه أن يأتي بخادمها إليها. فذهب وعاد بحسان وهو بعباءة الرهبان وشعره لا يزال منبوشاً، فلما دخل أمرَته أن يقفل الباب وراءه. ودعته للجلوس فأبى فقالت: «دعنا من المجاملة فإنك من أعز الأعزاء إليَّ وأيّ عزيز يضحي بنفسه لأجل صديقه أو صاحبه كما فعلت أنت.. اجلس وكُلْ معي».

فتراجع وقال: «أما الجلوس فسمعاً وطاعة وأما الطعام فقد سبق وأكلت مع بواب الدير لأنك أبطأت في دعوتي فخفت أن يكون مسعاك قد خاب مع الرئيس..».

قالت: «لم يخب والحمد لله.. وعلينا الآن أن نبلغ الأمير عبد الرحمن بما فعلناه، ليفكر فيمَ يصنع بتلك الداهية.. وأين جند العرب الآن؟ هل تعلم عنه شيئاً؟».

قال: «علمت من حديث دار بيني وبين بعض الرهبان صباح اليوم أن العرب أصبحوا قريبين من هذا المكان من جهة الغرب وإن

جند شارل قادم من جهة الشرق وسيلتقي الجيشان في هذه الساحة جنوبي هذا الدير».

فأبرقت أساريرها انفعالاً، وقالت: "هل أنت واثق من ذلك يا حسان؟».

قال: «هذا الذي سمعته يا مولاتي والخبر متواتر وأظنه صحيحاً».

قالت: «فعلينا الإسراع في إبلاغ الرسالة، وكم كنت أود أن أذهب معك لولا أن الرئيس قد شرط عليَّ أن أمكث هنا لغرض لا أعلمه».

فقال: «الأوفق أن تبقي في الدير فتكونين في أمان من كل شر لأنه فضلاً عن امتناعه بالأسوار والأبراج فهو حرم عند الجيشين ـ ألقي ما بقي من الشؤون عليَّ.. فإني أفعل ذلك إن لم يكن إكراماً لك، فإكراماً لنفسي، ففي فوز العرب فوزي وفي سقوطهم سقوطي».

فتذكرت سالمة ما كان من حديث رودريك. وقد فاتها أن تخبره به بالأمس فقالت: «عندي خبر جديد يهمك أكثر من كل شيء..».

فقال: «وما هو يا سيدتي؟».

قالت: «أتذكر حفيدك سعيداً؟».

فأجفل عند سماع ذلك الاسم لطول ما مر به من الأيام، وهو يحسبه في عداد الأموات. وقال: «كيف لا أذكره.. رحمه الله ورحم والده».

قالت: «إنه لم يمت يا حسان».

قال: «من؟ سعيد حي.. أين هو؟».

قالت: «هو في معسكر الدوق أودو، ويعرف برودريك». وقصّت عليه بعض خبره فأطرق وبهت كأنه في حلم، ثم رفع بصره وقال: «وهل هو هناك الآن؟».

قالت: "لا أدري ولعله سجين عندهم".

قال: «سأبحث عنه بعد ذهابي برسالتك إلى الأمير عبد الرحمن».

فأعجبت بإيثاره خدمتها على البحث عن حفيده مع شدة قلقه عليه. فلما فرغت من الطعام أمرت حساناً فجاءها بمداد، وتناولت منديلاً كتبت عليه رسالة إلى عبد الرحمن ولفتها ودفعتها إلى حسان وقالت له: «سر في حراسة الله، وإذا احتجتم إليَّ في شيء فإني مقيمة هنا. وأرى قبل ذهابك أن تصلح من شأنك وتتزيا بزي الرهبان لتأمن غوائل الطريق، وأظن رفيقنا الراهب عائداً إلى ديره فاصطحبه وأقرأه السلام عني...».

— ١٤ —
في ساحة القتال

فلنرجع الآن إلى معسكر عبد الرحمن، بعد طول سكوتنا عنه واشتغالنا بحديث سالمة - تركناهم قرب مضيق دردون بعد أن فرّ الافرنج من أماكنهم، فمكثوا هناك ينتظرون رجوع سالمة من مهمتها. وقد مر بنا ما كان من مقتل بسطام وفشل ميمونة وعرفنا أنها لمباجة الفاتنة بنت الدوق أودو، وقد وضعت نفسها موضع إحدى السبايا، خدمة لوالدها فانطلت حيلتها على عبد الرحمن ورجاله ولولا سالمة لظل أمرها مكتوماً. وكانت سالمة قد عرفتها عندما قابلتها في الخباء ولكنها خافت على سرها هي أن تكشفه ميمونة، فأجلت الأمر إلى حين رجوعها، ولو علمت حقيقة غرضها ما صبرت على أمرها - فظلت ميمونة بعد ذهاب سالمة والكل يعتقدون أنها من وصيفات

لمباجة. وكانت لا تدخر وسعاً في عرقلة مساعي العرب بكل سبيل. فلما فرغت يدها من واقعة دردون ونجت من التهمة، عمدت إلى أحد شياطينها فبعثت معه كتاباً إلى والدها أنبأته فيه عن مهمة سالمة والغرض الذي ذهبت من أجله إلى بوردو وبواتيه وحرضته على القبض عليها لأنه إذا حبسها فكأنه حبس نصف جيش المسلمين فلم تدركها المكيدة إلا على أبواب بواتيه. وكانت ميمونة قد تحققت عجز أبيها عن دفع ذلك الجند من العرب، بعدما شاهدته في الواقعتين الأخيرتين من اتحاد القبائل وعجزها عن تفريق كلمتها فعمدت إلى شيطانها الأحوَل وبعثت به إلى أبيها تستحثه على استنجاد شارل لعلمها أن أباها لا قبل له بالأمر وحده ـ ومن غريب دهائها واقتدارها أنها كانت شديدة التأثير على والدها لا تكاد تشير عليه بأمر إلا نفذه لاعتقاده بسعة اطلاعها ورجاحة عقلها وعلمها بأحوال العرب بعد الإقامة بينهم أعواماً. فلما جاءه كتابها كان قد يئس من الفوز وخاف على نفسه فصادف رأيها هوى في نفسه فبادر إلى مخابرة شارل دوق أوستراسيا، فلبى هذه الدعوة لعلمه أنه إذا انتصر على المسلمين انتصر على أودو، وملك فرنسا كلها.

أما عبد الرحمن فلما طال غياب سالمة، ملّ الانتظار وبعث يفتقدها في بوردو، فعلم أنها خرجت منها منذ أيام. وكانت مريم على رغم محبتها لهانىء ونسيانها كل شيء في سبيل عواطفها أشد الجميع قلقاً على والدتها. وكان هانىء يختلس الفرص في أثناء الإقامة هناك ويجتمع بمريم إما في الخباء أو في الصحراء، يتحادثان ويتشاكيان في غفلة من الرقباء، وظل عبد الرحمن يغض النظر حتى تمكن الحب من قلبيهما وكادا ينسيان الحرب وأسبابها لو لم يكن زواجهما متوقفاً عليها وعلى اختراق اكيتانيا إلى نهر لوار. ولذلك لم يكن هانىء

يفتر عن تحريض عبد الرحمن على القتال قبل فوات الفرصة واستعداد الأعداء. وعبد الرحمن يأخذ الأمر بالتؤدة والتأني ـ حتى جاءهم النبأ ذات يوم بأن أودو قد استنجد شارل، فعقد عبد الرحمن مجلساً من الأمراء حضره هانيء وأطلعهم على الخبر، فقال هانيء: «وهذا ما كنت أخشاه ولذلك كنت أستعجل الأمير في القتال».

فقال عبد الرحمن: «فالذي أراه أن نبادر حالاً إلى السير».

قال هانيء: «وهذا ما أراه».

ولبث عبد الرحمن ساكتاً ليسمع آراء سائر الأمراء وفيهم أمراء البربر، فلم يفه أحد منهم بكلمة فخاف ذلك السكوت. وأدرك هانيء خوفه وعلم أن مطامع البرابرة منصرفة إلى الغنائم والسبايا وأنهم لما علموا باتحاد جيشي اكيتانيا وأوستراسيا خافوا على أنفسهم، فوقف هانيء وقال: «لا حاجة بنا إلى البحث طويلاً في هذا الشأن فإن الله قد ضمّ جيش أوستراسيا إلى جيش اكيتانيا غنيمة لنا.. فعند أولئك من الأموال والتحف ما لا تقاس به تحف هذه البلاد فإذا غلبنا الجيشين في موقعة واحدة، ملكنا هذه الأرض الكبيرة كلها وقطعناها إلى رومية والقسطنطينية فنتم فتح العالم كله وننشر الإسلام في الناس كافة ويكون الفضل في ذلك لسيوفكم وخيولكم» قال ذلك وقد مزج الغنائم بالجهاد حتى لا يخجل طالب الغنيمة من إجابة سؤل نفسه، فما أتم كلامه حتى صاح الجميع بصوت واحد: «الخيل الخيل».

فقال عبد الرحمن: «بارك الله فيكم ونفع الإسلام بكم»، ثم أمرهم بأن يأخذوا أهبتهم للرحيل. ولما انصرف الأمراء بقي هانيء وعبد الرحمن، ولحظ هانيء انقباضاً في نفس عبد الرحمن: فقال: «ما بالك منقبض النفس وقد أطاعنا هؤلاء على المسير».

قال: «أنت تعلم يا هانيء إنهم لا يحاربون إلا طمعاً في

الأموال، وقد تجمعت الغنائم عندهم حتى كادوا ينوؤون تحت أثقالها فالرجل منهم لا يكاد يستطيع حمل طعامه وغنائمه، فبماذا يقاتلون؟».

قال هانىء لقد نبهتني أيها الأمير إلى أمر ذي بال.. إن غرام هؤلاء البرابرة بغنائمهم ضربة ثقيلة على هذا الجيش ليس لاستئثارهم بها دون سواهم فحسب بل لأنهم يشتغلون بها عن الحرب، فهم إذا حملوها أثقلتهم وأعاقت حركتهم وإذا خلفواها خلفوا قلوبهم معها فلا بد من حيلة نحتالها عليهم في ذلك.

فأطرق عبد الرحمن ثم وقف فوقف هانىء معه وتشاغل عبد الرحمن بإصلاح عمامته وهانىء بإصلاح بند حسامه ثم التف عبد الرحمن بعباءته وهو يقول: «لا بد لنا من النظر في هذا الأمر - فإن ترك هذه الغنائم الثقيلة والذهاب إلى القتال بدونها أجدى علينا جميعاً ولكن مَن يجسر أن يقول لهؤلاء البرابرة تخلوا عن غنائمكم. ونحن إنما رغبناهم في الحرب بالغنائم والأموال»، فضحك هانىء وقال: «أظنك لحظت ذلك في عبارتي عندما كلمتهم - وقد كان في نفسي أن أرغبهم في سرعة المسير إلى تورس بذكر ديرها الغني واسمه دير القديس مَرْتين وهو من أغنى الأديرة الافرنجية ولكنني خفت أن يشتغلوا بنهبه عن الحرب فنضيف كره الأهالي والكهنة إلى عداء الجند».

قال عبد الرحمن: «لقد أحسنت بالسكوت عن ذلك والذي أراه متى وصلنا إلى ساحة الحرب أن ندبر تدبيراً لا يغضب أحداً فنجعل هذه الغنائم في مكان خاص ليطمئن أصحابها عليها، أو نجعلها وراء الأخبية أو بينها وبين الجند». فمشى هانىء وهو يقول: «سننظر في ذلك في حينه». وخرجا لإعداد معدات السفر.

أما مريم فكانت قد استحكمت بينها وبين ميمونة أواصر الصداقة ولم تكن هذه تدخر وسعاً ولا تضيع فرصة لكسب قلب مريم بإطرائها تارة وبالإعجاب بها أخرى ومريم لسلامة نيتها وصدق محبتها وضعت ثقتها بميمونة. ولم يكن ذلك عن جهل أو بَله فيها ولكن حر الضمير يصدق الناس ويعتقد أنهم يصدقونه. وفي جملة ما استخدمته ميمونة من أسباب خداع مريم أنها كانت تحدثها بحوادث وقعت لها مع عبد الرحمن أو غيره تزعم أنها مما لا يفشى لغير الأصدقاء الأخصاء وتتوقع أن تفشي لها مريم شيئاً من سرها مع هانىء ولكن مريم كانت شديدة الحرص على أسرار الحب وميمونة تحسن لها كتمانه فيزيدها ذلك استسلاماً لها. فلما تمكنت ميمونة من مريم وظفرت بثقتها، أصبحت هذه لا تفارقها إلا ساعة الرقاد أو عند لقياها هانئاً لأسباب قاهرة.

وفي صباح الغد قوضوا الخيام وشالوا الأحمال على الجِمال والبغال وسار الجند على نظام تلك الأيام ـ المشاة حسب قبائلهم وأمام كل قبيلة راية خاصة بها يحملها أحد فرسانها وقد يكون للقبيلة عدة رايات تتلاعب في الهواء حتى إذا نظر ناظر إلى ذلك الجند ورياته عن بُعد، توهم الرايات أشرعة وظن حملتها سفناً والناس بحراً، ومسيرهم موجاً يتلاطم وكأن عمائمهم البيضاء مع رؤوس الأسنة تكسر الموج على سطح البحر. وكان في المشاة رجال البربر حسب قبائلهم ومعهم الموالي من غير العرب كالنبط والشوام وغيرهم، يسيرون بمحاذاة العرب. وتختلف ألبستهم عن ألبسة العرب بعض الشيء. وأما الفرسان فاصطفوا فرقة واحدة على حدة تتقدمها رايات الأمراء وراية هانىء أكبرها جميعاً وأكثر الفرسان بالأدرع المتينة وعلى رؤوسهم الخوذ الفولاذية، وكان عبد الرحمن يسير إلى جانب هانىء

أمام الأمراء أصحاب الأخبية ومعهم النساء والعيال في هوادج إلا مريم فكانت على الجواد كأحد الفرسان وكانت ميمونة تتظاهر بالرغبة في مرافقتها فتركب جواداً إلى جانبها. ويجيء وراء تلك الحملة ساقة الجند وأمامهم الأحمال والأثقال. وكان عبد الرحمن وهانىء إذا دارا حول هذا الجيش أو نظرا إليه من أكمة اطمأنا لكثرته وتوسما النصر به.

وكان المسلمون يسيرون لا يلاقون في طريقهم إلا حقولاً مهجورة وأدوات متروكة وبيوتاً خالية فيأخذون ما يشاؤون ويتركون ما يشاؤون حتى إذا أمسى عليهم المساء يحطون رحالهم فيأكلون وينامون ثم ينهضون. فلما وصلوا إلى بواتيه لم يلقوا منها مقاومة تُذكر لأن معسكر أودو كان قد بعُد عنها وهدفه مدينة تورس.

وأنبأهم الخبراء ذات يوم أنهم أصبحوا على مقربة من نهر لوار، فاستراحوا وأصلحوا شؤونهم وساروا وعبد الرحمن وهانىء يتقدمان الجند على بُعد نحو ميل ومعهما كبير الخبراء لاستكشاف مواقع العدو قبل النزول وليختاروا مكاناً يعسكرون فيه وفي أصيل ذلك اليوم صعدا إلى رابية على ضفة نهر شير ووليا وجهيهما إلى الشرق فكان نهر لوار إلى يسارهما والشمس وراءهما فنظرا إلى ما بين أيديهما شرقاً فأشرفا على سهل واسع بشكل مثلث قاعدته ضفة نهر لوار في اليسار ورأسه في الجنوب. وشاهدا عنده خياماً وأعلاماً هي معسكر الدوق أودو. وبين هذا المعسكر وبين ضفة نهر لوار على طول ميلين سهل واسع منبسط يصلح ميداناً للقتال لخلوه من الأغوار. وينتهي عند قاعدة المثلث بالأبنية التي على ضفة النهر وأقربها إلى الضفة مدينة تورس ثم دير القديس مَرْتين وقد عرفاه من فخامته وقبة كنيسته. وشاهدا وراء تلك المحلة مما يلي النهر حركة وغباراً عرفا مما يتخلل

ذلك من الأعلام والخيول أنها حركة جند قادم مع النهر ـ فأمر عبد الرحمن رجلاً في ركابه أن يمضي إلى جند المسلمين فيأمرهم بالوقوف حيث هم حتى يعود. ثم التفت إلى الخبير وكان من الافرنج وقد تعلم العربية وقال: «أليس هذا دير القديس مَرْتين؟».

قال الخبير: «بلى يا مولاي هذا هو أغنى أديرة النصرانية في هذه البلاد..».

قال: «وما الذي تراه وراءه؟».

قال: «هو جند الدوق شارل يعبر النهر من ضفته الشمالية إلى الضفة الجنوبية وقد علمت من رجل لقيته في هذا الصباح قادماً من محلة هذا الدير أن الدوق المذكور استغرق بضعة أيام في تعدية رجاله على جسور من السفن ولم يفرغ بعد لكثرة ما جاء به من الرجال والأحمال».

قال: «ألا يعرفون عدد جنده..».

قال: «لم يحصوه ولكن لا ريب عندي أن الدوق شارل جرد كل ما يستطيع تجريده من قبائل الافرنج في أوستراسيا وما وراءها لعلمه بشدة بأس المسلمين وقوتهم ولأن على حربه هذه يتوقف انتشار سلطانه على فرنسا كلها أو خروج أوستراسيا من يده».

فقال هانيء: «وسينال الثانية بإذن الله...».

فاعترض عبد الرحمن كلامه قائلاً: «أليس ما نراه إلى يميننا في الجوب معسكر الدوق أودو شريد مضيق دردون؟».

فضحك الخبير وقال: «بلى يا سيدي ـ وهو شريد على كل حال.. لأنه سواء انتصر عبد الرحمن أو شارل.. فإن سلطانه على اكيتانيا ذاهب من يده إما لكم وإما لشارل فحاله تستوجب

الشفقة . . ».

فاكتفى عبد الرحمن بذلك، ونظر في اختيار مكان يعسكرون فيه فقال هانىء: «لا أرى مكاناً نعسكر فيه خيراً من النقطة التي نحن فيها فنقطع هذا النهر الصغير (شير) ونعسكر وراءه فنكون على بُعد واحد تقريباً من هذين الجيشين فإذا تضاما فنكون متقابلين ويكون هذا الماء وراءنا فإذا قدر أن نهزم لا سمح الله قطعنا النهر وجعلناه خندقاً بيننا وبينهم».

فأُعجب عبد الرحمن برأي هانىء وقال: «هذا هو الصواب وأزيد على ذلك أن نترك أثقالنا وأحمالنا ونساءنا هنا ولا يقطع النهر إلا الرجال المحاربون فنكون في اطمئنان على أموالنا وأعراضنا وأرى أن نترك هنا أيضاً الغنائم التي أثقلت رجالنا فيذهبون إلى الحرب خفافاً. وقد أخبرتك أن أمر هذه الغنائم أقلق راحتي فإذا لم نقنع رجالنا وخصوصاً البرابرة بالتخلي عنها يوم القتال كانت سبباً في فشلنا، وأنت تعلم أن الرجل إنما يغلب بخفة حركته».

قال: «فلنعقد مجلساً نكلم الأمراء ونحاول أن نقنعهم بالتخلي عن الغنائم ونبيّن لهم ما يترتب على حملها معهم من الضرر ونرى ما يكون ـ وكان في ركاب عبد الرحمن صاحب النفير (البوق) فأمره أن يذهب إلى المعسكر فيخبر الأمراء بمبيت الجند هذه الليلة حيث هم ثم يدعوهم إلى الأكمة حيث هما واقفان ليبحث في المكان الذي يعسكرون فيه ـ فأسرع الرسول، ولم تمضِ هنيهة حتى تقاطر الأمراء على جيادهم فلما وصلوا نزل عبد الرحمن عن فرسه وهانىء عن أدهمه فنزل سائر الأمراء وسلموا أفراسهم إلى الخدم ووقفوا على الرابية فأطلوا على سهل تحف به تورس ومحلة القديس مَرْتين من الشمال إلى يسارهم ومعسكر أودو من الجنوب إلى يمينهم، فقص عليهم

عبد الرحمن ما عن له بشأن المكان الذي يعسكرون فيه بحيث يكون الماء وراءهم. ثم قال: «وأستشيركم في أمر خطير أرى فيه خيراً لنا وهو أن لا يعبر هذا النهر منا غير الرجال المحاربين وأن نخلف النساء والأحمال هنا ومعهم مَن يحميهم.. فما رأيكم؟».

فقال إثنان من أمراء القيسية: «لقد رأى الأمير صواباً..» فوافق سائر الأمراء على ذلك.

فقال عبد الرحمن: «وهناك أمر ذو بال طالما خفته على هذا الجند ذلك أن جندنا قد أصبح من كثرة ما أفاء الله على المسلمين من الغنائم مثقلاً بالتحف والأموال حتى لقد يعسر على الرجل أن يحمل غنائمه فكيف يستطيع القتال بها؟... فالذي أراه أن نجعل الغنائم في مكان أمين في جملة ما نخلفه هنا عند ذهابنا في الغد فنجعلها في خيمة خاصة يحرسها مَن تثقون به مِن رجالكم كما فعلنا بقرب بوردو».

فلم يتم عبد الرحمن كلامه حتى اعترضه شاب من أمراء البربر قائلاً: «أما نحن فلا نرى هذا الرأي. ولا تذكرونا بما أصابنا في بوردو فقد أفردنا الغنائم هناك نزولاً على رغبتكم فكانت النتيجة أننا خسرنا أكبر أمرائنا وأشجع رجال هذا الجند».

فلما سمع عبد الرحمن تلك العبارة وما تنطوي عليه من التعريض بمقتل بسطام وما تدل عليه من الضغينة والحقد خاف الفتنة إذا هو أجابه أوأنبه لعلمه أنه لم يجسر على هذا القول إلا مدفوعاً من جماعة من قومه. فتظاهر عبد الرحمن بالسذاجة وقال: «حقاً إننا خسرنا في ذلك الحادث خسارة يصعب تعويضها لأن الأمير بسطاماً يندر أن نجد له مثيلاً. ولكنني لا أرى علاقة بين مقتله وبين الغنائم»، ثم التفت إلى جمهور الأمراء وقال: «دعونا ننسى هذا الحادث ونعمل لما هو أجدى وقد عرضت عليكم رأياً فإذا كنتم ترون فيه

عوجاً قوّموه لأن الغرض واحد والفائدة واحدة».

فتهامس الأمراء وتداولوا في أمرهم ملياً، ثم قال أحد أمراء اليمنية: «أرى الأمير مصيباً في رأيه لأن الرجل لا يستطيع القتال وهو مثقل بالأحمال وإذا خسر الإنسان غنيمته وانتصر في حربه كسب أضعافها».

فأمن على قوله كثيرون ولاحظ هانىء أن البربر لا يزالون سكوتاً فخاف الفشل فقال: «وأزيد على ما قاله الأمير. إننا إذا انتصرنا في هذه الواقعة كانت غنائمنا فوق ما تدركه العقول. لأن الدوق قارله (شارل) صاحب هذا الجند (وأشار إلى جند شارل) قد حمل معه كل ما في أديرة بلاده وكنائسها وقصورها. فإذا ظفرتم به ظفرتم بالمال الكثير وبالفخر وبالسعادة».

فلم يجد أمراء البربر ما يدفعون به قوله فتكلم كبير من أمرائهم وقال: «لا ريب في أن الجندي لا يستطيع القتال إلا إذا كان خفيفاً، ولكن مَن لنا بمن يقنع أفراد الجند بأن يتركوا غنائمهم التي أصابوها بعد شق الأنفس، وهم لا يطمعون في إمارة أو قضاء وإنما ربحهم من هذه الحرب ما يرجعون به من الغنائم. فعندي أن تحمل الغنائم معنا صباح الغد ونجعل لها مكاناً بقرب معسكرنا بدلاً من تركها هنا فإن ذلك أيسر على أصحابها من وضعها في مكان يحول النهر بينهم وبيننا.

فلم يرَ عبد الرحمن بداً من الإذعان، فعادوا إلى المعسكر وباتوا تلك الليلة هناك، وفي صباح اليوم التالي، أخذوا في عبور النهر إما خوضاً أو عوماً بقوارب نصبوها لهذا الغرض. وكان النهر جدولاً صغيراً لا يعد شيئاً إذا قيس بنهر اللوار وهو يصب فيه. فعبر عبد الرحمن وهانىء أولاً ليعينا أماكن الخيام فوقفا على مرتفع أطلا منه

على السهل وأخذا في تعيين الأماكن والجند يشتغلون في نصب الخيام وغرس الأعلام حتى قرب الأصيل. ولاحت من هانىء التفاتة وهو ينظر إلى الأفق فرأى شبحاً يعدو نحوهما عدواً مسرعاً فتعلق ذهنه به وجعل يتفرس فيه فرأى عليه لباس الرهبان فازداد استغراباً، ثم رآه يسقط على الأرض وهو يشير بيديه نحو هانىء فركض هانىء فرسه حتى وقف عنده فإذا هو حسان خادم سالمة وقد استلقى على ظهره وقبض بإحدى يديه على جنبه كأنه يشكو ألماً وأمسك بالأخرى شيئاً لوح به نحو هانىء فترجل هانىء وأراد أن يعين حساناً على الجلوس فأومأ إليه بعينيه أن يدعه فسأله عن أمره فقال بصوت متقطع وهو يلهث وقد ضغط بكفه على جنبه من شدة الألم «أرسلتني مولاتي سالمة برسالة إلى الأمير عبد الرحمن... من دير القديس مَرْتين.. (وأشار بيده والرسالة فيها) حتى إذا خرجت من الدير ورأيت أعلامكم عن بُعد أسرعت نحوكم فما شعرت إلا ونبل أصابني في جنبي من خائن أظنه عدلان الأحوَل.. فأيقنت أني مائت.. فأسرعت حتى أدرككم بهذه الرسالة لأنها من الخطورة بمكان فسقطت قبل الوصول إليكم.. وها هي الرسالة».

ثم انقطع صوته وتزايد لهثه وأغمض عينيه وأرخى يده. فناداه هانىء فلم يجب وكان عبد الرحمن قد شاهدهما وأسرع إليهما وسمع كلام حسان. فلما رآه في تلك الحال أسف لحاله أسفاً شديداً وكذلك هانىء فقد رجح عنده أنه مائت ولكن الأمل لا ينقطع من الحياة ما دام هناك نفس فأشار عبد الرحمن على هانىء أن يستقدم أحد الأطباء.

فركب بنفسه على أدهمه وركض نحو الجند وصاح: «هاتوا طبيباً»، وبعد قليل جاءه طبيب من نصارى الأندلس قضى في خدمة العرب زمناً طويلاً. فأسرع إلى حسان وجسّ نبضه فإذا هو ميت لا

حراك فيه فأمر بغسله ودفنه فحملوه إلى خيمة أُعدّت لذلك.

أما عبد الرحمن فتناول الكتاب وفضّه وأخذ يتلوه وهانىء يسمع فإذا فيه:

إلى الأمير عبد الرحمن الغافقي:

«أكتب إليك من دير القديس مَرْتين وقد وصلت إليه بعد مشقات يطول شرحها سأقصها عليك عند اللقاء القريب إن شاء الله. وإنما استعجلت هذه الرسالة لأخبرك بأمر هام اطلعت عليه أثناء سياحتي هذه. وهو أن المرأة التي تسمي نفسها ميمونة إنها هي لماجة بنت الدوق أودو وقد نصبت لي الحبائل الكثيرة في أثناء هذه الرحلة ـ وهي التي أشارت على أبيها استنجاد صاحب أوستراسيا بكتاب أرسلته إليه مع خادمها الأَحوَل فاحذروه وافعلوا بها ما تشاؤون ثم إني أبشركم بأن رئيس هذا الدير ناقم على شارل وقد وعدني بالعون واستبقاني عنده رهينة. وأنا في أمن وإكرام أطلب لكم النصر، وأوصيك بفلذة كبدي مريم والسلام». سالمة.

فما جاء على آخر الكتاب حتى علته الدهشة فنظر إلى هانىء ثم أعاد نظره إلى الكتاب وقد وقع منه موقعاً عظيماً فقال هانىء: «لم أكن أرى في هذه الملعونة خيراً وكنت مع فرط جمالها أشعر بنفور من منظرها لسبب لا أعلمه فكأن قلبي دلني على حقيقتها وكثيراً ما كنت أستغرب إكرامك لها".

فقطع عبد الرحمن كلامه وقال: «كنت أجاملها على حذر ولم أثق بها قط ولكنني كنت أتوقع منها نفعاً في أثناء حروبنا لأنها من أهل هذه البلاد. وقد قُضِيَ الأمر الآن فيجب أن نتدبر في أمرها فما الذي ترى أن نفعله».

قال: «أرى أن نقتلها ونُريح أنفسنا منها».

قال: «سننظر في ذلك بعد الانتهاء من تنظيم هذا المعسكر».

قال ذلك وهمز جواده إلى حيث الجند لإتمام تنظيمهم فجعل معسكره في نحو ثلث الضلع الممتد بين تورس ومعسكر أودو وجعل فسطاطه في وسط المعسكر إلى الأمام وبجانبه خيمة هانيء يليها بالترتيب مضارب القبائل كل قبيلة على حدة وخيمة أميرها في وسط خيامها وراية الأمير تخفق على باب خيمته وقد يكون للقبيلة الواحدة عدة أمراء وعدة رايات تمشياً مع البطون والأفخاذ. وجمع بين القبائل المتقاربة في النسب، المضرية في جانب واليمنية في جانب. وجعل البرابرة في جانب آخر جنوبي المعسكر ببقعة اختاروها هم. ثم أمر بالغنائم أن توضع في خيام نصبوها لها بجانب المعسكر من جهة الجنوب. وقد طلب البربر ذلك لتكون غنائمهم قريبة من مضاربهم كأنهم خافوا أن يسطوا عليها العرب ويأخذوها منهم، فنصبوا مرابط الخيل وراء المعسكر مما يلي النهر الصغير.

وكان هانيء أثناء التنظيم يطوف بالمعسكر لمساعدة عبد الرحمن وفكره ذاهب في ما قرأه عن ميمونة وسالمة وخطر له أن مريم إذا عرفت بمقام والدتها بالدير ربما طلبت الذهاب إليها فارتاح إلى ذلك الخاطر، لاعتقاده أنها تكون هناك في مأمن على حياتها ولو هزم العرب.

قضوا ذلك اليوم واليوم الذي بعده في التنقل وتصفيف الصفوف حتى لم يبق في الضفة الأخرى غير الأخبية والأحمال الثقيلة وما إليها.

وفي أصيل اليوم التالي سار عبد الرحمن وهانيء معه إلى الأخبية لمحاكمة ميمونة سراً وكان هانيء لا يرى باعثاً على المحاكمة ولو ترك الأمر له لقطع رأسها بسيفه بلا سؤال ولا جواب. أما عبد الرحمن

فأراد أن يأخذ الأمر بالحكمة التؤدة فلما وصلا إلى الخباء الأكبر ترجلا ودخلا القاعة وبعث عبد الرحمن إلى القهرمانة فجاءته بخلاخلها ودمالجها تترجرج في مشيتها كأنها في بعض قصور إشبيلية في رغد ونعيم. فلما وصلت إلى عبد الرحمن حيّته. فقال لها: «أين ميمونة؟».

قالت: «لم أرها منذ مساء الأمس وأظنها مع مريم في غرفتها».

قال: «ابعثي إليها أن تأتينا وحدها».

فصفقت القهرمانة فخف إليها خصي من الخصيان فقالت: «قل للسيدة ميمونة أن تأتي لحضرة الأمير عبد الرحمن». وكانت لهجتها رطانة مشوشة على نحو ما يتكلمه غرباء اللغة إذا تعلموها التقاطاً من أفواه الناس شأن الصقالبة وأمثالهم، ممن كانوا في خدمة العرب.

فأشار الصقلبي برأسه إشارة الطاعة وخرج ولبثوا في انتظاره وهانىء يريد الذهاب ليرى مريم ويكون أول مبشّر لها بخبر أمها وهي لذة يعرفها المحبون فإن الرجل إذا سمع خبراً طريفاً وهو بعيد عن امرأته أو حبيبته فإنه يشعر بميل شديد إلى اطلاعها عليه. وإذا كان ما سمعه من الأسرار، كان أشد رغبة في مكاشفتها به. وكلما شددوا عليه في التكتم ازداد رغبة في كشفه وهو لا يعد ذلك إفشاء للسر لأنه يكاشفها به سراً ويوصيها بأن تكتمه. وربما كان السبب في التلذذ بالمكاشفة شعور الحبيبين بالامتزاج قلباً وقالباً مما لا يجيز التكتم. فضلاً عن أن المسارة تزيد في توثيق عُرى المودة فإذا تواد اثنان يزداد توادهما وثوقاً إذا كان بينهما سر لا يعلم به سواهما.

على أنه كان من الجهة الأخرى يريد البقاء مع عبد الرحمن بعد مجيء ميمونة، ليحثّه على قتلها. ولما طال غياب الرسول بعثت

القهرمانة رسولاً آخر بعده. وبعد برهة عاد الرسول الأول يقول: «بحثت عن السيدة ميمونة في كل مظانها فلم أقف لها على أثر».

فدُهش عبد الرحمن وهانىء أكثر من القهرمانة لعلمهما ما لا تعلمه فقال عبد الرحمن: «أين ميمونة يا خالة؟».

قالت: «ربما كانت في شاغل ستعود منه قريباً..».

قال: «إني أريد أن أراها الساعة فاذهبي وابحثي عنها..».

فنهضت وهي تقول: «لم أرها منذ غروب الأمس وليس أحد أعلم برواحها وغدوها من مريم». ثم خرجت تتمايل وتتدحرج وطال غيابها، ثم عادت ومريم معها، وقالت: «بحثت في كل مكان فلم أجدها، فهي بلا شك في غير هذه الأخبية..».

ولما دخلت مريم فاحت رائحة طيبها وابتسم لها عبد الرحمن رغم غضبه على ميمونة وخوفه من إفلاتها بعد ظهور ذنبها. وكان في وجه مريم من المعاني والملامح ما لا يستطيع الناظر إليها غير الإعجاب بها والإنشراح لرؤيتها فكيف بهانىء بعد أن ملكت فؤاده واستولت على عواطفه حتى أصبح يغار عليها من النسيم.

فبعد أن جلست ابتدرها عبد الرحمن بالسؤال عن ميمونة فقالت لم أشاهدها من مساء الأمس وقد قضيت كل ما مضى من هذا النهار في البحث عنها لأنها رفيقتي ومعزّيتي في غياب أمي».

فقال: «وهل عرفت سبباً يدعو إلى خروجها».

قالت: «لم أعرف شيئاً من هذا القبيل. ولكنني لمحت في وجهها اضطراباً أصيل الأمس، فلم أعبأ به ولم أسألها عن سببه..».

قال: «هل رأيت أحد جاءها بكتاب صباح الأمس؟».

قالت: «لم أشاهد غير بعض الخدم ممن تعودوا خدمتها..».

قال: «هل كان بينهم عدلان الأحوَل..».

قالت: «نعم.. وكان قد مضى عليَّ زمن لم أشاهده».

فلما قالت ذلك تبادل عبد الرحمن وهانيء نظرتين فتحققا أن عدلان جاء إلى ميمونة بعد أن رمى حساناً بالنبل وأشار عليها بالذهاب إلى أبيها خوفاً من انكشاف أمرها.

ـ ١٥ ـ

هانيء ومريم

وكانت مريم تنظر إلى هانيء كمن تؤانس في وجهه خبراً وكانت القهرمانة قد خرجت ولم يبق هناك غير مريم والأميرين. فنظرت مريم إلى هانيء نظرة أغنته عن خطاب فأدرك أنها تستفهمه ما يكتمانه. فالتفت إلى عبد الرحمن فرآه غارقاً في التفكير فقال له: «أرجّح أن تلك الخائنة علمت بافتضاح أمرها ففرت إلى أبيها ولكنها لن تنجو من حد هذا السيف بإذن الله».

فذُهلت مريم لما سمعته لأنه يناقض اعتقادها في ميمونة نقضاً تاماً وظهر ذلك على وجهها مما تصاعد إليه من الدم وأبرقت عيناها والتفتت إلى هانيء. ولم تتمالك أن سألته قائلة: «وما الذي حدث حتى استوجبت هذه المسكينة غضب الأمير وعهدي بها من أشد الناس غيرة وأصفاهم سريرة».

فالتفت هانيء إلى عبد الرحمن وقال: «أتأذن لي بالكتاب؟».

فاستاء عبد الرحمن من تسرع هانيء في طلب الكتاب لأنه لم يكن ينوي اطلاع مريم عليه إشفاقاً من قلقها على أمها ولم يبد استياءه مجاملة لهانيء ولكنه تجاهل مكان الكتاب. فازدادت مريم قلقاً واضطراباً وتبادر إلى ذهنها أن لهذا التكتم سبباً يسوؤها ذكره ولم يخطر لها شيء غير والدتها فلم تستطع إمساك عواطفها فصاحت بلثغتها

المعهودة: «ما الذي تكتمانه عني.. هل أصاب أمي شغ (شر).. أين هي؟». قالت ذلك وأجهشت بالبكاء.

فأثر منظرها في هانىء فلم يتمالك أن قال: «أطمئنك يا مريم أن أمك في خير وأمان».

قالت: «وأين هي؟».

قال: «هي في هذا الدير». وأشار إلى دير القديس مَرْتين.

قالت: «ولماذا لم تأت لعلها مريضة أم مسجونة أم ماذا؟».

فتظاهر عبد الرحمن عند ذلك بالبحث عن الكتاب حتى وجده فدفعه إليها وهو يقول: «هذا هو كتابها وفي قراءته جواب كاف».

فتناولته بلهفة ولم تستطع رؤية الأحرف مما غشي عينيها من دموع الدهشة والخوف والأمل والفرح معاً فمسحت عينيها بكمها وقرأت الكتاب حتى أتت على آخره ولما وصلت إلى قولها: «وأوصيك بفلذة كبدي مريم». صاحت: «أماه». وقد خنقتها العبَرات ثم أعادت النظر فيما ذكرته عن ميمونة فبهتت وحسبت نفسها في حلم ثم رفعت رأسها ونظرت إلى عبد الرحمن وقد تحوّل حنانها الفطري إلى غضب، وقال: «قبّح الله الخائنة. قد فهمت الآن سبب خلوتها بذلك البربري الأحوَل مساء الأمس».

وستنال جزاء خيانتها إن شاء الله. ثم سألته عمن حمل الكتاب لكي تراه وتستزيده من أخبار أمها. فقصّ عليها هانىء ما كان من أمره وأنه مات ودفنوه فأسفت عليه كثيراً وبكت. ولولا اهتمامها بخيانة ميمونة والشوق إلى أمها لندبته لأنه ربّاها منذ طفولتها وكان ضنيناً بها حريصاً على راحتها وراحة أمها ولكنها كانت في قلق عظيم على والدتها لا تستطيع صبراً عن رؤيتها فنظرت إلى عبد الرحمن بعينين

يغشاهما الدمع وتوسلت إليه بصوت يمازجه ذلّ السؤال وقالت: «ألا يسمح لي الأمير بالمسير إلى أمي لأراها وأقبّل يدها ثم أعود؟».

فتأثر عبد الرحمن لسؤالها ولم يسعه إلا الإجابة فقال: «لا أمنعك من الذهاب إليها ولكنني أحب المحافظة على وصيتها وقد رأيت أنها ختمت هذا الكتاب بك».

فقالت: «لا بأس عليَّ بإذن الله والطريق سهل والمكان قريب وكأني أرى الدير من هنا فأركب إليه سريعاً».

فقال هانىء: «لا نخاف عليك بأساً بعدما شاهدناه منك في مضيق دردون ولكنني أرى أن أسير في ركابك حتى أوصلك إلى باب الدير وأعود». فاستحسن عبد الرحمن رأيه فقال: «إذا كان لا بد من الذهاب فانهضا الآن حتى تصلا قبل الغروب. هل يحتاج هانىء إلى مَن يحثه على سرعة الرجوع!؟ أما مريم فلا بأس من بقائها هناك فإنها تكون في أمان».

ففرح هانىء بتلك المهمة فنهض وأمر بفرس لمريم فلبست ثوبها والتفت بعباءتها وركبت وركب هانىء أدهمه والتف بعباءته وأصلح عمامته وساقا الجوادين سوقاً حثيثاً، وقطعا النهر الصغير على جسر مما نصبوه بالأمس وسارا شرقاً شمالياً يقصدان إلى دير مَرْتين. فبعد أن ركضا جواديهما برهة أمسكاهما ومشيا متحاذيين وقد حلت لهما تلك الخلوة فأراد هانىء مداعبة مريم فقال لها: «أتعلمين ما وراء هذه الأبنية».

قالت: «النهغ الكبيغ (النهر الكبير)».

قال: «وما اسمه؟..».

قالت: «نهر لوار» بلفظ الراء غيناً، ولم تكد تنطق بهذين

اللفظين حتى فطنت للموعد المضروب لزواجهما فخجلت وحولت وجهها إلى ناحية أخرى وأرادت تغيير الحديث فقالت: «وكأني أرى جند الدوق شارل آتياً نحونا».

فرفع هانيء بصره إلى جهة الغبار المتصاعد وراء محلة الدير وقال: «لا شك أنك ترين معسكر الدوق شارل، وأما الغبار المتصاعد فوقه فليس غبار الزحف ولكنهم يلاعبون خيولهم ويمرنونها..». قال ذلك وأخذ يفكر في ما يتوقعه من القتال العنيف في تلك الساحة موقناً بالفوز لما كان عليه من الشجاعة والتفاؤل.

وبينما هو يفكر في ذلك سمع جرساً يقرع فأصاخ بسمعه فابتدرته مريم قائلة: «هذا جرس الدير لأننا على مقربة منه». وكانت الشمس قد دنت من المغيب ولو التفتا إليها لرأيا شكلها يتجسم وجرمها يتعاظم وحدتها تزداد.. ولكنهما كانا في شاغل عن ذلك بغبار رأوه يتصاعد في السهل من جهة الجنوب قرب معسكر أودو وكأن هناك خيّالة يسوقون أفراسهم فحملا ذلك على محمل ما شاهدوه في معسكر شارل.. ووصلا عند الغروب إلى باب الدير فقرعه هانيء فأطل الراهب البوّاب فخاطبته مريم بالافرنجية نسأل عن ضيفة هناك، فنزل وفتح الباب ورحب بها واستغرب لباس هانيء وخصوصاً عمامته لأنه لم يكن رأى عربياً قط وإن كان قد سمع بمجيء العرب، فترجلت مريم وهَمّ هانيء بأن يودعها ليعود أدراجه وقلبه لا يطاوعه وكانت هي في مثل حاله، ونظرت إليه نظرة خرقت أدراعه إلى أحشائه فترجل وقال: «أرى أن أوصلك إلى أمك واطمئن عليها وعليك ثم أعود».

فابتسمت ومشت فمشى وراءها بعد أن أشار إلى خادم الدير بأن يمسك الجوادين ولما دخلا من الباب الثاني استقبلهما راهب آخر

وسألهما ما يريدان فقالت مريم: «عندكم نزيلة اسمها سالمة؟».

فابتسم الراهب وقال: «نعم» وأشار إليهما فتبعاه حتى دخلا الدير وصعد بهما إلى علية سالمة وكانت سالمة لا تزال بعد ذهاب حسان منفردة في تلك العلية تارة تطل منها على النهر وطوراً تقعد على الأرض تفكر في مريم وقد ذاب قلبها لفراقها، ولم تكن قد فارقتها من قبل ثم تنتقل بأفكارها إلى ما تكتمه في صدرها ولم يحن وقت كشفه بعد وتخشى أن يطول هذا الوقت أو تحول الأقدار دونه فتذهب مساعيها أدراج الرياح ـ ونهضت في صباح ذلك اليوم منقبضة النفس فنزلت إلى الكنيسة للصلاة وتخشعت في صلاتها ودعت لابنتها بالسلامة، ثم صعدت إلى علّيتها فأحست كأنها في سجن مع أنها في أحسن غرف الدير.

وحدثتها نفسها أن تطل على سهل تورس لعلها ترى رسولاً قادماً أو تتنسم ريح ابنتها إذا رأت معسكر العرب عن بُعد، فمشت حتى أطلت من سطح الدير على ذلك السهل وعرفت مكان كل من العرب والافرنج فخفق قلبها لما تتوقعه من القتال هناك. ثم عادت إلى علّيتها وهواجسها تتزايد بالخلوة ـ فلما كان الغروب أحست بالانقباض وشعرت بضيق وقنوط. وساعة الغروب أثقل ساعات اليوم على الإسنان وهو حر مطلق فكيف إذا كان سجيناً ـ فهمّت بالخروج للصلاة فسمعت وقع أقدام على السطح فخفق قلبها فوقفت لترى ما يكون، فلما سمعت الخطوات تقترب نحوها تزايد خفقان قلبها. وأخيراً سمعت قرع الباب فكأنهم قرعوا صدرها، فنهضت وركبتاها ترتجفان وفتحت الباب فاستقبلها الراهب وأشار بيده إلى رفيقيه. فلما رأت ابنتها صاحت: «مريم»، وألقت نفسها عليها وجعلت تقبّلها وتشمها والدموع تتساقط من عينيها حتى كادَ يُغمى

عليها ومريم تقبّلها وتُقبّل يدها ودموعها تتساقط بهدوء. ثم دخلتا العليّة وهانىء لا يزال بالباب فقالت مريم: «هذا الأمير هانىء جاء ليوصلني ويراك ثم يعود».

فرحّبت به وأثنت عليه ودعته للدخول، فقال: «لا بدّ لي من العودة مسرعاً لأننا في حال تدعو إلى التيقّظ. كيف أنت؟ أخذنا كتابك وشكرنا حسن صنعك وفضلك..».

فقالت: «وماذا فعلتم بتلك الخائنة؟».

قال: «لم نجدها في المعسكر مع أنها كانت فيه بالأمس فقد تكون علمت بكتابك ففرّت إلى أبيها».

فدقت سالمة كفا بكف وصاحت: «نجت الملعونة، إن شيطانها الأحوَل أخبرها بخبرنا فخافت كشف أمرها فهربت».

فقالت مريم: «قبّح الله ذلك الأحوَل فإنه أصل شرور كثيرة ولو علمت ما فعله هذا الشيطان لحزنت».

قالت: «وماذا فعل؟».

قالت: «رمى حسان بنبل وهو في طريقه منك إلينا، فأصاب جنبه، وأسرع المسكين حتى أدرك معسكر العرب على آخر رمق، فبلغ الرسالة ومات..».

فصاحت: "مات؟ حسان مات؟".

قالت: «نعم يا أماه مات أشرف ميتة.. مات شريفاً أميناً صادقاً وقد قاموا بواجب غسله ودفنه رحمه الله..».

فأطرقت سالمة وسكتت ثم هزت رأسها وهي تقول بصوت منخفض: «مسكين حسان.. مات ولم يشاهد حفيده بعد أن علم أنه على قيد الحياة ولن يشهد عقبى هذه الموقعة العتيدة..».

وأضيئت لهم الغرفة ومريم في شاغل نفساني بهانىء لأنها أحبته ووالدتها لا تعلم. وقد أوصلها إلى أمها وسيرجع ولا طاقة لها بفراقه وهي تريد أن تستطلع رأي أمها فيه فإذا لم توافقها على حبه كانت المصيبة كبيرة عليها. فأرادت أن تشغلها عن حديث حسان فقالت: «ألا تعرفين الأمير هانئاً يا أماه؟».

فابتسمت وقالت: «كيف لا أعرفه؟ هو الذي أنقذنا من الأمير البربري؟».

قالت: «بلى. وهو أكبر أمراء جند العرب بعد الأمير عبد الرحمن. والأمير عبد الرحمن يحبه ويعتمد عليه لأنه أمير الفرسان وساعده الأيمن في قيادة الجيش».

فاستحى هانيء، وأحب أن يتجنب الإطراء، فلم تمهله وقالت: «لم يخف عليّ شيء من شأن هذا الأمير وقد صحبته في مهمة إلى أسقف بوردو ألا تذكرين ذلك؟».

فانشرح صدر مريم واطمأن قلبها وهمّت بالتحدث في ما وراء ذلك فسمعت ضجة وضوضاء فتوقفت، وأنصتوا جميعاً وسمع هانيء جواده يصهل صهيلاً متواصلاً كأنه يطلب النزال فوقف هانيء وقال: «أرى جوادي يدعوني إلى النزال وكأنه يستعجلني للعودة؟».

وما أتم كلامه حتى سمعوا خطوات قادم على السطح، وفتح الباب ودخل الراهب رفيق حسان وكانت سالمة تحسبه قد سافر معه فلما دخل رحبت به ودعته للجلوس، فهمّ بالكلام والذهول بادٍ عليه، وكأنه أراد الكلام فأرتج عليه فظنته أمسك حياء فقالت له بالافرنجية: «تكلم أيها الأب.. أخبرنا بما عندك، فليس بيننا غريب».

فقال ولسانه يتلجلج: «أمرني رئيس هذا الدير أن أبلغك أمراً

يعز عليَّ أن أكون الرسول فيه. . .».

فخفق قلب سالمة ومريم، أما هانىء فلم يفهم شيئاً لجهله الافرنجية. ولكنه لحظ من تغيير الوجوه ما أقلقه ـ فقالت سالمة: «تكلم يا أبي».

قال: «إن الدوق أودو بعث إلى الدير بكوكبة من الفرسان مدججين بالسلاح يحملون كتاباً إلى الرئيس يأمره فيه أن يبعث بك إليه. ولما يعلمه الرئيس من دالتي عليك أطلعني على ذلك الكتاب وشاورني في شأنه فحسنت له أن يمتنع عن إرسالك فأظهر أنه يود ذلك كثيراً. ولكنه يخاف العاقبة وهو لا يدري لمن تكون الغلبة في الحرب القادمة، وواجبه يقضي أن يكون نصيراً للإفرنج. . ثم أشار عليَّ أن أكون أنا معك لأوصي الدوق أودو خيراً بك، وإذا شئت أخذنا منه كتاب توصية».

وكان الراهب يتكلم ولسانه يتلعثم والتأثر بادٍ في كل حركة من حركاته وكانت سالمة ومريم تنظران إليه كأنهما أصيبتا بالجمود، فلما انتهى من الكلام قال هانىء: «ما الخبر؟».

قالت مريم: «إن الدوق أودو بعث إلى رئيس هذا الدير يطلب أمي منه».

قال: «وماذا يريد منها؟».

قالت: «يطلبها لغرض لا نعلمه».

قال: «لا تذهب. .».

فقالت سالمة: «بل أرى أن أذهب لأني لو أبيت الذهاب لأخذوني قهراً. .».

فصاح هانىء: «قهراً؟. . . يأخذونك قهراً وهانىء معك؟

ذلك لا يكون».

وقف ويده على قبضة حسامه وقد أخذ منه الغضب مأخذاً عظيماً.

ففرحت مريم بما أبداه هانىء من الغيرة على أمها ولم تكن هي أقل حماسة منه فقالت: «كيف نسمح أن يأخذوك أسيرة يا أماه سنقاومهم حتى الموت ولو تألبوا علينا ألوفاً».

فقالت: «أعلم ذلك ولكن الحرب تقضي علينا بألا نعرض أمير فرسان العرب وعمدة أمرائهم لشرذمة من الافرنج ربما أصابه أحدهم بنبل كما أصابوا حساناً بالأمس فيذهب الأمير هانىء رخيصاً وعليه المعول في جند العرب فإنه قائدهم وواسطة عقدهم فإذا عرضناه للخطر تعرض الجند كله للخطر.. فبحياتي عليكما أطيعاني ولا تخافا عليَّ بأساً لأني سأسير مكرّمة وسيكون الراهب معي وسأحمل من رئيس الدير كتاب توصية بحيث لا أخشى شراً ـ بل آمل أن أخدم العرب هناك خدمة لا أستطيعها وأنا معهم، ولا حيلة في قضاء الله..».

فقال هانىء: «إنك تحاولين محالاً ـ أكون معك وتُساقين أسيرة؟ لا يكون ذلك أبداً... والله لأعملن السيف في الافرنج ولو كانوا ألوفاً..».

فقطعت سالمة كلامه قائلة: «إذا فعلت بغير ما أريد تكدرني وأنا أعلم أنك لا تريد كدري ـ إن الدوق أودو يعرف عني أكثر مما تعرف أنت أو تعرفه ابنتي هذه ـ وهو لا يطلبني إليه ليسيء إليَّ ولو أراد لفعل وأنا سجينة عنده. أستحلفك بشرف العرب وعز الإسلام أن تطيعني، وقد آن لي أن أطلعكما على شيء جديد حفظته منذ أعوام»، ثم التفتت إلى الراهب وقالت: «قل لحضرة الرئيس إني أتأهب للمسير

طوع أمره بعد ساعة أو ساعتين فإن لي شأناً مع ابنتي هذه أريد أن أقصّه عليها قبل الذهاب».

فحنى الراهب رأسه وخرج.

نهضت سالمة وأصلحت رداءها تستعد للخروج وجعلت تخطر في الغرفة ذهاباً وإياباً ثم أطلت من النافذة على النهر ولبثت صامتة ومريم وهانىء ينتظران ما يكون منها ويعجبان لتلك الحركة وذلك السكوت ثم تحولت عن النافذة وأقبلت عليهما وقد تغيرت سحنتها وقطبت جبينها وبدا اهتمام في عينيها وذهب ما كان يحلي محياها من الابتسام الطبيعي وتحول إلى هيبة وجَد. فلما رآها هانىء على تلك الحال تهيّب والتفت إلى مريم فرآها أكثر تهيباً منه ولكنهما أُلجما عن الكلام كمن أُصيبا بذهول ـ فحدقت سالمة في مريم وسألتها: «هل تعرفين مَن هو أبوكِ يا مريم؟».

فقالت: «كلا يا أماه»، وتوردت وجنتاها من الحياء، ودُهشت للسؤال المفاجىء ولم يكن هانىء أقل دهشة منها وظل صامتاً.

قالت سالمة: «أتعرفين مَن أمك؟».

فازدادت مريم استغراباً وقالت: «نعم هو أنتِ..».

ثم التفتت إلى هانىء وقالت: «أعلم يا بني أني اؤتمنت على هذا السر منذ نحو عشرين سنة على أن لا أبوح به إلا لقائد جند العرب بعد عبور هذا النهر ولكن قضت الأحوال بأن أبوح ببعضه قبل ذلك الحين لأمير يتلو القائد الأكبر على ما أعلم ـ وللضرورة أحكام ـ لقد ضاق صدري عن كتمان هذا السر زمناً هذا قدره. فاستخَرْت روح ذلك العزيز صاحب السر أن أكشفه الآن لابنتي ولك يا هانىء، على أن تحتفظا به حتى تبلغاه إلى الأمير عبد الرحمن بعد هذه الموقعة ـ لا قبلها. فاصغيا..».

وكانت تتكلم وهانيء ينظر إليها منصتاً، ومريم يكاد الدم يجمد في عروقها لفرط تأثرها من منظر أمها وما شاهدته على وجهها من المعاني التي لم ترها من قبل.

فقعدت سالمة وأخذت تقصّ حديثها فقالت موجهة كلامها إلى مريم: «أنت تعلمين يا مريم أن والدتك سالمة ولكنك لا تعلمين مَن هي سالمة هذه. وقد سألتك عن والدك فقلت إنك لا تعرفينه لأنه توفي وأنت طفلة ولم أذكره لك قط ولم يكن أحد يعرف نسَبك غير ذلك الشيخ المسكين حسان وقد قُتل. ولو أُصبت أنا بنبلة لذهب هذا السر أدراج الرياح ولذلك عجّلت في كشفه لصاحبه ـ فاعلمي يا مريم أن أمك التي تسمينها سالمة هي أجيلا امرأة رودريك ملك الإسبان الذي قتله العرب في وقعة فحص شريش منذ نيف وعشرين سنة لما فتحها طارق. وبعد أن قُتِل رودريك جاء موسى بن نصير فأتم الفتح حتى بلغ طليطلة عاصمة إسبانيا في ذلك الحين. وكنت أنا هناك، فصالحت على نفسي بعد وفاة زوجي وأقمت مكرّمة وعشت في هناء ورغد كما كنت في أيامه. وكانوا يسمونني أم عاصم. ولم يمسني أحد بسوء، لأن موسى كان عادلاً رفيقاً يُحسن سياسة البلاد، ولكن مدة حكمه لم تزد على بضعة سنين فوشى به الواشون فاستقدمه الخليفة إلى الشام وسجنه. وكان هدف موسى بعد أن فتح الأندلس أن يواصل الفتح فيما وراءها حتى يأتي القسطنطينية ويمر منها إلى الشام ويفتح ما في طريقه من البلاد حتى يصير البحر الأبيض محاطاً بالمسلمين من كل جهة وقد كان فعل هذا يومئذ هيناً على المسلمين لضعف البلاد وانقسام حكامها بعضهم على بعض.

«فلما استُدعي موسى إلى الشام استخلف ابنه عبد العزيز على الأندلس وكان عاقلاً حكيماً عادلاً أطلعه أبوه على ما كان من عزمه

على فتح هذه البلاد التي يسميها العرب الأرض الكبيرة. وكنت أنا لا أزال في طليطلة فلما تولى عبد العزيز ورآني ورأيته وأحبني وأحببته فطلب الزواج بي ولم أكن أطمع برجل أرفع منه مقاماً. فقبلت على أن أبقى على النصرانية فرضِيَ ولكنه علمني الإسلام فوجدته كثير الشبه بمذهب أجدادنا القوط (الأيوسية). ثم انتقل بي إلى إشبيلية فأقمنا هناك بضع سنوات كان في أثنائها مثال التعقل والحزم وقد أسر إليَّ أموراً كثيرة كان عازماً على تنفيذها خدمة للعرب والمسلمين أهمها فتح هذه الأرض الكبيرة (أوربا) وقد كان ذلك سهلاً عليه لأنه كان يعامل أهل البلاد بالعدل والرفق فأصبح الناس على اختلاف طوائفهم يحبونه، وشاع ذلك عنه إلى أقصى بلاد النصرانية ولو طال مقامه لفتح البلاد على أهون سبيل لأن أهلها ينصرون مَن يعطيهم حقوقهم وحريتهم ولا شأن لمذهبه عندهم. فكثيراً ما كان عبد العزيز يبين لي رغبته في ذلك الفتح وأنا أحسن له إكرام الأهالي والإحسان إليهم فيعطيني لما يترتب على ذلك الإحسان من الكسب العظيم كما أنه بذل جهده في جمع كلمة المسلمين من العرب والبربر وغيرهم لأنه بغير هذا الاتحاد لا يستطيع أن يحقق هدفه.

«وإنه لفي هذه الآمال إذ وشى به الحساد كما وشوا بأبيه واتهموه بأنه طامع في الملك لنفسه ودللوا على ذلك بمحاسنته أهل البلاد وقالوا إني غلبته على عقله حتى حملته على أن يجعل أصحابه ورعيته يسجدون له إذا دخلوا عليه كما كان يفعل زوجي رودريك على زعمهم. ومن مفترياتهم أني جعلته يبني باباً صغيراً في مجلسه حتى إذا دخل أحدهم منه طأطأ رأسه كالراكع والله يعلم أنهم افتروا عليه افتراء ولم يفقهوا سر الأمر. ولما نفذت الوشاية به إلى الخليفة لم يستوفدوه إليه كما فعلوا بأبيه ولكنهم دسوا له مَن قتله وهو في

المسجد. وا لهفي عليه».

ولما بلغت إلى هنا شرقت بدمعها وتوقفت عن الكلام وهانىء ومريم كأنهما في حلم لا يتجرآن على التلفظ لئلا يقطعا كلامها. فقالت وهي تنظر إلى مريم وتحاول الابتسام: «وكنت قد ولّدتك منه وبلغت الثالثة وكان يحبك حباً جماً يفوق حبه لمن وُلد له من النساء الأخريات وكان لا يهنأ له عيش إلا إذا قبّلك وضمّك إلى صدره صباحاً ومساءً فإذا رجع من مجلسه وأتى قصره جعل يلاعبك ويبالغ في إرضائك حتى كدت تنسيه إياي. فلما علم بأنهم أجمعوا أمرهم وهم يمكرون وتحقق وقوع القضاء دعاني ليلة ذهابه إلى المسجد فأتيته وأنت على ذراعي فتناولك وجعلك في حجره وطفق يقبّلك ويبكي بكاء مراً ويشهق شهيق الطفل، فبكيت معه لأنني أحببته لما رأيته من صدق محبته وكبر نفسه وحسن قصده ثم نادى حساناً وأوصاه بي وبك ثم التفت إليَّ وقال: (قد أبى هؤلاء القوم إلا أن يضيعوا عملي سدى ويفسدوا ما ادخرته لدولتهم مما لم يكونوا يحلمون به، أما موتي فبقضاء الله وقدره لا أطالبهم به بل أنا أشفق على ما أضاعوه وسيضيعونه بقتلي مما أعددته لهم لأني لا أظنهم سيوفّقون إلى رجل آخر يغار على الإسلام غيرتي ويُتاح له ما أُتيح لي من معدات الفتح وهي إرضاء الأهالي وجمع كلمة المسلمين وتوفير الأسباب الأخرى المؤدية إلى النجاح ثم أشار إليك وقال: (لو كانت هذه الحبيبة غلاماً لأوصيتك بتربيته وهذا الهدف نصب عينيه. فأوصيك أن تربي ابنتنا هذه تربية عربية وتعلميها الفروسية واكتمي عنها اسم أبيها ولا تجعلي عربياً يتقرب إليها إلا مَن توسمتِ فيه إدراك الغرض الذي ذكرته وتوفرت له الأسباب المساعدة عليه. فإذا رأيتِ قائداً عربياً نهض للفتح وقد أدرك العوامل المساعدة على ذلك فإن هذه الفتاة تكون زوجة له أو ابنة

كما يشاء).

«ولما قال ذلك، أخرجَ من جيبه هذه المحفظة (وأخرَجَتْها من جيبها) ودفعها إليَّ وقال: (فإذا وفّق المسلمون إلى ذلك الرجل فإنه فاتح هذه البلاد لا محالة، فإذا تمكن من الفتح وبلغ نهر لوار.. قصي عليه خبري واطلعيه على وصيتي واجعلي ابنتنا هذه أمانة في عنقه ومعها هذه المحفظة فإن فيها ما ينفعه وينفع المسلمين. فأخذت المحفظة وحفظتها معي من ذلك الحين ولم تفارقني يوماً واحداً ولا ساعة واحدة وأنا لا أعلم ما فيها. فلما قتلوه تلك القتلة الشنيعة لم يبقَ لي مقام بالأندلس فبرحتها ومعي حسان وعنده كل أسراري وقد كان خادماً مخلصاً للأمير.

«وتولى الأندلس بعد عبد العزيز أمراء كثيرون تحفز بعضهم للفتح ولكنهم لم يظفروا به لطيشهم وعتوّهم وطمعهم. حتى إذا سمعت بعبد الرحمن وما فعله قبل النهوض للفتح من طوافه بإسبانيا وتعهده حكامها وعزل الضعفاء وأهل المطامع ومحاسنة أهلها وسعيه في جمع كلمة الجند من العرب والموالي قلت هذا هو الرجل المنتَظر. وصبرت حتى أتى بوردو وفتحها وكان ما كان مما تعرفينه». ثم وجهت كلامها إلى هانيء وقالت: «فأرى أن الأمير عبد الرحمن هو الرجل الذي عناه الأمير عبد العزيز. فمريم له وهذه المحفظة (ودفعتها إلى مريم) معها أيضاً ولكن بعد قطع النهر»، فأخذت مريم المحفظة وخبأتها بين أثوابها.

وكانت سالمة تتكلم والعرق يتصبب منها واحمرت عيناها وتوردت وجنتاها من شدة التأثر. أما مريم فإنها نهضت مبهوتة وقبّلت أمها وهي تقول: «أنتِ أمي والحمد لله، لقد أقلقتني بسؤالك إذا كنت أعرف أمي.. فأبي إذن أمير عربي وأمي ملكة الإسبان..».

فقطع هانىء كلامها وقد اشتد وجده بها وقال: «لا شك أنك عربية الأصل عريقة في الحسب والنسب» والتفت إلى سالمة وقال لها: «إن حديثك يا سيدتي قد نقش على صفحات قلبي وأراك قد فقت العرب حفظاً للود ووفاء للعهود وفقتيهم إخلاصاً في الحب لرجلك ونصرتهم بسعيك وفديتهم بنفسك فبورك فيك. والله لو كان في رجالنا عشرة مثلك أو مثل ابنتك هذه لفتحنا العالم. ولكننا محاطون بجماعة لا يجتمعون إلا على الجشع وقلّ منهم مَن يدرك معنى الفتح والنصر وإنما يفهمون الغنائم والسبايا. ونحن نقاسي العذاب في سبيل التوفيق بين قبائلهم وشعوبهم ولو كان أميرنا غير عبد الرحمن ما استطعنا الوصول إلى هنا. فعسى الله أن يأخذ بناصرنا حتى نقطع هذا النهر فإذا قطعناه هان علينا كل عسير» والتفت إلى مريم وابتسم ففهمت أنه يشير إلى زواجهما ولكن قلقها لفراق أمها منعها من الاستحياء.

وأحست سالمة كأن حملاً تزحزح عن صدرها بعد كشف السر، وانتبهت للمحفظة فقالت لمريم: «أوصيك بتلك المحفظة أعتني بها ولا تسلميها إلا لعبد الرحمن الغافقي بعد عبور هذا النهر».

فقالت مريم: «ألا تزالين على تصميمك على الذهاب إلى الدوق أودو؟».

قالت: «نعم ولا بأس عليَّ منه.. كوني مطمئنة، واعلمي أنك في كفالة الأمير عبد الرحمن فقد أوصيته بك من قبل».

فتنسمت مريم من كلام أمها أنها لا تأمل اللقاء بعد هذا الفراق فنهضت سالمة وهي تقول: «لقد آن لي أن أجيب طلب الدوق». وضمت مريم إلى صدرها وأخذت في تقبيلها مراراً وتكراراً وكلاهما تبكي وهما متعانقتان متماسكتان كأنهما لا تريدان الفراق فأثر منظرهما

في هانىء حتى كاد يبكي فتقدم وفرّق بينهما فرأى عيني سالمة حمراوين من البكاء وهي مع ذلك تنظر إلى ابنتها وتبتسم ومريم تقول لها: «قلت إنه لا يجب التفريط في هانىء لحاجة الجند إليه.. أما أنا فما الفائدة مني.. دعيني أسير معك».

فقطع هانىء كلامها قائلاً: «إن الجند لا يفلح إلا بك».

ففهمت أن هانئاً لا يريد فراقها كما فهمت سالمة إنهما متحابان ولكنها كانت تثق بشهامة هانىء وتعلم منزلته عند عبد الرحمن وازدادت وثوقاً به لما رأت عبد الرحمن قد أذن له أن يصحب مريم إلى الدير.

ولما استعدت للخروج قالت لهانىء: «إذهب أيها الأمير بمريم قبل ذهابي...».

قال: «عفواً أيتها الملكة الجليلة.. إني لا أخطو خطوة قبل أن أراكِ ذاهبة بإكرام وإجلال..».

قالت: «ثق أني سأذهب مكرّمة وسأقيم هناك مكرّمة أيضاً لا خوف عليَّ فإن أودو يعرف مَن أنا وأرجو أن يكون مكثي في معسكره هذه المرة مثمراً مثل مكثي في المرة الماضية فقد كشفت فيه سراً وقَانَا شراً عظيماً..».

قال: "ربما كان الأمر كذلك ولكنني أستحي من نفسي أن أخرج من هذا الدير وحوله الجند يطلبونك فإذا كنت لا تسمحين أن أمنعهم فأذني لي أن أراكِ ذاهبة معهم؟».

قالت مريم: «إن هانئاً على صواب».

قالت سالمة: «إذهب إذن إلى رئيس الدير لأودعه فانتظراني في الحديقة». قالت ذلك وخرجت فتبعاها فتحولت إلى غرفة الرئيس

ونزلا هما إلى الحديقة وكانت مضيئة بالاقباس. وطلب هانيء من البواب أن يحضر الجوادين فأمر فجيء بهما فدفع هانيء إليه صرّة فيها دنانير فاستأنس البواب بذلك الكرم وأمر الخادم أن يحسن العناية بالجوادين فوقف بهما وجواد هانيء يتجلى كالعروس بما عليه من العدة المتقنة وما في عنقه من القلائد والعقود وما على عدته من الأحجار الكريمة، وخصوصاً اللؤلؤة الكبيرة المصوغة على شكل النجمة فوق جبهته ناهيك بلجامه المذهب وما على صدره من سلاسل الفضة وهو أدهم شديد السواد فأصبح كأنه ليل تتلألأ فيه النجوم وكان هانيء واقفاً إلى جانبه ينظر إليه نظرة وإلى مريم نظرة أخرى. ولم يبقَ أحد من أهل الدير في تلك الحديقة أو بقرب الباب إلا وقد جاء ينظر إلى الأدهم وإلى صاحبه وكلاهما غريب عندهم وكأن الأدهم أدرك إعجاب الناس فازداد دلالاً وأخذ يضرب الأرض بيمناه ويصهل كأنه يطلب النزال أو كأنه فهِم من صهيل الخيول حول سور الدير أنهم أعداء صاحبه فأخذ يهددهم.

وبعد قليل سمعوا ضوضاء داخل الدير ثم خرج بعض الخدم يحملون الشموع ووراءهم جماعة من الرهبان يسيرون بين يدي سالمة ورفيقها الراهب حتى باب السور فمروا بهانيء ومريم فحيتهما سالمة ومشت حتى خرجت من الباب وكانوا قد أعدوا لها جواداً ركبته وركب الراهب جواداً آخر ونفخ في البوق فاجتمع الفرسان الافرنج ومشوا بعضهم إلى جانبها وبعضهم وراءها إجلالاً وهانيء ومريم ينظران فأحست مريم في تلك اللحظة أن أمها اقتُلِعَت من قلبها فغلب عليها البكاء ثم تجلدت وأمسكت.

وبعد أن سار الركب بسالمة، ركب هانيء جواده وأشار إلى مريم فركبت جوادها وخرجا متجهين إلى المعسكر. وكان الليل مقمراً

والجو صافياً والهواء عليلاً كأن الطبيعة أحبت أن تشاركهما رقة شعورهما. وظل الحبيبان مدة صامتين تهيباً من مظر الطبيعة أو تمشياً مع ما يجيش بقلبيهما، وتفكيراً فيما رأياه وسمعاه تلك الليلة من الأحداث. فأصبح ارتباطهما بعدها من الأمور التي يحسبان لها الحساب وقد علما أنهما أقرب نسَباً وأوثق عهداً مما كانا يظنان، وأحست مريم بأنها مطالَبة بنصرة العرب عملاً بوصية أبيها.

فلما اقتربا من المعسكر رأيا نيرانه لم تكد تظهر لهم عن بُعد لتغلب ضوء القمر فأسِف هانىء لوصوله إلى المعسكر قبل أن يخاطب مريم بما يجول في خاطره فأمسك شكيمة جواده ليسير الهوينا. فاقتدت به مريم وهي تتوقع أن تسمع منه شيئاً فقال مداعِباً: «أراكِ صامتة يا مريم لعلّ ما علمته من شرف أصلك خفف شيئاً من حبك؟».

فأوقفت جوادها ونظرت إليه كأنها تستطلع قصده فلما رأته يبتسم علمت أنه يمزح فقالت: «لا فضل لي في شرف ورثته من الأجداد وإنما الشريف مَن نال الشرف بحدّ حسامه كما ناله الأمير هانىء». فقال وقد هاجت عواطفه، وهو يمسك الجواد عن المسير والجواد لا يطيعه: «فأنتِ إذاً صاحبة الشرف طارفاً وتليداً فقد رأيت منكِ في وقعة دردون ما تعجز عنه الفرسان فسبحان مَن جَمع فيكِ شجاعة الرجال ورقّة النساء».

فقطعت كلامه وقالت: «إني لم أفعل شيئاً يا هانىء وإذا ساعدَتْني الأقدار فإني سأتفانى في تنفيذ وصية أبي فإن الشجاعة ليست وقفاً على الذكور دون الإناث.. آه يا هانىء». وسكتت كأنها تكتم أمراً.

فنظر إليها هانىء والقمر أمام وجهها يجلله النقاب الأسود

ووقعت أشعته على محياها حتى صدق قول الشاعر بأن قد تقابل القمَران. والحقيقة أن ليس للقمر ما في وجوه الملاح من المعاني الجذابة الفاتنة. فقد كان في وجه فتاتنا العربية سليلة الملكين الجَمال والهيبة والذكاء، وجاء الحب فزادها رونقاً وزاد المحب افتتاناً ـ فنظر هانىء إليها وقد أطرقت كأنها تكتم أمراً يمنعها الحياء من إفشائه وتشاغلت بإصلاح الشعر على عنق جوادها. وهَمّ بأن يسألها عما تكتمه فإذا بفارس طلع عليهما من بعيد من جهة دير مَرْتين ينهب الأرض نهباً فأمسك هانىء جواده وتفرّس في القادم فعلم من قيافته أنه افرنجي ورأى معه علَماً أبيض فتحقق أنه رسول من شارل. ولم يكن هانىء يعرف الافرنجية فلما دنا الفارس منهما أمسك شكيمة جواده ومشى الهوينا فخاطبته مريم بالافرنجية قائلة: «مَن الرجل؟».

فقال: «إني رسول من الدوق شارل إلى الأمير عبد الرحمن فأين خيمته؟».

فأفهمت هانئاً ما قاله فقال: «إنها رسالة ذات بالٍ والأجدر أن نسير به لنرى ما يكون».

فقالت مريم للرسول: «نحن ذاهبون إليه تعال في أثرنا»، ومشيا وقد شغلا بما يهدد العرب من الأمر العظيم وتذكرت مريم حساناً لأنها كثيراً ما كانت تراه في مثل مهمة الفارس، فما تمالكت أن قالت: «مسكين يا حسان»، وكان هانىء كله آذان لسماع كلمة تخرج من فم مريم فلما سمعها تذكر حساناً تذكر عبارة قالتها سالمة في ذلك النهار عند سماعها موت حسان فقال: «سمعت أمك تقول لما علمت بمقتل حسان أنه مات ولم يرَ حفيده ـ فمن هو حفيده؟».

قالت: «علمت مما كان يدور قديماً من الحديث بين حسان وبين أمي أنه كان له ابن قاتَلَ في حرب لا أدري ما هي وكان لابنه

غلام فقده في تلك الحرب وهذا حفيده. وكان حسان كثيراً ما يتحسر لضياع ذلك الغلام ولأنه لا يعرف مقره. وقد سألت أمي مرة في ذلك، فقالت إنها عثرت على الغلام في معسكر أودو وقد صار شاباً والافرنج يحسبونه منهم ويسمونه رودريك وأنها تركته في معسكر أودو عند فرارها ولا تعلم مقره».

فلما اقتربوا من المعسكر أمسك هانيء شكيمة جواده ونظر إلى مريم فأدركت أنه يريدها أن تذهب إلى الأخبية حيث النساء فقالت: «هل أذهب إلى الخباء؟».

قال: «نعم يا حبيبتي لتكوني في مأمن حتى يقضي الله لنا بالنصر ونذهب معاً إلى نهر لوار وأرجو أن يكون ذلك قريباً».

قالت: «أما إذا خيّرتني فإني أفضل البقاء هنا لأمر أراني مسؤولة عنه ولكن الطاعة واجبة ـ فالآن لا ينبغي أن ننسى السر الذي عهد إلينا بحفظه». قالت ذلك وافتقدت المحفظة فوجدتها.

قال هانيء: «هل أرسل معك بعض الحراس».

قالت: «لا حاجة لي بالحراس يا هانيء وأنا أسير في ظلك وأنت معي أينما توجهت». قالت ذلك وأومأت برأسها للوداع وأدارت شكيمة الجواد إلى الأخبية. فلما توارت عنه عاد إلى الفارس وسارا معاً حتى دخلا المعسكر ولم يعترضهما الحراس لأنهم عرفوا الأمير هانئاً من أدهمه. فلما وصلا إلى فسطاط الأمير ترجل هانيء وسأل الحاجب هل عند الأمير أحد؟ فقال: «كان الأمراء عنده الآن وانصرفوا».

ـ ١٦ ـ
رسول شارل

دخل هانيء وأشار إلى الرسول أن يبقى خارجاً وكان

عبد الرحمن جالساً فلما سمع صوت هانىء صاح فيه صيحة الوالد بولده: «ما الذي أعاقك يا هانىء لقد أشغلت بالنا».

فقصّ عليه ما جرى بعد وصوله إلى الدير وكيف بعث أودو جنداً أخذوا سالمة إليه وكيف أراد إنقاذها ولم ترضَ. ولم يذكر شيئاً عن السر وأخبره أن مريم رجعت معه وتوجهت إلى الأخبية إلى أن قال: «وقد أتيتك برسول من قارله (شارل) قائد جند الافرنج أظنه يحمل إليك كتاباً وهو بالباب الآن. هل يدخل؟».

فصفق عبد الرحمن فدخل حاجب من غلمانه فقال له: «ادع لنا أحد المترجمين فإذا جاء أدخله مع الرسول، فخرج الغلام وظل عبد الرحمن صامتاً كأنه دُهشَ لخبر جديد ولم يكن هناك شيء جديد ولكنه تنسم رائحة القتال وتمثل له عظم الأمر الذي هو قادم عليه. وأدرك هانىء ذاك فتهيّب وظل ساكتاً حتى عاد الغلام ومعه ترجمان من يهود إشبيلية يعرف لغات عديدة وللمسلمين ثقة كبرى فيه مثل ثقتهم بسائر يهود الأندلس لأنهم كانوا عوناً كبيراً في فتح تلك البلاد. ثم دخل الرسول فسأله عبد الرحمن عن غرضه فقال إنه قادم برسالة من الدوق شارل صاحب اوستراسيا. فقال عبد الرحمن: «وأين الرسالة؟».

فمدّ الرسول يده إلى شبه خِرْج معلّق تحت إبطه وأخرج منه لوحاً ملفوفاً بمنديل من الحرير الأحمر وقد شد حوله بشريط من الحرير الأزرق. فتناول عبد الرحمن الرسالة وأشار إلى الرسول فخرج، ثم حلّ الشريط وفتح المنديل وأخرج ما فيه.. لوحاً من الخشب الرقيق مغطى بالشمع، وقد حفرت فيه الكتابة على جاري العادة في رسائل ذلك العصر في أوربا. فلما ظهر اللوح علِم عبد الرحمن أنها رسالة افرنجية لأن العرب يكتبون على الجلد أو

القرطاس أو النسيج. فدفع اللوح إلى الترجمان فقرأه وهاك ترجمته:

«بسم الأب والإبن والروح القدس

«من الدوق شارل قائد جند الافرنج وصاحب اوستراسيا إلى الأمير عبد الرحمن قائد جند العرب ـ أما بعد فإن أخي الدوق أودو صاحب اكيتانيا أطلعني على ما تعمدتموه من التوغل في بلاده لغير سبب يدعو إلى الحرب بيننا وبينكم فأنتم إنما تطلبون الفتح التماساً للكسب وقد أطمعكم في ذلك ما رأيتموه من ضعف الذين وقفوا في وجهكم من جند هذه البلاد إلى اليوم. وقد علمت ما أنت عليه من الشجاعة والتعقل وعلو الهمة فرأيت أن أبذل لك النصح لترجع عن قصدك حقناً للدماء. ولا أطلب منك استسلاماً وإنما أطلب إليك الرجوع عن هذه البلاد بما تحمله من الغنائم إلى حدود إسبانيا إذ لا قبل لكم بالوقوف أمامنا، هذا فإذا أصررتم فموعدنا للنزال قريب والسلام».

فلما فهم عبد الرحمن فحوى الكتاب وما فيه من التهديد ظهر الغضب في وجهه ونظر إلى هانىء كأنه يستشيره فقال هانىء يلوح لي أن الرجل مغرور فأرى أن يكون السيف جوابنا.

فتبسم عبد الرحمن وصفق فجاء الغلام فقال له: ادع الأمراء فأدرك هانىء أنه لا يقضي أمراً إلا بالشورى خوفاً من العتب أو الفشل. وبعد ساعة جاء الأمراء فتلا الكتاب عليهم ففوضوا إلى عبد الرحمن الجواب عليه فأشار إلى الترجمان أن يكتب:

«بسم الله الرحمن الرحيم

«من عبد الرحمن الغافقي قائد جند المسلمين في اكيتانيا إلى الدوق قارله قائد جند الافرنج. أما بعد فقد قرأت كتابك وساءني اغترارك بنفسك مع ما بلغني من علوّ همتك وبسالتك. أيها الدوق إننا

لم نجرد هذا الجند لفتح اكيتانيا وحدها ولكننا نهضنا لفتح هذه الأرض الكبيرة. ولو لم تأت أنت لملاقاتنا هنا لالتقينا بك في بلدك ثم نحمل على رومية فالقسطنطينية حتى يدين لنا العالم كله كما وعدنا نبيّنا ـ فننصح لك أن تعتبر بما أصاب أخاك صاحب اكيتانيا وإلا فلا تلومنّ إلا نفسك والسلام».

ولفّ الكتاب وختمه وأرجعه إلى الرسول فحمله وعاد، وانصرف الأمراء إلا هانئاً فظل عند عبد الرحمن وقد توسط الليل فقضيا ساعة في التشاور ثم انصرفا كلّ إلى مضجعه.

وقضيا اليوم التالي في التأهب، وبينما هما في أصيل اليوم الثالث يطوفان بجناح الجند الأيسر، إذ جاءهما بعض الطلائع يقولون بأنهم شاهدوا غباراً يتصاعد في عرض الأفق بجوار دير القديس مَرْتين فأدركا أن شارل زحف بجنده للقتال لما وصله الجواب. فصعد إلى أكمة أطلا منها فرأيا غباراً يتصاعد أيضاً من جهة الجنوب حيث معسكر أودو فعلما أن الجيشين متحدان عليهم فقال عبد الرحمن: «لقد آن وقت العمل يا هانىء وهذه جنود الافرنج قادمة فينبغي لنا أن نتيقظ ونتأهب لئلا يهاجمونا على غرة فامض إلى فرسانك واجعلهم على أهبّة للهجوم وأنا ماضٍ إلى تحذير سائر الأمراء». قال ذلك ومشى، وهانىء في أثره أشدّ ما يكون اشتياقاً إلى النزال.

على أن الجيشين الافرنكيين لم يواصلا الزحف على العرب ولكنهما عسكرا تجاه معسكرهم وما بينهما وبينه إلا ساحة القتال. فلما رأى عبد الرحمن ذلك علم أنهم لا ينوون الهجوم في هذا اليوم فبعث بذلك إلى هانىء سراً وبعد صلاة العشاء خرجا من المعسكر ماشيين إلى أكمة قريبة كان عبد الرحمن قد شاهدها بنفسه بالأمس فصعدا إليها ونظرا إلى ما بين أيديهما وقد طلع القمر وأرسل أشعته

في الفضاء فوق ذلك السهل فكشف عن معسكرين معسكر شارل في الشرق ومعسكر أودو بمحاذاته نحو الجنوب تجاه معسكر العرب. ونظر عبد الرحمن إلى مضارب ذينك الجيشين وأمعن نظره ليقدر عددهم فوجدهم كثيرين يفوقون جند المسلمين وود لو أنه يعثر على مَن ينبئه بقوة الجيشين ومعداتهما وسائر أحوالهما.

وحانت التفاتة من هانىء فرأى عبد الرحمن ينظر في عرض الأفق كأنه يرى شيئاً جديداً فالتفت هو أيضاً فرأى شبحاً كأنه رجل يعدو من جهة معسكر الدوق شارل وعليه لباس الافرنج ولكنه لا يحمل راية ولا يظهر من قيافته أنه رسول فقال هانىء: «ما رأيك بهذا القادم أيها الأمير؟».

قال: «لا أظنه رسولاً فقد يكون جاسوساً أو صديقاً».

وما أتم كلامه حتى أصبح الرجل على بضعة عشر متراً منهما فتباطأ في مشيته حتى اقترب وهما لا يكلمانه فلما دنا منهما قال ملحناً بالعربية: «أين الأمير عبد الرحمن؟».

فقال له هانىء: «وما الذي تريده منه؟».

فأومأ بإصبعه إلى لسانه كأنه يقول أنه لا يعرف العربية ثم أومأ أنه قادم من معسكر أودو بأمر خاص بالأمير عبد الرحمن.

فقال عبد الرحمن لهانىء: «لو قلنا له أني الأمير عبد الرحمن ما صدقنا فأرى أن ندله على خيمتي ثم ندخله من باب خلفي ونوهمه أننا كنا هناك». فأشار هانىء بيده إلى فسطاط الأمير وأمامه النار ومشى وتبعه الرجل ومضى عبد الرحمن من جهة أخرى حتى دخل خيمته من باب خلفي ثم دخل هانىء وبعد قليل جاءه الحاجب بأن شاباً إفرنجياً بالباب فأمره عبد الرحمن بإدخاله فأدخله وعاد لاستقدام الترجمان. فلما دخل الشاب نظر إليه عبد الرحمن فإذا هو في مقتبل

العمر عليه قيافة الافرنج وملامح العرب أسمر البشرة خفيف اللحية صغير العارضين فلما جاء الترجمان أمره عبد الرحمن أن يسأله عن غرضه فسأله فقال الشاب أنا لا أخاطب أحداً غير الأمير عبد الرحمن وإذا كان غائباً فالأمير هانىء».

فلما سمع هانىء اسمه تعجب فقال عبد الرحمن: «إنك في حضرة الأميرين معاً». قال: «إني رسول من سالمة».

فلما سمعا الإسم توسما خيراً فقال عبد الرحمن: «وأين هي الآن ومَن أنت؟».

قال: «هي في معسكر الدوق أودو وأما أنا فإني عربي الأصل وانتهى بي الأمر إلى الانتظام في جند الدوق أودو ولي حديث طويل قصصته على سالمة منذ برهة وجيزة وقد قبض علينا أودو وسجن كلاً منا في مكان ففرت هي من سجنها وظللت أنا في المعسكر ثم أطلق الدوق سراحي وأحسن الظن بي وأعادني إلى خدمته ثم علم أودو من عدلان الأحوَل أنها في دير مَرْتين فبعث فرساناً ليأتوه بها كنت أنا في جملتهم».

فقال هانىء: «أأنت رودريك؟».

فدُهش الشاب والتفت إلى هانىء وابتسم وقد استأنس بالسؤال وقال: «نعم يا سيدي هذا هو اسمي».

وكان عبد الرحمن يسمع ذلك ويتعجب ونظر إلى هانىء مستفهماً فأجابه هانىء بصوت خفيض: «إن هذا المسكين حفيد حسان وله قصة تعرفها مريم».

فالتفت عبد الرحمن إلى رودريك وقال: «فاقصص علينا سبب مجيئك».

قال: «لما رجعنا من الدير بسالمة ذهبنا بها إلى خيمة باتت فيها تلك الليلة وفي الصباح التالي جاؤوا بها إلى مجلس الدوق وكنت في جملة الحراس الواقفين ببابه ورأيت عنده امرأة جميلة كانت جالسة بجانبه عرفت بعد ذلك أنها ابنته لمباجة وأنها كانت في معسكر العرب وفرّت إلى أبيها في تلك الليلة ـ فلما دخلت سالمة خفت عليها من غضب الدوق ولكنني رأيت من إجلاله إياها واحترامه لها ما كاد يذهب برشدي وسمعتها تخاطبه بجرأة وقوة وهو يتحمل منها ويستعطفها كما يستعطف المحب حبيبته. وقد سمعته يسميها بغير اسمها ويعاتبها وأخيراً أمر بإرجاعها إلى خيمتها. وكانت قد لاحت منها التفاتة وهي خارجة فرأتني وعرفتني فأومأت إليَّ خلسة أن أقابلها. فاحتلت في مقابلتها تلك الليلة. فلما رأتني قالت: «إنك عربي وأولى بنصرة العرب مني. فامض إلى معسكر الدوق شارل واستطلع أحواله وأخبر أمير جند العرب بذلك لأنهم إذا عرفوا قوة عدوهم هانَ عليهم حربه». وألحت عليَّ بالذهاب مسرعاً فخرجت على الفور... وبتُّ في معسكر شارل. وقد قضيت أمس واليوم في الاستقصاء، ولما أمسى المساء فررت إليكم كما ترون».

فأُعجب الأميران بشهامة سالمة وتذكر هانىء قولها أنها ستكون في معسكر أودو أنفع لهم منها في معكسر العرب فقال عبد الرحمن: «ما الذي عرفته من أحوال الجند؟».

فقال: «إن قائد هذا الجند يا مولاي رجل شديد اسمه شارل (قارله) ابن ببين وهو رئيس حاشية ملك نوستريا من العائلة الميروفيجيانية، ونظراً لضعف ذلك الملك كان حظ شارل من تلك المملكة دوقية اوستراسيا وراء نهر لوار. لكنه لم يقنع بالدوقية بل طمع في التاج الملكي، ولذلك كان أودو هذا من أكبر منافسيه ولم يستنجده

على العرب إلا بعد اليأس الشديد. فلما استنجده جرّد ما يستطيع جمعه من قبائل الافرنج وما استطاع حمله من العدة والسلاح واستقر في هذا المعسكر».

فسأله عبد الرحمن: «كم عدد جنده؟».

قال: «لم أستطع معرفة عدده بالضبط ولكنني علمت أنه ربما فاق ضعفَي جيشكم وهو مؤلف من قبائل عديدة تختلف لغاتها وعاداتها وأخلاقها وإن كانت تعد على التعميم من الافرنك أو الأوربيين، ولكنها على التخصيص مؤلفة من شعوب عديدة فيها الاوستراسيون أهل البلاد الأصليون والأتوريون والبروكتيون والطورنجيون والهيسيون وغيرهم وعليهم أدرع من الجلد، وعلى صدر خيولهم أدرع من الحديد الثقيل، أسلحتهم السيوف الطويلة المستقيمة ذات الحدين والفؤوس الحادة والرماح المستطيلة والدبابيس الثقيلة في رؤوسها حسك الحديد، والجند مؤلف من المشاة والفرسان. أما الفرسان فقليلون وهم وحدهم يرمون النبال».

وكان رودريك يتكلم باهتمام وعبد الرحمن وهانيء مصغيان لكل كلمة يقولها فلما بلغ إلى هنا ابتسم هانيء والتفت إلى عبد الرحمن وقال: «نحن بلا ريب غالبون لأن فرساننا كثيرون وقد عرفت بسالتهم وخبرت مهارتهم وفيهم الرماة وحَمَلَة السيوف والفارس العربي يعدل ثلاثة من الفرسان الافرنج ولأن مشاتنا فيهم الرماحة والرماة والنصر من عند الله يؤتيه مَن يشاء».

والتفت عبد الرحمن إلى رودريك فرآه يتحفز للنهوض فقال له: «وهل لديك خبر آخر؟».

قال: «كلا يا مولاي وأنا عائد إلى معسكر أودو بأمر سالمة فهل من جواب؟».

قال: «هل أمرتك بالرجوع؟».

قال: «نعم لعلها تطلع على أمر يهمكم فتبعثني به».

فقال عبد الرحمن: «أهدها سلامنا وقل لها إننا حافظون لها هذا الجميل».

فنهض رودريك واستأذن وخرج ثم خرج الترجمان ومكث عبد الرحمن وهانىء وحدهما يبحثان أمر الجيش فاستقر رأيهما على الإسراع في الهجوم ما استطاعا قبل أن يستعد الافرنج للدفاع. وفي فجر اليوم التالي، نفخ في النفير فاجتمعت جيوش المسلمين فجعل عبد الرحمن المشاة في الوسط والفرسان في الجناحين وجمع الأمراء على اختلاف قبائلهم فجاؤوا على خيولهم وعلى رؤوسهم العمائم مكان الخوذ متقلدين سيوفهم. فوقف عبد الرحمن خطيباً فيهم وقال: «أيها الأمراء، إننا اجتحنا اكيتانيا كلها والظفر حليفنا فلما يئس عدونا من الفوز استنجد خصمه صاحب اوستراسيا وقد جاءنا بجنده وكفانا مؤونة الذهاب إليه وهذا معسكره وفيه كل قواته، فالذي نصرنا على صاحب اكيتانيا سينصرنا عليه، وقد علمنا أنه أضعف منا عدة وعدداً، والنصر رهن بالصبر فاصبروا وتكاتفوا ينصركم الله فتفتحون بلاداً طالما تشوق المسلمون لفتحها ويتم على يدكم ما وعد الله نبيّه من فتح العالم فيكون لكم الفخر ويخلد لكم الذكر مدى الدهر وإنكم لفاعلون بإذن الله والله مع الصابرين».

ولما فرغ من كلامه تقدم هانىء على جواده وعلى وجهه أمارات البِشر وقال: «إن هذا اليوم يوم الموعد العظيم وسننال الفوز بالصبر والجَلَد. يكفينا تيهاً أننا وفّقنا إلى أمر طالما تحسّر أسلافنا على الوصول إليه وسيحسدنا عليه الذين سيخلفوننا ويتمنون لو شاركونا فيه بدمائهم وأعناقهم. وسترونني وأنا أضعفكم عزيمة وأقلكم شجاعة

باذلاً نفسي في سبيل الله فإذا فزنا فتحنا عالماً جديداً وإذا استشهدنا فذلك خير لنا عند الله وأبقى». قال ذلك والحماسة بادية في كل جارحة من جوارحه.

ثم قال عبد الرحمن: «فعليكم أيها الأمراء أن تستحثوا رجالكم وتوصوهم بالصبر والثبات وحدثوهم عن الفخر الذي سينالونه بحد سيوفهم فضلاً عن الغنائم فإنها أضعاف ما نالوه حتى الآن». ثم تلا من آيات القرآن ما يزيدهم حماسة وشجاعة. فتقدم كبير أمراء البربر وقد تحمس بعد أن سمع بكثرة الغنائم وقال: «لا يُخفى على مولانا الأمير أن جند البربر من أشد جنود المسلمين بطشاً وأكثرهم ثباتاً في ساحة الحرب وكلهم من الرماة الماهرين فاجعلوهم في المقدمة».

فأراد عبد الرحمن تشجيعهم، فقال: «نفعل ذلك». وأمر أن يتقدم البربر بأقواسهم وبعدهم العرب، ثم الفرسان في الجناحين.

وكان شارل من جهته يتأهب لمهاجمة المسلمين والتشاور جارٍ بينه وبين أودو في كيفية التعاون على ذلك فلما أخبرته الطلائع بأنّ المسلمين هيأوا صفوفهم للحرب، رتب جنوده صفوفاً متلازمة بشكل الكتائب فأصبحوا كأنهم سور من الرجال وأكثرهم من الجنود المحنكة وقد حاربوا تحت راية شارل غير مرة فوقفوا موقف الدفاع والرماح ناتئة من بينهم صفوفاً، بعضها فوق بعض لتمنع العرب من اختراق ذلك السور المتين.

— ١٧ —
الحرب

قف هنيهة قبل الهجوم وانظر إلى ذينك الجيشين وهما يختلفان جنساً ولغة وديناً ويتباينان مطعماً ومشرباً وملبساً ويتباعدان خُلقاً وأدباً. اجتمع أحدهما من أقاصي آسيا وإفريقيا من أمم شتى لا

يجمعهم غير الإسلام إلى بلاد لم يطأوها من قبل وإقليم لم يتعودوا برده ومطره. وقد رأوا أمامهم رجالاً أدرعهم من الجلود، وعلى رؤوسهم خوذ من الجلود ورياتهم مستطيلة، عليها شارات النصرانية، وجاء الآخرون من شمال أوربا وهم قبائل مختلفة وقد قضوا زمناً في القيام بعضهم على بعض وإنما اجتمعوا الآن لدفع عدو غريب جاءهم بدين جديد وشكل جديد وقد دُهِشوا لغرابة ما بدا لهم من اصطفاف تلك العمائم المتراصة في تلك الساحة الرحبة كأنها بحر متلاطم الأمواج ينتأ من بينها رايات متشابهة عليها كتابة لا يستطيعون قراءتها، ولو علمت ما يجول في خاطر ذينك الجيشين لرأيتهما متضاغنين متشاحنين يتضرع كلّ منهما إلى ربه أن ينصره على الآخر تأييداً للحق. فإذا اعتبرت الأسباب التي دعت إلى ذلك القتال لما رأيت سبباً غير الجشع الذي خص به الإنسان دون الحيوان. فإننا لم نسمع بسرب من الحيوان يجتمع لقتال سرب آخر من نوعه. وإذا تنازع حيوانان فإنما يتنازعان على لقمة يلتمس كلّ منهما سد جوعه بها فهما معذوران في الخصام. وأما الإنسان فإنه يقتل أخاه على شيء لا يعبّر عنه بغير الوهم بل هو لا يقدم على قتله إلا على شبع، وإنما يطلب وهماً يسميه السيادة أو الشهرة أو المجد وكل لا يسد جوعاً ولا يروي عطشاً.

طلعت شمس ذلك النهار وهو على تقديرهم سبت من سبوت شهر اكتوبر سنة ٧٣٢ ميلادية فبدأ العرب بالهجوم وأمطروا الافرنج عارضاً من النبال، وانقضوا عليهم كالصاعقة، فتلقاهم هؤلاء بالثبات والحزم ولم يتزحزحوا من أماكنهم، فانقضى النهار ولم يلتحم الفريقان إلا لماماً، وقد تقابلا وتناديا وتصايحا ولكنهما لم يتفاهما لأن كلاً منهما يعد لغة الآخر رطانة وطمطمانية ـ وربما كان التفاهم أقرب فيما بين خيولهم مما بينهم ـ ولكنهم تعارفوا بالوجوه ولم ينفعهم التعارف لأنه لم

يزدهم إلا ضغينة وحقداً. ثم افترقوا على أن يعيدوا الكرة في الغد.

رجع هانىء منقبض النفس وأمر في فرسانه أن يعودوا إلى مضاربهم وسار بأدهمه مجانباً الساحة ليطل عليها من أكمة. وإذا هو بفارس ملتف بعباءة قد ساق جواده نحوه فأمسك شكيمة الأدهم وتفرس فيه. ولا تسل عن دهشته لما رأى مريم على ذلك الجواد فخفق قلبه وصاح فيها: «مريم؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

فقالت: «جئت لأشاهد حبيبي هانئاً يبدد الكتائب ويفل الجيوش..».

فأحس عند سماعه قولها كأنها طعنته بحربة في صدره وحمل كلامها على محمل التأنيب لرجوعه بلا طائل وبدا التأثر في وجهه. وأدركت مريم ذلك، فاستدركت قائلة: «لقد رأيتك تصول صولة الأسد ولكن الحرب سجال. وقد كنت أتوقع النصر لكم لو لم تجعلوا أولئك البرابرة في مقدمة الجند فهم لا يستطيعون اختراق صفوف الافرنج ولن يستطيع اختراقها إلا الفرسان، فلو قدمتم فرسانك وأنت معهم لبددتم شملهم لأن خيالة الافرنج ضعيفة».

فرأى في قولها حكمة لأنه كان يرى رأيها وكان قد همّ بعرضه على عبد الرحمن، فابتسم ونظر إليها نظرة الحب والإعجاب، وقال: «بورك في بطن حملك فقد عهدت فيك لطف النساء وبسالة الرجال ولكنني لم أكن أعرف فيك مهارة القواد. سنعمل برأيك في الغد بإذن الله، وقد قدمنا البرابرة مجاملة كما تعلمين في حالنا معهم... ولماذا عرضت نفسك للنبال؟.. فقد كنت وأنا أجول في ساحة الوغى أتمثلك في الخباء تتوقعين رجوعي ظافراً. فلما رجعنا كما ترين انقبضت نفسي.. ولو كنت بجانبي لكانت النتيجة غير ذلك...».

فأدركت أن علمه بقربها منه يزيده بسالة ونشاطاً، فقالت:

«فموعدنا الغد».

فقال: «لا. لا تعرّضي نفسك للخطر فإني أخاف عليك الهباء فكيف النبال..».

فقالت: «وهلا أخاف عليك ذلك؟ وهل أبقى أنا أذا أصيب هانىء بسوء؟ دعنا من هذا وغداً لناظره قريب» وكانا يتكلمان حتى أصبحا بجانب المعسكر فهمزت جوادها نحو الخباء وهي تقول: «أستودعك الله إلى الغد».

فما زال ينظر إليها وهي تسوق فرسها حتى توارت والظلام يتكاثف، فاتجه إلى خيمة عبد الرحمن وأطلعه على رأيه فأقره عليه وبعث إلى الأمراء وشاورهم في الأمر فأجمعوا على هذا الرأي.

قضى عبد الرحمن ليله قلقاً وهو يقدر العواقب ويحسب لها الحساب تجنباً للفشل وصمم إذا رأى من جنده تقهقراً أن يطلب قائد الافرنج للنزال فإذا غلبه تشدد العرب وإذا غلب فالموت خير من الحياة. وأما هانىء فقد كان أوسع أملاً وأوثق بالنصر منه على علمه بمواطن الضعف في الجند كعلم عد الرحمن - ولكن للشبيبة آمالاً تسهل الصعاب.

وأصبح الصباح فاجتمع المسلمون للصلاة وتلاوة آيات القرآن، ورتبوا الجند فجعلوا الفرسان في المقدمة والمشاة في الجناحين البربر في الجناح الأيمن والعرب في الأيسر وعبد الرحمن وهانىء والأمراء في القلب. ومشت القوة نحو الافرنج وكانوا قد اصطفوا اصطفاف الأمس وفرسانهم في الجناحين وأخذوا في رمي النبال على العرب بسرعة وكثرة حتى كادت تحجب أشعة الشمس دون الغبار. وظل العرب سائرين لا يبالون حتى إذا دنوا من صفوف الافرنج صاح هانىء في فرسانه فأطلقوا الأعنة لخيولهم واستحثوها وهو شارع سيفه

على أدهمه في مقدمتهم. فلم يستطع الافرنج الوقوف في وجه ذلك السيل فتضعضعوا. والتحم الجيشان وقد رجحت كفة العرب وهانىء يزداد حماسة وبسالة حتى خيّل إليه لما آنسه من ضعف الافرنج وتقهقرهم أنه يطارد أغناماً.

وبينما هو في ذلك، سمع صوتاً تنبهت له جوارحه، صوتاً يناديه: «لله درك أيها الأمير». فالتفت فرأى مريم على جوادها وقد التفت بعباءتها واعتمت على رأسها فوق الخمار ولم يبقَ ظاهراً من وجهها غير عينيها وحاجبيها وأنفها وفمها وقد تجلت الحماسة في تينك العينين فأبرقتا. وأخرجت يمناها من العباءة وفيها سيف مسلول وأخرجت اليسرى وفيها درقة لطيفة من الجلد وأغارت والناس يفرون من بين يديها كأنها قضاء نازل. فأحس هانىء لما رآها على تلك الحال أن قوته تضاعفت وأيقن بالفوز ولكنه خاف على مريم من نبل تصيبها. وظل هاجماً يستحث رجاله ويمنيهم بالظَفر. وكأن جواده لمس النصر فتحمس وازداد صهيلاً ولهثاً والعرق يتصبب من عنقه على صدره وقد تحلب الرغاء من فيه وتساقط على رغاء العرق تحت ضرام صدره وهانىء كلما سمع صهيل جواده ازداد حماساً. ثم رأى أن يتوج نصره بمبارزة شارل فأخذ يبحث عنه وهو يمتاز عن سائر الجند بقيافته ورايته والصليب على خوذته فلمحه عن بُعد كأنه بجانب الأمير عبد الرحمن فأراد أن يحول شكيمة الأدهم إلى هناك فسمع مريم تصيح فيه: «احذر أيها الأمير. احذر. التفت».

فالتفت وهو يحسبها تحذّره من فارس يحاول اغتياله من الوراء فلم يرَ أحداً غير بعض العبيد أو الخدم من سعاة العرب الذين يطوفون ساحة القتال في أثناء المعركة لالتقاط النبال المتساقطة وإعطائها إلى الرماة أو لإسعاف فارس سقط سيفه أو فرسه يلتقطونه له

وقد تعودوا المرور بين قوائم الخيل مرور السهام فالتفت هانىء إلى مريم ليستطلع سبب ندائها فرآها تركض جوادها ورأى ساع من أولئك السعاة وهو يعدو أمامها وفي يده خنجر يقطر دماً فما أدركته حتى أطارت رأسه بحسامها فوقع يتخبط بدمه فدُهش هانىء مما رأى فسمعها تقول له: «انزل عن جوادك فقد عقر وخذ هذا الجواد». قالت ذلك وهي تنزل عن جوادها.

فلم يفهم هانىء قصدها ولكنه التفت إلى فرسه فرأى الدم ينسكب من أحشائه انسكاب الماء من القربة فانقبضت نفسه فنزل عنه وجاءه أحد فرسانه بفرس ركبه وأشار إلى مريم أن تعود إلى فرسها وعادت وهي تقول: «قبّح الله ذلك الأحوَل فقد خلصنا منه» ففهم هانىء أن الأحوَل تزيا بزي السعاة واغتال الجواد، ثم التفت هانىء إلى الأدهم فرآه قد سقط فأسف على موته أسفاً شديداً وتشاءم من سقوطه على أن رجاءه بالنصر أنساه الجواد فعاد إلى الهجوم إشفاقاً من أن يتضعضع رجاله.

أما عبد الرحمن فكان يراقب الجند من القلب فلما رأى غلبة الفرسان انشرح صدره وأخذ يتنقل بفرسه على أمراء القبائل يحثهم ويحرضهم ويبشرهم ويمنيهم وخصوصاً قبائل البربر لعلمه بشدتهم وشجاعتهم فإنهم كانوا إذا هجموا، لم يقف في طريقهم سور ولا خندق ولا سيل.

وكان شارل قد أسرّ في ضميره مثل ما أسره عبد الرحمن فلما رأى تضعضع جنده وقد مالت الشمس إلى الأصيل أخذ يبحث عن أمير جند العرب ليبارزه فلما رآه عبد الرحمن عرفه من الراية التي كانت تكلله. فأقبل شارل على جواده كأنه جبل ماش عليه درع من الفولاذ بشكل الحراشف المتراكمة تغطي صدره وكتفيه وذراعيه

وتسترسل على فخذيه ومقدم ساقيه إلى القدمين حتى الركابين. وعلى رأسه خوذة في قمتها صليب وقد استرسل من جانبي الخوذة وقفاها نسيج من زرد الفولاذ يغطي خديه وظهر رأسه. وعلى صدر جواده صفيحة من الحديد بشكل الدرع معلقة بمقدم السرج وقد رفع بيمناه دبوساً من حديد بشكل الصليب، وأمسك بيسراه راية عليها رسم الصليب ورسم السيد المسيح مصلوباً، وقد أسند قناة الراية إلى الركاب الأيسر.

وأما عبد الرحمن فكانت خوذته العمامة شأن العرب وهي مع خفتها ولينها تقي الرأس كما تقيه الخوذة وعلى صدره الدرع تحت العباءة وقد تقلد السيف والخنجر. فكان أخف حملاً وأسرع حركة من شارل. وقلما كان يختلف في قيافته وشكله عن فرسانه. أما شارل فقد كان يتميز بخوذته ودرعه ورايته وجواده، فعرفه عبد الرحمن عن بُعد فصاح فيه صيحة أجفل لها جواده وأغار عليه وسيفه مشهر بيده فتلقى شارل الضربة بدبوسه ومال عنها وتقهقر لا عن فرار، فتبعه عبد الرحمن ثم خاف أن يكون في ذلك التقهقر مكيدة. فتراجع على أن يتأهب لطعنه إذا عاد إليه، وإذا هو بالصياح قد علا في الجناح الأيمن من معسكره بين البرابرة وعلت الضوضاء وهم يصيحون: «ذهبت غنائمنا ضاعت أتعابنا...» فالتفت فرآهم يتقهقرون فرساناً ومشاة. ورأى جيش أودو هاجماً على مخازن الغنائم في الخيام فاستعاذ بالله وجعل يصيح في البرابرة أن يثبتوا في مواقعهم وأن غنائمهم لا تغني عنهم شيئاً فلم يلتفت أحد إلى قوله. وبعد أن كان جند العرب فائزاً تضعضع، ورأى الافرنج تضعضعهم فأعادوا الكرة ولولا هانىء وفرسانه لانكسر العرب شر كسرة.

ولما علم هانىء بما أصاب البرابرة بذل جهده في تثبيت رجاله

ومريم معه وقد نزعت العمامة والخمار عن رأسها، وألقت العباءة عنها وظهرت بثوبها النسائي الأسود وقد استرسل شعرها على كتفيها وهجمت والسيف مشهر بيدها وقد انحسر كمّها عن زندها وهي تقول: «عار على العرب أن يفروا كما فرّ البربر. إن هؤلاء يطلبون الغنائم وأما أنتم فتطلبون الجهاد وغنيمتكم الفخر والنصر والحسنى في الدنيا والآخرة».

وكان الفرسان يحسبونها رجلاً، فلما رأوها فتاة وشاهدوا جمالها وهيبتها وبسالتها وغيرتها، خيّل إليهم أنها ملاك، نزل لنصرتهم.. فتحمسوا وثبتوا في هجومهم، وصمموا على التفاني إجابة لندائها ونداء هانيء. ولكن الظلام فصل بين الجيشين، فنفخ في الأبواق وتراجع كلّ منهما إلى معسكره.

فلما تراجع الجيشان طلب هانيء مكان عبد الرحمن، فلم يجده فسأل عنه فلم ينبئه بخبره فأركض فرسه للبحث عنه هنا وهناك فلم يقف له على أثر. فأمر فرسانه بالرجوع إلى أماكنهم وترجل هو ومريم عن فرسيهما وجعلا يطوفان بميدان المعركة يتفحصان القتلى على نور الشفق. ثم طلع القمر فأضاء تلك البقعة المغطاة بجثث الناس وفيهم المائت والميت والجريح والكسيح وجثث الأفراس والدواب. فتفقدا كل مكان فلم يجدا عبد الرحمن ـ وإذا هما بصهيل يشبه صهيل فرسه عن بعد فأجفلا واستبشرا فالتفتا إلى أطراف تلك الساحة فرأيا في بعض جوانبها مما يلي الجنوب فرساً واقفاً يصهل ويفحص الأرض فصاح هانيء: «هذا فرس الأمير»، وأسرع إليه ومريم تتبعه حتى أتاه فرآه واقفاً وأمامه شبح ملقى عرفاه أنه عبد الرحمن. فأسرع هانيء إلى يده فجسها، فإذا هي هامدة باردة وقد استلقى على ظهره وبسط ذراعيه وعيناه شاخصتان إلى الشرق كأنهما تستقبلان نور القمر.

وشاهدا سهماً مغروساً في عنقه فعلما أنه سبب وفاته. فجثا هانيء عند رأسه وصاح: «وا أسفاه عليك يا أميري يا أبي ويا أخي ويا نصيري ويا نصير المسلمين. فزت بجنات النعيم شهيداً مجاهداً فعسى أن ألحق بك عاجلاً».

وكانت مريم واقفة تنظر إلى تلك الجثة وتأسف لقتل ذلك القائد لكنها كانت تتعزى ببقاء هانيء حياً وترجو له النصر فإذا فاز بالفتح أصبح أكبر قواد الجند. وقد نفر سمعها من تمنيه اللحاق عاجلاً بعبد الرحمن فقالت: «دعنا من الندب فإنه أليَق بالنساء وهلّم بنا إلى المعسكر ندير شؤون الجند قبل الفشل فإذا فزنا غداً ونحن فائزون إن شاء الله ففي ذلك تعزية عن كل خسارة» فاستصوب هانيء قولها وقال: «لا بد من دفنه».

قالت: «متى وصلنا إلى المعسكر، أرسلنا من يأتي بالجثة ثم تصلون عليها وتدفنونها» قالت ذلك ومشت مسترسلة الشعر مكشوفة الذراعين لا تبالي ما يرافق صفاء الليل من برد الخريف. ومشى هانيء يجر السيف وراءه وقلبه في شاغل تتنازعه عوامل الفشل والأسف والأمل وتظلله عوامل الحب والوجد ومريم تسير إلى جانبه وهي في مثل حاله وقد وليا وجههما المعسكر وساحة المعركة إلى يمينهما ومعسكر أودو إلى يسارهما وليس في تلك الساحة أنيس ولا يسمعن بها غير الأنين والتوجع وربما شاهدا بعض العبيد يفتشون في الجثث يلتقطون ما بينها من سلاح أو آنية أو حلى. ولاحت من هانيء لفتة إلى جثة بالقرب منه عليها لباس الافرنج كادَ يعثر بها فأراد أن يعرج عنها فرأى في وجهها شيئاً يعرفه فتفرس فيها فإذا هي جثة رودريك فبغت وقال: «ألا تعرفين هذا الوجه يا مريم؟».

قال: «هذا رودريك حفيد حسان وكان قد حمل إلينا بالأمس

رسالة من أمك أنبأتنا بها بأمور كثيرة عن أحوال جند العدو ساعدتنا على حربهم اليوم. وأخبرتنا أنها عند أودو في خير وإكرام. ثم عاد مسرعاً إليها فربما تحتاج إليه في مهمة أخرى. فما الذي جاء به إلى هنا وكيف قُتِل؟».

فصاحت مريم: «أرى في يده شيئاً كأنه كتاب فلعله رسالة من أمي».

قالت ذلك ومدت يدها لاستخراج الكتاب من قبعته فلم تستطع كأنه قابض عليه بقوة فارتعشت جوارحها لأنها تصورت الرجل حياً. فتقدم هانىء وأخرج الكتاب بعنف وهو يقول: «إنه مات منذ الصباح» ودفع الكتاب لمريم وهو لفافة من جلد فصاحت: «رسالة. رسالة من أمي فلنقرأها» فوقف هانىء إلى جانبها وأخذت تقرأ في ضوء القمر:

«إلى الأمير عبد الرحمن سلام ـ أما بعد فإني أكتب هذا إليك عند الفجر والناس نيام وقد بت بالأمس قريرة العين بما شاهدته من شجاعة العرب وتجددت آمالي بالنصر. ثم بلغني ما دبرته تلك المرأة المسماة ميمونة فإنها إن وفّقت إلى ما بيتته كانت العاقبة وخيمة لا سمح الله ـ ذلك أنها خلت في هذا الليل إلى أبيها، وأخبرته بما عليه رجال البربر من ضعف الإسلام والتعلق بالغنائم، وأشارت عليه بأنه إذا نشب القتال اليوم وخاف أن يتقهقر رجاله يبعث بشرذمة من رجاله يسطون على مستودعات الغنائم في معسكركم وأن يرسل أناساً عليهم لباس العرب يصيحون في جندكم أن الغنائم قد أخذت. وسيتولى ذلك عدلان البربري الأحوَل لأنه يستطيع التنكر وقد تكفل قبّحه الله بقتل جواد الأمير هانىء ليتضعضع الفرسان وهم أقوى جنودكم ـ اعلمني بهذا التدبير الشاب رودريك وسأرسل هذا الكتاب معه ولكني

أخاف عليه عدلان لئلا يفعل به ما فعل بجده أو ربما أصابه نبل في أثناء ذهابه. ولا حيلة لي في ملافاة ذلك، فكل ما استطيعه هو أن أبلغكم ما يفعلون ـ فإذا أدركتكم كتابي هذا في حينه، أفسدتم خططهم، وإني ضامنة لكم النصر بإذن الله. وإذا أخفق هذا المسعى لا سمح الله وقدر النصر للافرنج فلن تقوم للعرب قائمة في هذه البلاد. أما أنا فقد أتممت المهمة التي انتدبت لها وأستودعك مريم فإنها في حمايتك ـ وإن كنت لا أرضى لها البقاء إذا انكسر العرب ولا هي ترضاه لنفسها، إذا فشل العرب ولم يقطعوا نهر لوار فلا قيمة للحياة. ولذلك فلا تطلبوني فإنكم لن تجدوني، واللقاء في الدار الآخرة فإنها تجمع شتات المحبين والسلام».

وما أتت مريم على الكتاب، حتى وقف شعرها وارتعشت أناملها وغشِيَ الدمع عينيها والتفتت إلى هانىء فإذا هو مطرق يفكر ثم رفع بصره إليها وقال: «قد علمت الآن سر انهزام جندنا بعد أن كدنا نهزم الأعداء».

فقالت: «لعن الله لمباجة و(عدلانها) إذ لولاهما لكنا الآن في معسكر شارل وفي الصباح نقطع النهر..».

فقال: «العيب يا مريم فينا ـ في جندنا فإنه متفرق الكلمة متباين الأغراض لا سيما هؤلاء البربر فإنهم لا يفهمون من الحرب غير السلب والنهب ولولا دراية الأمير عبد الرحمن وحسن أسلوبه وسِعة صدره ما استطعنا الوصول إلى هنا وقد مات عبد الرحمن الآن ولا نعلم ما يصير إليه أمرنا بعد ذاك..».

فقالت: «نعم إن موت هذا الأمير خسارة كبرى ولكننا لا ينبغي أن ننوء تحت هذا العبء وإني أقدم نفسي لما تنتدبني إليه في هذا القتال».

قال: «يكفي منك تحريض الأمراء على الإتحاد والصبر فقد رأيت من تأثير أقوالك في موقعة اليوم ما أدهشني..».

قالت: «لك عليَّ ذلك.. لأني إن لم يفز هذا الجند فليس لي بقاء.. تلك وصية أمي في هذا الكتاب..».

فقال: «وأنا هل أبقى وحدي؟.. على أني لا أرى ما يدعو إلى التشاؤم. هلم بنا إلى المعسكر..». قال ذلك ومشى فمشت مريم وهي لا تزال حاسرة الرأس مسترسلة الشعر لا تنتبه لنفسها. حتى إذا دنوا من المعسكر لم يسمعا شخير الجِمال ولا صهيل الخيل ولا رأيا ناراً ولا حركة ولا شيئاً يدل على الجند. والخيام لا تزال قائمة فأسرع إلى فسطاط الأمير الكبير فإذا هو خالٍ خاوٍ. فخرجا منه إلى ما يجاوره وقصدا خيمة الأمير هانيء فوجداها خالية. وبالجملة فقد كان معسكر العرب كأنه خيام منصوبة في الصحراء لا إنسان فيها ولا دابة.

فقضيا برهة يتمشيان صامتين من الدهشة والاستغراب، ثم تكلم هانيء قائلاً: «ما الذي أراه!؟ أين ذهب الجند أين الخدم أتظنينهم ذهبوا إلى الأخبية ليجعلوا هذا النهر الصغير ترساً لهم في الدفاع».

قالت: «ربما فعلوا ذلك. هل نذهب إلى الأخبية؟».

قال: «نذهب..» وخرجا من بين الخيام كأنهما خارجان من خربة حتى قطعا النهر الصغير إلى الأخبية فلم يجدا فيها أنيساً. فقال هانيء: «إذا فرضنا أن البربر جبنوا وفروا فأين العرب بل أين النساء والأولاد؟ ما أسرع نهوضهم وفرارهم! فإذا مات عبد الرحمن نكصوا على أعقابهم وماتت قلوبهم..».

ثم أطرق حيناً وقلبه يكاد يتقطع حنقاً ويأساً لا يدري ماذا يقول

وقد حدثته نفسه بأمور كثيرة أكبر أن يذكرها. وكانت مريم تسير بجانبه لا تقول شيئاً وهي تكتم أمراً أخّرت التصريح به حتى تسمع رأيه. وبعد المسير مدة على هذه الصورة بين الأخبية والخيام. وكل منهما غارق في أفكاره يتعثر بالأطناب والأوتاد قال هانىء: «يجب علينا قبل كل شيء أن نواري جثة أميرنا رحمه الله لئلا تذهب فريسة العقبان أو يمثل بها الأعداء». فاتجها إلى ساحة المعركة، فعرفا مكان الجثة فتعاونا في حملها إلى حفرة في مكان منفرد وضعاها فيه وغطياها بالتراب ولم يفه أحد منهما بكلمة. فكان لذلك الدفن على بساطته هيبة ووقار بما كان يضطرم في قلبيهما من نيران الحزن والأسى الصحيحين غير نيران الحب ولواعج الغرام.

فرغا من الدفن وهما صامتان، وكان القمر قد توسط السماء وأصبح نوره مثل نور النهار فقالت مريم: «وما العمل يا هانىء؟».

فتنهد وقال: «لو كان معي خمسون رجلاً لهجمت بهم على هذين المعسكرين، ولكنني سأهجم وحيداً ولو كان فيه فنائي، إنما أخاف على مريم أن يلحقها عار أو ضر إذا قُتلت».

فالتفتت إليه مريم وقالت: «وهل تبقى مريم بعدك؟ ذلك لا يكون. أما قرأت وصية أمي فإنها تحبب إليَّ اللقاء بها في دار الآخرة ولا أشك في أنها هناك الآن. فإذا كنت تحب مريم وتريد أن تطمئن على حياتها وشرفها فاسمح لي أن ألحق بأمي إذ لا فائدة من بقائي. وأما أنت فإن الإسلام يحتاج إليك والملة تفتقر إلى سيفك وذراعك».

فلما سمع كلامها هاج فيه غرامه حتى أنساه موقفه فقال: «إن الملة مفتقرة إلى مثلك أكثر من افتقارها إلى مثلي. إنك ابنة الملكين وحزت فضائل الجنسين. ووالله لو صبر أولئك الجبناء وكنت أنت رائدهم في حومة الوغى لفازوا وقطعنا نهر لوار.. آه من هذا

النهر.. لقد امتنع علينا عبوره فامتنع اجتماعنا.. أتطيعينني يا مريم؟».

قالت: «إني أطوع لك من بنانك. إلا إذا أردت لي أن أبقى بعدك».

قال: «لقد فشل جندنا وفرّ مَن بقي منا حياً وفي الفرار بقاء ترتاح له نفس الجبان. وقد اجتمعنا الآن ولا رقيب علينا وكلّ منا يريد البقاء ولا بقاء إلا بالفرار. ونفسي تأبى ذلك. إن فؤادينا ذابا تطلعاً إلى اليوم الذي يعبر فيه هذا النهر لأن في عبوره اجتماعنا فما الذي يمنعنا من الاجتماع فيه الآن؟».

فقطعت كلامه قائلة: «في جوفه».

فقال: «بل في قاعه. فإذا كنا معاً فلا أبالي أين نكون ولا كيف نكون». قال ذلك ووثب فركب جواد عبد الرحمن وأمسك بيدها فأردفها وأركض الفرَس وهي ممسكة بعباءته واتجها نحو نهر لوار خارج مدينة تورس حتى وصلا إلى ضفة من الرمال تتكسر عليها مياه النهر بعد تموج ضعيف وسطح النهر يتلألأ في ضوء القمر ويتلوّن فنزلا عن الفرس وأطلقا له العنان فعاد إلى المعسكر. وظلا هناك منفردين والجو هادىء ساكن لا يسمع فيه غير خرير الماء. فخلعا نعالهما ومشَيا على الرمل المشبع بالماء ونزع هانىء عمامته وعباءته فأصبح حاسر الرأس والذراعين مثل مريم وله ضفيرة كانت العمامة تغطيها فاسترسلت مثل ضفائر مريم. فمشيا على الرمل حتى أصبح تكسّر المياه يصيب كعبيهما فوقفا هناك ومدّ هانىء يديه إلى مريم قبض بهما على يمناها. فأحس ببرودتهما ولينها. فضغط على يدها بكلتا يديه فارتعدت فرائصها جميعاً. ولم تعد مريم تستطيع الوقوف لاصطكاك ركبتيها فأسندت رأسها بيسراها على كتف هانىء فأسكرتها

رائحته كما أسكرته رائحة طيبها ولامسَ شعرها وجهه واشتبك بشعر لحيته فأحس بقشعريرة دبّت في جسمه دبيب النمل بين اللحم والعظم. وخاف لشدة تأثره أن تخونه قدماه فيقع فأبقى يسراه قابضة على يمناها وأدار يمناه إلى كتفها وتساندا وهما صامتان والهوى يتكلم. ثم رفعت رأسها عن كتفه ونظرت في وجهه وعيناها ذابلتان من شدة التأثر، وقد غشيهما الدمع ثم قالت بصوت مختنق: «أتحبني يا هانىء؟».

فأعاد يده الأخرى فأمسك يمناها بيديه وأدناها إلى صدره وقد غلب عليه الحب ونسِي مواقف القتال وقال: «نعم أحبك. أحبك».

قالت: «آه ما ألطف الحب وما ألذه».

قال: «لا لذة بغير الاجتماع. هل في الدنيا اثنان يتمتعان بألذ مما نحن فيه الآن؟ ضميني يا مريم يا حبيبتي.. ضميني إلى صدرك. ألا تشعرين بخفقان قلبي؟ إني أشعر بدقات قلبك». قال ذلك وإحدى يديه فوق كتفها والأخرى قابض بها على يدها.

أما هي فرفعت بصرها إلى السماء فرأت القمر مشرقاً إشراقاً باهراً وعلى وجهه رسم يشبه رأسين متقاربين كأنهما حبيبان يتعانقان فقالت: «إني أرى صورتنا ارتسمت على وجه القمر.. أنظر يا هانىء ألا ترى وجهين مثل وجهينا هنا؟».

قال: «لا أرى في الدنيا مَن يشبهنا ولا مَن حاله مثل حالنا».

وكانت مريم قد جفَّت دمعتها فلما سمعت قوله أجابت: «إن حالنا عجيبة يا هانىء.. تمنينا الاجتماع وسعينا إليه فامتنع علينا فلما التقينا ساءنا الاجتماع خوفاً من الفراق».

فأجابها وعيناه في عينيها: «إني لا أرى ما يشفي غليلي بعد

طول التحسّر إلا أن نجتمع اجتماعاً دائماً لا يتخلله فراق.. ولا يكون ذلك إلا بالموت معاً. هل تموتين معي يا مريم؟».

فالتفتت إليه ويدها ملتفة بيده إلى الكتف وعيناها ذابلتان تتكلمان عنها ثم قالت: «الموت معك حياة يا حبيبي.. يا حبيبي.. آه ما ألذ هذا اللفظ في وهمي، وكم كنت أتلذذ بتكراره في خلوتي وأتحسر على سماعه من فيك».

قال: «صدقت.. ولا يعرف لذة هذا اللفظ غير المحبين. وقد كفانا من حبنا المتبادل التمتع بهذا اللفظ لأننا مقيدان بعهود لا تجيز لنا ما وراءه. ولو كُتب لنا النصر وقطعنا هذا النهر لكان اجتماعنا أطول ودائرة ملذاتنا أوسع.. على أننا لم نكن مع ذلك نأمن الفراق ونكد العيش والدنيا تأتي بالعجب.. أما الآن فإذا متنا متعانقين فكأننا عشنا الدهر معاً ولم ينغّص عيشنا فراق».

قالت: «عجل إذاً ولا تطل بنا الوقوف لئلا يحدث ما يحرمنا هذه السعادة». قالت ذلك ومدت يدها إلى جيبها واستخرجت المحفظة ونظرت إليها لحظة ثم قبّلتها وضمتها إلى صدرها وبكت وهي تقول: «أماه.. يا أماه.. وا لهفي عليك، ما كان أشقاك.. قضيت العمر في التكتم والتستّر والحذر. ثم ذهبت شهيدة السر والهيام محافظة على عهد حبيبك وإكراماً لوصيته. ولو عرفت ذلك من قبل لاستغربت منك هذا الهيام.. وأما الآن فقد ذقت طعم الحب فلا ألومك. بل أنا فاعلة مثل ما فعلت. وها أني عاملة بوصيتك».

ثم أعادت المحفظة إلى جيبها وهي تقول: «هذا سرك ذاهب معنا إلى غياهب الأبدية».

وكان هانىء يصغي إليها وينظر حركات شفتيها وعينيها ويشاركها بكل جارحة من جوارحه. فلما فرغت من قولها أشار

بعينيه إلى جسمها الغض وقال: «أليس غبناً أن تذهب هذه الأعضاء طعاماً لأسماك البحر؟».

فقطعت كلامه قائلة: «ذلك خير لها من أن يفترسها وحوش البر الذين يسمون أنفسهم بني الإنسان.. عجل يا هانىء قبل أن يغلب علينا حب البقاء».

فمدّ يديه ومدت يديها وتخاصرا من جانب وتماسكا من الجانب الآخر ومشيا على الرمل حتى غرقت أقدامهما في الماء، فأحسا ببرده وبانزلاق الرمل تحت الأخمصين. وكانا كلما تعمقا في الماء ازدادا تعانقاً بملء الأذرع وازدادا تجاذباً حتى أصبحا جسماً واحداً وغطسا في الماء وكلّ منهما يتلذذ بذكر اسم حبيبه وبعد دقيقة عاما فبدا بعض الرأسين والشعر سابحاً على سطح الماء ثم غطسا إلى قاع النهر ولم يعد يعلم مصيرهما إلا الله.

أما جيش الافرنج فإنهم أصبحوا في اليوم التالي يتوقعون هجوم العرب عليهم فرأوا الأرض قفراً والخيام خالية فاستولوا على ما كان باقياً فيها من الغنائم وكان ذلك آخر عهدهم بالعرب هناك على ما دونه التاريخ.